احسان عبد القدوس

وتاهت بعد العمر الطويل

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

لا أب ولا أم

منذ تفتح وعيه وهو لا يزال طفلا وهو يحس بأن هذه المرأة لا يمكن أن تكون أمه رغم أنه يناديها « ماما » ورغم أنه يعتمد عليها كل الاعتماد فى كل مطالب حياته حتى كان يحس بالخوف إذا ابتعدت عنه فيبكى صارخا باحثا عنها .. ويخاف إذا اقتربت منه أى امرأة أخرى لتقدم له الطعام أو لتدلله .. إنه لا يعرف امرأة أخرى غيرها .. ورغم ذلك فكلما كبر أكثر اشتد إحساسه بأن هذه المرأة ليست أمه .. ربما لأنه بدأ يحس أنه ينقصه كثير من العطف والحنان الذى يجده بقية الأولاد مع أمهاتهم .. وربما لأنه بدأ يحس أنه ليس بينه وبينها أكثر من أن يعيش معها .. إنها تمده بكل ما يزوده ليستمر حيا .. ولكنها لا تعطيه شيئا أكثر .. إنها تضع الطعام فى فمه ثم تتركه فى ركن من الغرفة دون أن تهتم به ولو بكلمة .. وعندما كبر قليلا أصبحت تتركه يلعب فى الحارة دون أن تهتم بما يلعبه .. فإذا أزعجها بأى شىء أو غاب عنها قليلا فى الحارة تقابله بالضرب المبرح وهى تصيح فى وجهه .. « الله يقطعك ويقطع اللى خلفوك » ..

وبدأ يتفتح وعيه أكثر ويلحظ أنه ليس بينها وبينه أى شبه .. فلونه أبيض فاقع البياض وعيناه خضراوان وشعره أصفر .. وهى داكنة السمار وعيناها سوداوان، مبحلقتان دائما وشعرها أسود ومنحول كأنها صلعاء .. ثم إنها عجوز ... لا يمكن أن تكون أما لمثل سنه .. لعلها جدته ..

ثم أين أبوه .. إنه يعلم الآن أن اسمه محمد عبد الله حامد .. أى أنه ابن عبد الله حامد .. فأين هو عبد الله حامد هذا .. ؟ إنه لم يره أبدا .. ولم يحس به حتى قبل أن يعى ما يَراه .. وقد سألها مرة والكلمات لا تزال تتعثر فوق لسانه :

— أين بابا يا ماما ؟

وقالت فى حدة كأنها فوجئت بسؤال ليس من حقه أن يسأله وتلوى شفتيها كأنها تهم أن تبصق فى وجهه :

— أبوك سافر من قبل أن تولد .. ولن يعود .. ولا أحد يدرى أين سافر .. وإياك أن تسأل عنه مرة ثانية .. وإلا قطعت لسانك ..

وسكت ومن يومها لا يسأل عن أبيه .. ولم يكن يجرؤ وهو فى هذه السن أن يسأل عن أمه .. فالمفروض أنها أمه ..

وقد لاحظ منذ وعى أن هذه الأم تهتم به اهتماما بالغا فى يوم واحد من كل شهر .. فتدخله الحمام وتحميه ثم تصفف شعره ثم تلبسه بنطلونا وقميصا وحذاء لامعا ثم تصحبه إلى زيارة رجل فى مكتب فخم .. وتنحنى أمامه تحاول أن تقبل يده قبل أن يسحبها الرجل من أمام شفتيها .. وأصبحت بعد أن كبر محمد وهما فى زيارة هذا الرجل تصيح فيه قبل أن يدخلا إليه :

— قبل يد سيدك يا ولد ..

فيحاول مثلها ويحاول أن يقبل اليد الممدودة إليه ..

إنه رجل شاب .. كان يستقبل الطفل بعينين حانيتين كأنه يشفق عليه وكثيرا ما يربت عليه وهو يردد :

— كيف حالك يا محمد .. مبسوط مع أم عزيزة .. شد حيلك فستدخل المدرسة وأريد أن أفرح بك ..

وكان محمد يفرح بلقاء هذا الرجل ويحس كأنه يريد أن يتعلق به ويقبله .. بل يحس كأنه يريد أن يبكى على كتفيه لينقذه من أم عزيزة ... أمه ولكن الرجل كان يبتعد عنه سريعا ويتبادل كلمتين مع أم عزيزة .. ثم يضع يده فى جيبه ويخرج مجموعة من الأوراق يعطيها لها . يعطيها نقودا .. لعله هو الذى ينفق عليه .. ولكن من هو ؟ وقد سأل أمه يوما :

— من هو سيدى الذى نزوره يا ماما ؟

وقالت فى حدة كعادتها كلما ردت عليه بكلمة :

— إنه سيدى وسيدك .. وغدا تعرف فضله علينا ..

ولا تكاد تنتهى زيارة هذا الرجل حتى تخلع عنه أمه البنطلون والقميص والحذاء اللامع (وتخفيها) فى الدولاب استعدادا للشهر القادم . وتتركه بالجلباب حافى القدمين يلعب فى الحارة ..

ولم تكن زيارة الرجل الشاب الذى يحبه محمد هى كل ما تصحبه إليها أمه من زيارات .. كانت خلال الشهر تصحبه فى زيارات أخرى .. وكلها زيارات فى أحياء راقية تختلف عن الحى الذى يقيم فيه .. وشوارع واسعة ليست ضيقة كحارتهم .. ولكنها كانت تصحبه وهو بالجلباب وقدماه حافيتان .. وتدخل أى بيت وتبقى معه جالسين فى المطبخ حينا إلى أن تدخل عليهما سيدة البيت الراقى .. ويتلقى محمد منها نظرات إشفاق .. وتمصمص شفتيها حسرة عليه .. ثم قد تنحنى عليه وتقبله .. وأخيرا تقول كلمتين لأم عزيزة وتناولها مبلغا من

المال وأحيانا تلف لها لفة كبيرة من الورق تجمع لها مختلف الأطعمة .. ويرقب محمد الصغير هذه اللفة وهو فرح .. سيأكل منها بعد أن تعود به أمه إلى البيت .. ولم تكن هذه البيوت التى يزورونها كثيرة .. ليست أكثر من ثلاثة بيوت لا تتغير — علاوة على مكتب الرجل الشاب — الذى يزورونه بعد أن تلبسه أمه القميص والبنطلون ..

وقد أصبحت أمه أو أم عزيزة مضطرة أن تلبسه القميص والبنطلون والحذاء كل يوم بعد أن أدخلته المدرسة ... وقد أحس مع مضى أيامه فى المدرسة أن زملاءه الطلبة وكلهم صغار ومعظمهم من أبناء الحى يعاملونه معاملة غريبة وكأنه شاذ بينهم .. إنهم دائما يسخرون منه .. ربما لأنه مختلف عنهم جميعا بلونه الأبيض الزاعق وشعره الأصفر .. ولكنهم يخصونه بنوع معين من الشتائم كلما تشاجر مع واحد منهم .

يصيح واحد :

— اسكت يابن ..

ويصيح آخر :

— عامل نفسك راجل .. ما تروح تدور على أصلك ..

وصاح أحدهم مرة :

— انت فاكر ان أم عزيزة هى أمك .. إنها أخذتك من أمك لتشحذ عليك .

كلها شتائم تعبر عن موضوع واحد .. وقد ذهب مرة إلى أم عزيزة باكيا وقال لها إن التلاميذ يقولون إنها ليست أمه ..

وأم عزيزة تعرف أن كل من يعرفها يعرف أن محمد ليس ابنها .. وهى تحس أن محمد قد بدأ يكبر وأنه يوما ما سيعرف الحقيقة .. ثم إنها

بدأت تشيخ وخفت حدتها وصرامتها فى معاملة هذا الولد .. فقالت له دون أن تشخط فيه أو تصفعه كعادتها :

— أمك ماتت وهى تلدك .. وأصبحت أنا ماما .. ألا تحس بأنى أمك بعد كل ما بذلته وعانيته .. الله يسامحك ..

وقد هدأ محمد وهو يسمع هذه اللهجة المستسلمة الضعيفة التى تحادثه بها أم عزيزة لأول مرة .

وقال كأنه يعتذر لها :

— أنت أمى يا ماما .. ليس لى أم غيرك .. ولكن كيف أصبحت أنت أمى ؟

وتنهدت أم عزيزة فى ضيق وقالت وقد عادت لهجتها تحتد :

— كنت أعرف أمك .. ولم أتركك فى الشارع .. حرام .. فأخذتك معى كابنى .. وفضها سيرة ..

وسكت محمد .. إنها المرة الأولى التى تعترف فيها أم عزيزة بأنها ليست أمه .. لقد كان إحساسه الدائم صادقا .. وقد بدأ كل فكره وإحساسه يتغير .. إنه يعيش باحثا فى خياله عن أمه وأبيه .. ولكنه بحث لا يتعدى الخيال .. أحيانا تمر أمام عينيه امرأة بيضاء وشعر رأسها أصفر فيتصور أنها قد تكون أمه .. وأحيانا تعطف عليه امرأة شابة من نساء الحى ويحن إليها حتى يتساءل .. لماذا لا تكون أمه ويكون قد ورث لونه الأبيض وشعره الأصفر عن أبيه .. وربما كان أبوه أجنبيا .. خواجة أمريكانى أو إنجليزى وضعه فى بطن أمه ثم هرب .. وهو يكره لونه الأبيض وشعره الأصفر .. إنه يحس بهذين اللونين كأنهما العلم الذى يرفعه الله فوق رأسه ليعلن فضيحته .. ليعلن أنه ابن حرام .. وكل هذه

الخيالات استأثرت به حتى عزلته عن الناس .. أصبح معروفا بأنه صبى منعزل لا يحادث أحدا ولا يرحب بمن يتحدث إليه ..

ولكنه مع عزلته كان يعرف بأنهَ تلميذ شاطر .. لم يكن يجد ما يريحه من خياله إلا أن يقرأ دروس المدرسة .. وكان ينجح ويتفوق فى كل امتحان ..

إلى أن كبر .. أصبح فى الخامسة عشرة من عمره .. وانتقل إلى المدرسة الثانوية .. ومنذ سنوات لم تعد أم عزيزة تصحبه معها فى زيارة البيوت التى تشحذ منها عليه .. كانت تذهب وتشحذ وحدها ربما لأنها لم تعد تريده أن يلبس الجلابية ويذهب معها حافى القدمين .. ولكنها كانت تصحبه فى أول كل شهر لزيارة الرجل صاحب المكتب الفخم .. ودائما يستقبله بهذه النظرة العطوفة والابتسامة المشفقة .. ويضع فى يد أم عزيزة مبلغا من المال .. إلى أن شاخت أم عزيزة حتى سقطت يوما على فراشها لا تستطيع الحركة .. وكانت وحيدة .. إنها دائما وحيدة معه .. ولم ير أبدا أحدا يزورهما ولم يعرف لها أبدا قريبا .. لا أخ ولا عم ولا ابن عم .. وكان إذا سألها قالت إن كل من لها من أفراد عائلتها قد مات .. حتى علاقاتها مع نساء الجيران كانت دائما متباعدة فاترة .. وقد امتنع محمد عن الذهاب إلى المدرسة وجلس بجانبها وهى راقدة إلى أن قالت له يوما بصوتها المحشرج كأنها تزفر أنفاسها :

ــ اسمع يا محمد يا ابنى .. إنى سأموت .. ولن تستطيع أن تعيش بعدى إلا إذا عرفت الحكاية كلها ..

إن أمك كانت فتاة صغيرة .. أجمل فتاة رأيتها طول حياتى .. وقد حملتك فى الحرام .. واحتارت وظلت حائرة إلى أن حان موعد الوضع .. وكانت قد أخفت الخبر عن عائلتها الكبيرة حتى عن أمها .. وقبل أن تضع استطاعت أن تهرب .. وكان قد التف حولها بعض النساء من حى المطرية .. وكلهن مجرمات ساقطات .. وكنت أعرفهن وأقيم معهن فى نفس الحى .. إلى أن رأيتهن وقد جئن بأمك لتلدك عندهن .. وكنت أعرف أنهن سيهددنها بك طوال العمر .. أو قد يأخذنك ليفعلن بك ما يردن .. واستطعت أن أعرف من هى أمك .. وبعد أن وضعت استطعت أن أسرقك من هاتيك النساء .. وهربت بك .. وانتظرت أياما إلى أن تركت أمك هؤلاء النسوة فحملتك إليها .. ولكنها لا تريدك .. لقد كانت سعيدة لأنك سرقت منها .. ولا تقبل أن تعود إليها .. وعندما سألتها ماذا أفعل بك .. طلبت منى أن أفعل بك ما أريد حتى لو ألقيتك فى الشارع .. وأنا لا أستطيع أن ألقيك فى الشارع .. حرام على .. واستطعت أن أصل إلى أمها .. ولكنى تأكدت أن أمها كانت تعلم أن ابنتها حامل .. ولم تهتم .. وعرفت أنها وضعتك .. ولم تهتم أيضا .. إنها تترك ابنتها حرة دون أن تكون مسئولة عن حريتها .. إنها هى نفسها كانت حرة وكان لها حكايات بين الناس الأغنياء تنتشر حتى تصل إلى الناس الفقراء .. ورفضت هذه الأم أن تقبل حمل مسئوليتك أو حتى الاعتراف بوجودك .. إنها كابنتها تدعونى أن ألقى بك فى الشارع .. إلى أن أنقذك الله على يد سيدى أشرف بك الذى نذهب لزيارته كل شهر .. إنه قريب لأمك من بعيد .. وقد سمع بالحكاية صدفة .. وحاول أن يقنع أمك وستك بأن يتحملا مسئوليتك .. ولكنه

عجز .. فاتفق معى أنا على أن أحمل مسئوليتك .. على أن أكون أمك .. وهو الذى يدفع لنا ..

وقاطعها محمد قائلا وهو ينهج تحت الضربات التى تسقط على رأسه :

— هل هو أبى ؟

وقالت الأم وزفراتها ترتفع :

— لا .. أبدا .. لو كان أباك لما تخلى عنك .. ولكنه فاعل خير ..

وقال كأنه يستحلفها :

— من هو أبى ؟

وقالت زافرة :

— لا أحد يعرف من هو أبوك .. إن أمك رفضت أن تقول لأحد اسمه .. وسيدى أشرف بك هو الذى وفر لك كل ما تحتاج إليه حتى شهادة الميلاد .. فقد استدعى رجلا كان يعمل ساعيا فى مكتبه واتفق معه على أن يكتبك باسمه فى شهادة الميلاد على أنه أبوك .. وكان اسمه حامد .. وكتب اسمى أنا على أني أمك ..

وقال محمد وهو غارق فى الدهشة :

— إنى لا أرى هذا الرجل أبدا .. وقد قلت لى إن أبى سافر من قبل أن أولد ..

وقالت وزفيرها يضعف :

— لم أكن أملك إلا الكذب عليك .. وقد كانت كل مهمة هذا الساعى ان يكتبك باسمه فى شهادة الميلاد ورفض أن يكتب اسم زوجته مع اسمه على اعتبار أنها أمك .. كان يقول إنه لا يريد أن يحمل

زوجته وزر أولاد الحرام خوفا على أولاده .. فتحايلوا وكتبوا اسمى .. وبعد ذلك لم يحاول أن يراك .. بل إنه لم يرك أبدا .. ولا أعلم هل مات أم لا يزال حيا ..

وقال محمد وخياله يعصف به :

— وما اسم أمى ؟

وقالت أم عزيزة :

— اسمها ست سوسن ..

وقال محمد فى غيظ :

— ما اسم أهلها .. وأين تقيم .. ؟

وقالت أم عزيزة وجفناها يرتخيان فوق عينيها :

— إنها من عائلة البرمونى .. وكانت تقيم فى قصر النيل بجانب مستشفى قصر العينى .. ولا أدرى أين تقيم الآن .. إنها منذ تركتك لى لم تسأل عنك ولا عنى ..

وسرح محمد مع خياله الذى يعصف به .. إلى أن استطردت أم عزيزة وكأنها تلفظ أنفاسها :

— إنى أموت .. وقد حكيت لك الحكاية حتى تدبر حالك .. وقد أعطيت جارتنا أم محروس عشرة جنيهات مصاريف الدفن .. دفنى .. وتحت رأسى عشرة جنيهات أخرى لك .. وادع لى يا ابنى .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وماتت أم عزيزة ..

وألقى محمد رأسه على صدرها يبكى .. ثم أفاق وهو مذهول كأنه لأول مرة يرى الحياة وحده .. ومد يده تحت الرأس الميت والتقط

الجنيهات العشرة ووضعها بسرعة فى جيبه كأنه يخفيها ويخشى أن يراها أحد معه .. ولكنه يعتقد أن أم عزيزة كانت تملك أموالا كثيرة .. وقد رآها تجمع هذه الأموال فى داخل الشلتة الملقاة على الأرض وكانت تجلس عليها .. واندفع إلى الشلتة ومزق غطاءها .. ولم يجد فيها شيئا .. لعلها أرسلت ما كانت تملكه وما جمعته من الشحاذة عليه إلى ابنتها عزيزة التى لم يرها أبدا وكانت تقول له إنها تقيم فى الصعيد .. غفر الله لك يا أم عزيزة ..

وخرج ليبلغ الخبر إلى أم محروس .. وبقى معها إلى أن دفنت أم عزيزة فى إحدى مقابر الفقراء .. وقد تقدم بعض أهل الحى لتعزيته ببعض كلمات ولكن أحدا لم يكن يسأل عن مصيره ولا أحد حاول أن يخفف عنه مصيبته .. إن أم عزيزة كانت تعيش بين أهل الحارة كالوهم .. كالعفريت .. يرونها ولا يعرفونها ..

وقضى ليلته وحده لأول مرة وهو يفكر فى مصيره .. لا يجب أن يستسلم للقدر .. يجب أن يعمل .. أن يتحرك .. لعله يجب أن يبدأ بزيارة أشرف بك ليعرف مصيره معه .. ونحن فى أول الشهر كما تعودت أن تزوره أم عزيزة ..

واستقبله أشرف بك بنظرته العطوفة المشفقة وقال له فورا :

ــ أين ماما ؟

وقال محمد فى أسى واقعى يضج بحيرته :

ــ ماتت ..

واتسعت عينا أشرف بك كأنه فوجئ أكثر معا حزن وقال هامسا :

ــ الله يرحمها ..

ثم سكت قليلا كأنه يفكر ومحمد واقف أمامه كأنه فى انتظار سماع الحكم .. إلى أن قال أشرف :

ــ الموضوع الآن هو تدبير حياتك .. هل تستطيع أن تقيم فى نفس البيت أم هل لديك مشروع آخر .. ؟

وقال محمد وكأنه يهم بالبكاء :

ــ الأمر أمرك يا سيدى .. لقد كانت المرحومة ماما تحدثنى كثيرا عن فضلك علينا ..

قالها وهو يتمنى ألا يتركه أشرف يقيم فى نفس الحارة .. إنه يريد أن يهرب بشعره الأشقر ولونه الأبيض من هذه الحارة التى عاش فيها منعزلا عن خياله ..

وعاد أشرف وفكر قليلا ثم قال من خلال ابتسامة حزينة مشفقة :

ــ من الأفضل نقلك إلى مكان آخر حتى تكون قريبا منى ..

ثم ضغط على أحد الأجراس الموضوعة فوق مكتبه ، وقال للساعى الذى دخل إليه :

ــ نادى أسطى عباس السائق ..

ثم قال بعد أن جاء إليه أسطى عباس :

ــ لقد قلت لى إن أخاك استأجر عدة شقق أقام منها بنسيونات .. اطلب منه أن يخلى منها حجرة حالا ليقيم فيها ابننا محمد حامد .. لقد توفيت أم عزيزة الله يرحمها .. وكن مع محمد إلى أن يستقر فى المكان الذى تعده له .. وقل لأخيك إن الحساب على المكتب ..

وانحنى محمد يحاول أن يقبل يد أشرف كما عودته أم عزيزة .. ووضع أشرف فى يده مبلغا من المال وهو يقول له فى عطف :

— إنك الآن أصبحت مسئولا عن نفسك .. وسأتتبع أخبارك دائما .. وتأتى إلى كلما احتجت شيئا ..

وتركه يخرج مع الأسطى عباس .. وغافل الأسطى عباس ونظر إلى المبلغ الذى وضعه أشرف فى يده .. إنه مبلغ كبير .. خمسون جنيها . هل كان كريما هكذا دائما مع أم عزيزة .. ؟ .. الله يسامحك يا أم عزيزة ..

* * *

وبدأت حياة محمد تتغير منذ بدأ يقيم فى بنسيون بحى باب اللوق .. أحس كأنه سافر إلى بلد آخر غير البلد الذى كان يقيم فيه .. بلد الحارة .. على الأقل تحرر من عقدة لونه الأبيض وشعره الأشقر .. إن هذا الحى يضم كل الألوان ويسكنه كثير من من الأجانب الخواجات فلا يبدو بينهم شاذا بلونه الأبيض وشعره الأشقر ..

ومنذ اليوم الأول وجد نفسه يسير حول مستشفى قصر العينى باحثا عن بيت أمه التى قالت له أم عزيزة إنها كانت تقيم فيه .. بيت البرمونى .. إن عائلة البرمونى عائلة قديمة كانت من أغنى العائلات وكانت تملك أكبر المحال التجارية فى مصر .. وإن كانت قيمتها قد بدأت تهبط منذ سنوات .. وهو نفسه كان يسمع اسم البرمونى منذ كان فى الحارة .. وكان أى أب يريد أن يتباهى بما وهبه الله يقول لابنه كأنه يعده بالجنة غدا أشترى لك من البرمونى ..

وقد عرف بعد أن بحث فى حى قصر العينى أن هذا هو بيت البرمونى .. بيت كبير مطل على النيل وإن كان قد بدأ القدم والإهمال يكسوانه .. وقد عرف أن العائلة لا تزال فيه أو على الأقل بعض من أفراد

العائلة .. وظل أيامها يذهب ويقف من بعيد يرقب من يدخل هذا البيت .. لعله يرى أمه .. لعله يعرفها بمجرد رؤياها من بعيد .. لا .. إنه لا يريد أن يرى أمه .. إنه لا يحس بإحساس من يبحث عن أمه وهو يرقب باب هذا البيت .. ولكنه يريد أن يرى هذه المرأة التى أنجبته .. يريد أن يرى أهله .. إنه يجرى وراء قصته لا وراء عواطفه .. عواطف ابن يبحث عن أمه .. فقط يريد أن يرى هذه المرأة التى بدأت بها قصته .. ومرت أيام .. إلى أن رأى امرأة تخرج من القصر .. وفغر فاه دهشة .. إنها لا شك أمه .. إن وجهه كما يعرفه صورة من وجهها .. اللون الأبيض الفاقع .. والشعر الأشقر .. والعينان الخضراوان .. ولكن لعل أنفه أكبر من أنفها قليلا .. ربما كان قد أخذ أنفه عن أنف أبيه .. وظلت عيناه مبحلقتين فيها من بعيد إلى أن ركبت سيارة كانت قد جاءت لتأخذها واقترب بعد أن اختفت من البواب العجوز الجالس أمام البيت وقال له فى رعشة :

— هل هى سوسن هانم ؟

وصرخ البواب فى وجهه :

— مالك ومال سوسن هانم ؟

وقال محمد برعشته التى ألهمته الكذب :

— إنها صديقة لأمى ..

وقال البواب وهو يلوى شفتيه كأنه يبصق :

— احمد الله على أمك .. واغرب عن وجهى ..

وابتعد محمد وهو يسأل نفسه .. ماذا يفعل بعد أن رأى هذه المرأة .. هل يلقى نفسه عليها ويقول لها إنه ابنها .. ولكنها تنكره منذ

نزل من بطنها .. وليس لديه إثبات أو حتى يعرف شاهدا على أنه ابنها .. وقد تطرده أو تسلمه للبوليس بمجرد أن تراه .. لا يمكن أن ينتظر منها أى إحساس بأمومتها .. نحوه .. إنهم يقولون إن الأمومة غريزة من غرائز المرأة .. كغريزة الأكل والشرب التى تدفع الإنسان إلى التمسك بالحياة .. ولكن أين هى غريزة الأمومة فى هذه المرأة .. لقد ألقته فى الشارع بمجرد أن ولدته كأنها تلقى فضلاتها .. ثم ما حاجته الآن إلى أم .. إنه والحمد لله يعيش بلا حاجة إلى أم .. وهى قد تقلب حياته إذا اقترب منها حتى يضيع كل ما يعيش به ..

واتخذ بينه وبين نفسه قرارا بألا يبحث عن أمه .. وأن يقنع نفسه بأنه ابن أم عزيزة .. لقد كانت أمه فعلا .. ورغم ذلك لم يكن يستطيع أن يمر أمام هذا البيت القديم دون أن يشد لمحاته إليه . ولا يستطيع أن يتجاهل ما يصل إليه من أخبار عائلة البرمونى .

وفى نفس الوقت قرر ألا يقول لأشرف بك إن أم عزيزة حكت له حكايته .. إن أشرف رغم عطفه وحنانه مستمر فى معاملته على أنه ابن أم عزيزة وإن كان لا يذكرها أمامه .. ولم يحاول أن يقربه إليه أكثر .. ولم يحاول مرة أن يدعوه إلى بيته ليعرفه بأولاده وهو يعلم أنه يعيش وحيدا بلا أم ولا أب .. لعل أشرف لا يحاول أن يقربه إليه أكثر حتى لا يتهم وتثور الإشاعات حوله بأنه أبوه .. وربما لو قال له إن أم عزيزة حكت له الحكاية لأبعده عنه أكثر حتى لا يشغله بإعادة إحياء الفضيحة .. الجريمة التى ارتكبت فى حقه .. وقرر أن يبقى بالنسبة له كما كان أيام أم عزيزة ..

وقد حاول محاولة أخرى .. وهى أن يجد هذا الرجل الذى نسب إليه باسمه .. لقد قالت له أم عزيزة إنه كان يعمل ساعيا فى مكتب أشرف بك .. ولكنه لم يجد فى المكتب ساعيا يحمل هذا الاسم لعله مات أو طرد من خدمة المكتب ..

وظل محمد كما هو يعيش حياته متباعدا عن الناس .. وليس له أصدقاء وإن كان قد أصبح لا يرفض المعارف .. أصبح أكثر جرأة على مكالمة الناس بعد أن عرف أن له أصلا .. حتى لو كان ابن حرام .. أصبح يحس بنفسه كأنه ضحية من ضحايا جريمة لا ذنب له فيها .. إنه شهيد من شهداء المجتمع المصرى .. وقد زاده هذا الاحساس بذكاء أقوى .. وقرارات أصوب .. فكان يستطيع أن يدبر حياته وهو يعيش فى البنسيون وحده دون أن يزعج أحدا .. وفى كل شهر يذهب إلى أشرف بك ويأخذ مصروفه وإن كان لم يعد يحاول أن يقبل يده كما عودته أم عزيزة .. إنه يحس الآن بهذا المصروف الذى يأخذه من أشرف كأنه حق له .. لقد قالت له أم عزيزة إن أشرف بك من عائلة أمه فهو إلى حد ما مسئول عنه .. وأكثر من ذلك إنه يزداد تفوقا فى المدرسة حتى مرت السنوات وحصل على شهادة الثانوية العامة بأعلى تقدير ..

وعندما ذهب إلى أشرف بك فرح به فرحة صادقة وقال :

ـــ أى كلية اخترتها لتبدأ دراستك الجامعية .. ؟ ..

وقال محمد وهو متعمد أن يحتفظ بوضعه بالنسبة له :

ـــ تحت أمرك يا سيدى ..

وقال له أشرف بك وهو يقوم ويربت على كتفيه تعبيرا عن فرحته :

ـــ إنه ليس أمرى ولكنه أمرك الذى يفرضه استعدادك وهوايتك ..

وقال محمد وهو يتصور أن أشرف بك سيختار له دراسة تصلح لأن تجعل منه موظفا فى مكتبه وهو مكتب تصدير واستيراد .. قال وهو يحنى رأسه كأنه يحادث السلطان .. سلطان حياته :

ـــ كنت أفكر يا سيدى فى الالتحاق بكلية الهندسة ..

وقال أشرف ضاحكا ..

ـــ إذن الهندسة ..

ومد يده وأعطاه مبلغا كبيرا مكافأة على نجاحه .. مائة جنيه ..

وانحنى محمد يحاول تقبيل يده وهو يقول :

ـــ أبقاك الله يا سيدى ..

وشد أشرف يده قبل أن تصل إلى شفتيه وهو يقول ضاحكا :

ـــ لا تحاول أبدا من اليوم تقبيل يد أحد .. ولا أنا .. ثم لا تستعمل كلمة سيدى أبدا .. لا أحد سيدا لك .. ونادنى باسمى .. إنى اعتبرك منذ اليوم يا باشمهندس ..

وازداد محمد اعترافا بفضل وكرم أشرف بك ولو أنه ظل حريصا على أن يجعله محسنا يشفق عليه ولا واحدا من أفراد العائلة يعطيه حقه .. إن أشرف لا يعلم أنه يعرف الحكاية ..

ومرت السنوات وهو متفوق أيضا فى كلية الهندسة وتخرج من الأوائل حتى عرض عليه أن يعين معيدا وقال لأشرف وهو يحيطه بفرحته :

ـــ لن أكتفى بأن أدرس فى الجامعة أريد أن أزاول الهندسة يا أشرف بك ..

وقال أشرف ضاحكا :

ـــ سأخصص لك مكتبا فى مكتبى .. وسأجعل كل من فى حاجة إلى الهندسة يمر عليك ..

ولكن كل ذلك دون أن يقدمه أكثر إليه .. إنه لم يدعه أبدا إلى بيته ولم يعرفه بأولاده حتى بعد أن أصبح مهندسا ومعيدا فى الجامعة .. لعله لا يستطيع أن ينسى حكايته .. لا يستطيع أن ينسى أنه ابن حرام من بنت ساقطة من بنات العائلة ..

وقد أصبح محمد سعيدا فى الجامعة وقدمه أشرف إلى كثير من أصحاب الشركات الهندسية الكبيرة وأصبحوا يشركونه معهم فى العمليات الهندسية .. إن دخله يرتفع .. حتى إنه قال مرة لأشرف :

ـــ إنى أتمنى أن تكلفنى مرة بعمل لك حتى أرد بعض فضلك على .. إنك أنت الذى صنعتنى ..

وقال أشرف بلهجته الحنونة :

ـــ لا أحد يصنع الآخر .. أنت الذى صنعت نفسك .. واسمع .. إن لى صديقا يحاول منذ ثلاث سنوات أن يبنى بيتا كبيرا له .. ويكاد يجن أمام متاعب المقاولين .. وقد قلت له إنى سأرسل له مهندسا أعرفه سيغنيه عن كل المقاولين وعن كل المتاعب .. وكنت أقصدك أنت .. فهل تقبل ؟

وقال محمد سعيدا :

ـــ طبعا أقبل .. وسأعمل لك لا لصديقك ..

وقال أشرف وقد عاد إلى طبيعة رجال الأعمال :

ـــ بكم يخرج المقاول من العملية التى يقوم بها .. ؟ ..

وقال محمد :

— أعتقد أنه يحصل على عشرة فى المائة من ميزانية المشروع كأتعاب له ..

وقال أشرف فى جدية :

— سأطلب من صديقى أن يخصص لك عشرين فى المائة .. فإنك تنقذه من متاعب تكلفه أكثر .. بشرط ألا تأخذ إلا أتعاب ما يتم تنفيذه .. موافق ..

وقال محمد مبتسما :

— موافق طبعا ..

وبذل محمد كل جهده وكل تجاربه وكل ذكائه فى بناء هذا البيت حتى إنه استقال من مركزه كمعيد للجامعة ليتفرغ له .. وانتهى إلى بناء تحفة يدهش لها الناس ..

واشتهر محمد كمهندس تنفيذى .. ولم يعد أحد يفكر فى البحث عن أصله وفصله .. ابن من ومن أى عائلة .. يكفى أنه الباشمهندس محمد حامد .. ولم يعد يعتمد على أشرف بك فى أى شىء .. ولكنه ظل مواظبا على زيارته .. على الأقل فى كل شهر مرة .. وكان أشرف يستقبله دائما بفرحته وعطفه وحنانه حتى إنه أقام له المكتب الجديد الواسع الذى كان فى حاجة له .. مكتب الباشمهندس محمد حامد .. ولكنه دائما كان يحصر الحديث بينهما فى دواعى العمل .. ولم يحاول أبدا أن يقيم بينهما علاقة أقرب .. ولم يكن يسأله أبدا عن حياته الخاصة .. لم يحاول مثلا أن يسأله لماذا لم يتزوج حتى الآن .. ؟ أو يحرضه على الزواج .. إن أشرف مكتف بأن يعرف عنه أنه مهندس

عبقرى اسمه محمد حامد .. ربما لا يزال يخشى أن يقال عنه إنه أبوه ما دام محمد لا يعرف له أبا ..

* * *

وأصبح محمد فى حوالى الخامسة والثلاثين .. ونجاحه وشهرته أكبر من عمره .. وفوجئ يوما ما فى مكتبه بسكرتيره يدخل إليه ليبلغه أن سيدة تطلب لقاءه واسمها .. سوسن هانم البرمونى .. وفوجئ .. إنه لا ينسى أبدا هذا الاسم .. إنه اسم يعيش معه كما يعيش اسم أم عزيزة .. واسم حامد .. إنه اسم أمه .. وتردد قليلا ثم قال للسكرتير :

— دعها تتفضل ..

وجلس إلى مكتبه وهو يحس أنه فى حاجة لأن يكون شخصية أخرى .. ورآها .. إنه لم يرها إلا مرة واحدة .. إنها أصبحت عجوزا .. ربما تبدو أكبر من سنها .. فالخطوط على جبينها وتحت عينيها .. يقال إن العجز يبدو مع اللون الأبيض أكثر مما يبدو على اللون الأسمر .. لعل العجز سيبدو سريعا عليه أيضا فقد ورث اللون الأبيض عنها .. ووقف يستقبلها استقبالا فاترا كأنه يتعمد أن يؤكد لها أنه لا يعرفها ولم يسمع باسمها .. وأشار لها إلى مقعد لتجلس عليه .. وجلست وهى تبحلق فيه بكل عينيها .. ثم قالت فى صوت متهدج :

— إنك لا تعرفنى .. ولكنى أعرفك منذ ولدت وتتبعتك فى كل يوم من حياتك .. إنى أمك يا محمد .. هل أحكى لك الحكاية .. ؟

وظل محمد ساكتا لا ينطق وهو يفكر ماذا يفعل بها ؟ وكأنه يقاوم ضعفه .. واستطردت الأم قائلة وكأنها ظنت أن صمته معناه أنه يريد أن يسمعها :

— إنى يوم ولدتك كنت على وشك أن أقتل نفسى حتى لا أتخلص منك .. ولكنى وجدت الطريق الذى ينقذنا نحن الاثنين .. ينقذك بأن أحرم نفسى منك وأحرمك منى .. وأبوك تخلى عنا نحن الاثنين .. هل تعرف أباك .. ؟ .. إنه لا يزال حيا ومعروفا ..

وصاح محمد مقاطعا :

— اسمعى أيتها السيدة .. إنى أسمع عنك وعن عائلتك .. وأسمع أنكم أصبحتم فى حالة صعبة .. وإذا كنت فى حاجة إلى مساعدة فلست فى حاجة لأن تبتكرى حكاية كاذبة حتى أشفق عليك .. سأشفق عليك بلا حكاية .. وأساعدك .. سأخصص لك مبلغا كل شهر كزكاة عن نفسى .. ولكنى لا أريد أن أراك مرة ثانية .. ستصلك الزكاة حيث أنت ..

وحاولت سوسن أن تتكلم فصاح فيها وهو يضغط على الجرس يستدعى السكرتير :

— أرجوك .. لا أريد أن أسمع كلمة ..

ودخل السكرتير وقال له فى لهجة جدية :

— خذ عنوان هذه السيدة وطريقة الاتصال بها ..

ثم قام واقفا ومد يده يصافحها فى برود وبكلمة واحدة ..

— مع السلامة ..

وانهمرت دموعها .. وكأنها كانت تهم ببكاء طويل حتى تحنن قلبه عليها .. على أمه .. ولكن السكرتير شدها من ذراعها وخرج بها ..

لقد طردها يوم جاءت إليه . كما طردته يوم جاء إليها .. يوم ولدته .. إنه لم يعد فى حاجة إلى أم بعد أن عاش حياته كلها بلا أم .. وليس فى

حاجة أيضا إلى الأب الذى همت أمه أن تقول له اسمه .. لقد عاش حياته بلا أب ولا أم .. هو الذى ولد نفسه .. ولد الباشمهندس الناجح محمد حامد ..

ولكنه من يومها وهو حريص على أن يمدها بالمال كل شهر .. ويمدها بمبلغ كبير .. ربما يرد بعض كرم أشرف بك عليه .. ولعله كان كريما عليها إلى هذا الحد لا لمجرد الزكاة عن نفسه ولكن خوفا من أن تضطر أن تحكى الحكاية وتطوف على الناس تشحذ باسمه كما كانت تشحذ عليه أم عزيزة ..

ولكنه لا يراها ..

لا يريد أن يراها ..

إلى أن أصبحت تعيش الخوف

إنها لا تعيش فى عائلةفقيرة ولكنها أيضا ليست عائلة غنية .. إن والدها موظف محترم وصل إلى درجة مدير عام ومرتبه يقارب المائة جنيه فى الشهر كما أن له دخلا بسيطا من قطعة أرض زراعية صغيرة يملكها هو وعائلته فى القرية .. دخل لا يزيد عن ألف جنيه فى العام .. وكان يمكن بمرتبه ودخله أن يوفر حياة كاملة مريحة لعائلة صغيرة .. ولكنه لم يحرص على أن تكون عائلته صغيرة .. لقد أصبحت عائلة كبيرة مزدحمة بسبعة من فلذات أكباده .. أربعة أولاد وثلاث بنات .. وهو حريص على أن يوفر لأولاده وبناته كل ما يستطيعه من مطالب الحياة .. وهو لا يستطيع إلا الضرورى جدا من هذه المطالب .. وأهم الضروريات فى تقديره هو أن يستكمل كل منهم تعليمه .. ونفقات التعليم كانت دائما على رأس النفقات التى يحسب حسابها مهما أخذت من باقى النفقات .. والتعليم ليس مجانيا كما يقال .. إنه يكلف العائلة الآن بمطالبه الفرعية ضعف ما كان يكلفها أيام زمان قبل أن يقال إن التعليم أصبح مجانيا .. وهو يعانى ويشكو دائما من مطالب العائلة .. وربما كان عيبه أنه ليس رجلا مغامرا يستطيع أن يفكر ويقدم على الوسائل التى يقدم عليها أغلبية الرجال للحصول على دخل أكبر .. إنه رجل شريف وموظف أمين مستسلم لما خصه القدر به .. بل إنه لا يحاول أبدا أن يناقش أخاه الأكبر فى دخل الأرض الزراعية .. كأنه يأخذ نصيبه من هذا الدخل كهبة منه لا كحق ثابت يجب أن يطمئن على

استيفائه .. وحتى لو كان يثق فى أخيه إلى هذا الحد فهو لا يحاول أن يفكر فى مشروع جديد يزيد من دخل هذه الأرض .. كمشروع لتربية البهائم أو إنشاء حظيرة دجاج لاستدرار البيض وبيعه وتحقيق مكاسبه الهائلة .. أبدا .. إنه شريف أمين مستسلم لما يخصه به القدر .. لذلك ابتعدت العائلة عن مستوى الأغنياء وأصبحت قريبة من مستوى الفقراء أو على الأقل فى مستوى العائلات العادية ..

وخديجة منذ تفتحت مع الحياة وهى تختلف عن إخوتها فى عدم الاستسلام لنصيبها من الحياة التى تعيشها العائلة .. إنها تتطلع إلى كل ما فى الحياة .. وتحاول أن تصل إلى كل ما تريد أن تصل إليه على الأقل للتجربة .. وهى تجد الحياة فى الشارع لا فى البيت .. وتجدها مع شلل الصديقات لا مع أفراد العائلة .. وعندما شبت قليلا أصبحت تمتع نفسها بصحبة الشبان .. لماذا لا تصاحبهم .. إنهم يعطونها من الحياة أكثر مما تعطيها الصديقات من البنات .. ولن يأخذوا منها شيئا إلا ما تقرر هى أن تعطيه .. وهى منذ البداية وهى تعلم ماذا يحاول الشاب أن يأخذه من البنت .. ولم يستطع أحد أبدا أن يأخذ منها ما حاول أن يأخذه .. وعلى كل حال فهى تعلم أنها ليست جميلة جمالا زاعقا تخدشه لمسة حتى لو كانت لمسة شفاه .. ولكنها تعلم عن نفسها أنها جذابة وخفيفة الدم وأنها ذكية فى استغلال جاذبيتها وخفة دمها .. إنها تستطيع دائما أن تحتفظ وتسيطر على كل ما تريد من كل صديق سواء كان فتى أو فتاة .. إلى هذا الحد كانت ثقتها بنفسها .. إلى حد الغرور ..

ورغم إصرارها على احتفاظها بحريتها فى تحقيق كل ما تريد إلا أنها تحاول دائما الاحتفاظ بالمظاهر التى ترضى عائلتها .. فلا تتأخر كثيرا فى البقاء خارج البيت .. أو تبتكر عذرا قويا مقنعا إذا تأخرت .. وتتعمد إخفاء شخصيتها الحرة عن أمها وكل إخوتها .. ورغم ذلك فليس فى البيت أحد راض عنها .. والثورة عليها لا تتوقف .. وأمها تضربها أحيانا .. وأخوها الكبير ضربها مرة .. أما والدها فهو لا يعلم شيئا عنها إلا ما تكلفه من نفقات .. وهم كلهم حريصون على أن يخفوا عن أبيهم كل شىء .. احتراما له والدافع الأقوى هو الإشفاق عليه من أن يحملوه أيضا بلاويهم وخصوصا بلاوى خديجة .. لقد أصبحوا يعتبرونها شاذة مجنونة ويشفقون على الأب من أن يعرف أن له ابنة مجنونة ..

وكان أخوها محمود الذى يكبرها مباشرة بين إخوتها الأربعة يبدو أنه يؤمن مثلها بحقه فى الانطلاق إلى الحياة الأوسع .. وكان يثير فى العائلة نفس نوع المشاكل التى تثيرها .. ويعتبرونه هو الآخر شاذا مجنونا مثلها .. وكان أقرب من فى العائلة إليها .. كانت ترتاح إليه عندما تجلس إليه يتبادلان الآراء فى الحياة كلها .. وكانت تصارحه ببعض ما يحدث لها مع الذين تعرفهم من الصديقات والأصدقاء .. ولكنها طبعا لا تصارحه بكل شىء .. وهما متفقان على أن الحرية هى حق للأبناء .. إن الأبناء فى الدول المتحضرة وصلت حريتهم إلى حد أن أصبح من حق كل منهم أن يهجر العائلة ويعيش مستقلا عندما يصل الواحد منهم إلى السادسة عشرة من عمره .. وهم لا يفكرون فى هجرة العائلة .. بل إنها وأخاها محمود يؤمنان بأن الحرية محدودة بالحرص

على العائلة وعدم تعريضها لما يمسها .. وكان أخوها يقول لها :

— إنى حر مادمت لا أوذى بحريتى أحدا .. ومادمت لا أكون أنا الخاسر بهذه الحرية .. ومادمت لا أجعل العائلة تهتم بى .. إنى أعلم أنى إذا اتهمت فسيهتم بى أبى وأمى وكل إخوتى .. ولذلك لا أترك نفسى لأى اتهام حتى لو كان مجرد اتهام خلقى .. ثم أنا حر مادمت أنجح فى امتحان المدرسة كل عام ..

وكانت خديجة رغم كل هذه الحرية التى تتحدى بها تقاليد عائلتها تنجح فى كل امتحان .. وتنجح بتفوق .. إلى أن وصلت إلى الجامعة وهى التى اختارت كلية التجارة .. أى لم تلتحق بها بحكم المجموع الذى حصلت عليه فى الثانوية العامة ولكن لأن هى التى اختارتها فقد كانت تتصور أن الحياة كلها هى سوق كبيرة لا ينجح فى الحصول على شىء منها إلا التاجر الشاطر .. حتى الحب .. إنه سوق واسعة لا ينجح فيها إلا من يستطيع أن يحسب حساب المكسب والخسارة وهو يتاجر بعواطفه ..

وفرضت خديجة شخصيتها فى كلية التجارة .. أصبحت طالبة معروفة .. وحيويتها المتدفقة تثير حولها آراء متعارضة .. البعض يعتبرها فتاة نشطة والبعض يعتبرها فتاة منحلة .. والبعض يعتبرها خفيفة الدم والبعض يعتبرها وقحة .. والبعض يعتبرها جذابة والبعض يعتبرها منفرة .. وهى لا تهتم بما يقال عنها .. كل ما يهميها هو الإقبال على الحياة لتجربة كل ما فيها .. فانضمت إلى كل الجمعيات التى تتكون بين الطلبة فقط لتجرب وتمتع نفسها بالتجربة .. وصادقت الكثير من الطالبات لمجرد تجربة كل منهن وما تستطيع أن تكسبه من صداقتها ..

كما صادقت كثيرا من الطلبة حتى أصبح من الصعب الحكم عليها .. هل هى لواحد منهم أم هى للجميع .. وكانت تستغل هذه الصداقة .. إن مدحت يحملها معظم الأيام فى سيارته ويصل بها إلى قرب بيتها .. وياسر يدعوها كثيرا إلى الاشتراك فى رحلات جماعية خاصة يقوم بها الأصدقاء إلى الهرم أو إلى القناطر الخيرية أو إلى الإسكندرية .. وهو الذى يدفع قيمة الاشتراك .. وكثير من الأصدقاء كل منهم يقدم شيئا .. وكل منهم يريد أيضا أن يأخذ منها نظير ما قدمه .. قد يكتفى البعض بخفة دمها التى تتعمد أن تبذلها بمجرد وجودها معهم .. ولكن البعض يحاول المزيد .. ولم يصل أبدا أحد إلى المزيد الذى يحاوله .. وكان مصطفى من أقرب أصدقائها وكانت تعتمد عليه كثيرا خصوصا فى مراجعة المواد الدراسية .. وعندما عجز عن الوصول إلى المزيد مما يأخذه منها .. قال يفاجئها :

— سأخطبك ..

قالت ضاحكة :

— وسأخطبك أنا أيضا ..

قال جادا :

— متى أتقدم إلى العائلة ..

وردت من خلال ضحكتها :

— لو عرفت العائلة فلن تخطبنى .. من مصلحتك ألا تعرفها ..

وقال محتدا :

— ماذا أفعل حتى أخطبك ونعلن خطوبتنا ..

وقالت وهى تخفف من حدته بابتسامتها :

— ما هى الخطوبة ؟ .. إنها صداقة معلنة .. وصداقتنا معلنة ومعروفة بين كل طلبة الجامعة ..

وقال وهو لا يزال محتدا :

— الخطوبة هى صداقة شرعية وتعطينى حقوقا شرعية عليك ..

وقالت ضاحكة :

— هل تصل بنا الخطوبة إلى المحاكم الشرعية .. إذن الصداقة غير الشرعية أفضل .. ولنكتفى بالصداقة إلى أن نتخرج وبعدها يحلها حلال ..

وهكذا كانت دائما مع كل من يحاول أن تعطيه من نفسها أكثر .. لا تستجيب لأحد ولا تخسر أحدا .. ولا تعطى أكثر مما تريد أن تسمح به .. وهى لا تسمح بأكثر من اللمسات وإن كانت تضطر أحيانا إلى الاستسلام للمسات الشفاه ..

إلى أن بدأت الحكاية ..

كانت قد تركت الكلية وذهبت سيرا على الأقدام إلى كافيتريا هيلتون حيث تعودت أن تلتقى بشلة من الطلبة الأغنياء يصحبون معهم بعض الطالبات .. إنها تقضى بينهم وقتا ممتعا دون أن تتكلف شيئا .. ولكنها لم تجد أحدا منهم .. ربما تأخرت عليهم فذهبوا فى جولة من الجولات التى تعودوها كل يوم .. ورغم ذلك جلست وحدها على مائدة دون أن تطلب لنفسها شيئا .. ليس معها ما يكفى ثمنا لطلب من كافيتريا هيلتون واعتذرت للجرسون الذى تقدم إليها بأنها فى انتظار أصدقاء .. وبعد لحظات رأت شابا وسيما يجلس إلى المائدة المجاورة وينظر إليها .. وعندما التقت عيناها بعينيه فوجئت به يبتسم لها .. وبلا

تفكير منها ردت ابتسامته بابتسامة منها .. يبدو عليه أنه أجنبى .. وبعد عدة لمحات تأكدت من أنه أجنبى .. ويبدو عليه أنه مهذب .. فابتسامته ونظراته مترددة كأنه يخجل من أن يطلقها .. أو كأن ليس من عادته البصبصة للبنات والتجرؤ عليهن .. وبطبيعتها المندفعة قامت من أمام مائدتها واقتربت منه قائلة فى بساطة :

— هل تتكلم الإنجليزية ..

إنها تجيد الإنجليزية وقد رد عليها بإنجليزية مفككة وهو يقوم واقفا احتراما وترحيبا بها :

— نعم .. أستطيع أن أتكلم الإنجليزية .. ولكن بصعوبة ..

وجلست على مقعد من مقاعد مائدته وهى تقول فى بساطة كأنها تعرفه من زمن طويل :

— اجلس ..

وجلس مستسلما وابتسامته تتسع .. وبدأ بينهما حديث طويل .. وعرفت أنه من يوغسلافيا وأنه مهندس جاء مع شركة ألمانية تعمل فى مصر .. وتأكدت أنه فعلا شاب مهذب .. فرغم حديثها الطويل فهو لا يطلب منها شيئا يمكن أن ترفضه وإن كانت تلمح فى نظراته وفى تردده أحيانا كأنه فى انتظار شىء .. ماذا ينتظر .. ربما كان يعتبرها من بنات المقاهى اللاتى يجلسن فى انتظار الزبائن وخصوصا من السواح الأجانب .. ورغم أنها قالت له إنها طالبة فى الجامعة ومن كلية التجارة فقد لا يكون قد صدقها أو لم يعتبر أن هذا سبب كاف ليحرم مما يريده منها ، فإن معظم هذا النوع من بنات المقاهى يدعين أنهن طالبات فى الجامعة .. وقد يكون قد صادف قبلها واحدة منهن .. وقد أبعدت هذا

الخاطر عن فكرها واستمرت تطيل الحديث معه .. وهى تحس بنوع جديد من السعادة وهى بجانبه .. تحس كأنها تركت مصر كلها وأصبحت فى أوربا .. فى يوغسلافيا .. إن كلا منهما يحدث الآخر عن بلده .. وهى تحس بعد أن أبعدتها خواطرها عن مصر بمزيد من حرية الانطلاق والتحرر من القيود والتقاليد المتعبة التى تفرضها عليها عائلتها ومجتمع طلبة الجامعة ..

واستمر الحديث حتى عرض عليها أن يبدءا فى تناول الغداء .. وقبلت فرحة وتولت هى الاتفاق مع الجرسون على ما تطلبه له ولها .. كأنها هى المسئولة عنه .. وحتى عندما بدأ يدفع الحساب تولت هى مراجعة الجرسون ثم أخذت النقود من يد تيتو ودفعت هى ولوى الجرسون شفتيه احتقارا عندما رأى قيمة البقشيش الذى أعطته له .. إنها لا تفرق بين قيمة البقشيش التى يمكن أن تدفعه هى والبقشيش الذى يمكن أن يدفعه سائح من السواح .. وبعد الغداء أقنعته بأن يقوما معا ويسيرا فى الشارع المطل على النيل .. وربما قبل أن يقوم معها اعتقادا منه أنها ستصحبه إلى فراشها كما تعودت بنات المقاهى .. ولكنها سارت به يطلان على النيل فترة طويلة وهى قادرة على ألا يتوقف بينهما الحديث الممتع . إلى أن استأذنته فى أنها يجب أن تتركه لأن تقاليد العائلة لا تسمح لها بأن تتأخر عن البيت أكثر من ذلك واستسلم فى أدب بل وصحبها فى سيارة تاكسى إلى أن وصلت به إلى الشارع الرئيسى القريب من البيت وتركته بعد أن اتفقا على اللقاء غدا فى نفس المكان الذى التقيا فيه .. كافيتريا هيلتون .. ولكن فى الساعة الخامسة بعد الظهر بعد أن يكون قد انتهى من عمله .. إلى هذا الحد كانت سعيدة

بهذه الدنيا الجديدة وإلى هذا الحد كان قد انجذب إليها ..

وأصبحا يلتقيان كل يوم .. واشتدت الألفة بينهما حتى أصبح اللقاء ينتهى بهما أحيانا إلى غرفته فى الفندق الذى يقيم فيه .. فندق هيلتون . وقد أصبحت تعطيه أكثر مما تعودت أن تعطى الشبان الذين كانت تعرفهم .. لقد أفرطت فى اللمسات التى تبيحها له .. ولكن كانت هناك دائما حدود لا تخرج عنها .. إنها عذراء متمسكة بأن تبقى عذراء .. وكل ما هناك أنها توفر له وسيلة يستطيع أن يستغنى بها عن حاجته إلى أى فتاة أخرى .. .

وقد رآها كثير من صديقاتها وأصدقائها وهى معه .. إنها معه حتى استغنت عنهم كلهم .. وعندما كان أحدهم يسألها عنه كانت تقول إنه خطيبها ولكنه لن يتقدم إلى عائلتها إلا بعد أن تتم إجراءات إعلان إسلامه .. وقد صارحت تيتو بكذبتها وقالت له :

— إنى أقول لهم إنك خطيبى وإنك فى انتظار إعلان إسلامك لنعلن خطوبتنا .. وهو مجرد كلام أبرر به صداقتنا فأنت تعلم أن مصر لا تعترف بالحب .. ولا حتى بالصداقة بين الفتى والفتاة ..

وقال مستسلما :

— إن فى يوغسلافيا كثيرا من المسلمين .. وأنا مستعد أن أكون مسلما ونتزوج ..

وقالت صادقة وهى تضحك :

— ليس الآن لم تصدر الأوامر بعد بالزواج ..

وهى فعلا لم يكن يخطر على بالها أن تتزوجه .. إنها فى منتهى السعادة بلا زواج .. إنها تعيش فى أوربا .. وهو أيضا لم يكن يلح فى أن

يتم الزواج رغم أنها تحرمه من أن يصل إلى كل ما يريد .. ولكنها فى الواقع كانت تعامله كأنه أصبح زوجها خصوصا بالتدخل فى تنظيم حياته الخاصة .. كانت حريصة على ألا تتركه يتعامل أو يعامله الناس على أنه سائح أجنبى يمكن ابتزازه فكانت هى التى تتولى المعاملات نيابة عنه حتى لا يفرط فى مليم واحد من نقوده .. بل إنها فكرت أن تنقله من فندق هيلتون بعد أن عرفت قيمة الإيجار الذى يدفعه لولا أنها تأكدت من أن الشركة التى يعمل بها هى التى تدفع تكاليف إقامته .. وهو أيضا كان مستسلما لها كزوج مهذب مطيع .. وتعود أن يخرج من جيبه حافظة نقوده ويعطيها لها لتتولى هى الدفع ..

وفى يوم .. وبعد المغرب وكانت الشمس قد غابت وبدأ الليل يزحف ونور القمر بدأ يطل .. كانا يسيران فى شارع النيل ووصلا بعيدا عن المنطقة التى تزدحم بالفنادق .. ورأت مركبا صغيرا من مراكب النزهات بجانب الشاطئ وخطر على بالها أن تركب فيه هى وحبيبها ليتمتعا بنور القمر ينسكب فى مياه النيل .. ونزلا إلى المركب ووقف المراكبى يرحب ويهلل .. إنه شاب طويل عريض غليظ الصوت .. وقالت له بعض كلمات وقبل أن يركبا معه قالت :

— كم تأخذ لنزهة قصيرة ..

وقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة .

— ما يجود به السيد مقبول ..

وقالت فى صوت حازم يرفض النقاش :

— لا .. لنتفق مقدما .. كم تريد ؟

وقال بصوته الغليظ :

ـ عشرة جنيهات يا ست .

وابتسمت ساخرة .. لا شك أنه اكتشف أن حبيبها أجنبى .. خواجة .. سائح من السواح الذين يبتزهم كل من يقترب منهم .. وقالت :

ـ لا أكثر من جنيه .. وإذا بقينا معك أكثر من نصف ساعة سنعطيك جنيهين .. ونظر إليها فى غل كأنه يتهمها بالوقاحة وقال كأنه ينهرها :

ـ لا يمكن يا ست ..

وقالت فى إصرار :

ـ هذا كل ما يمكن ..

وبعد كلمات قال كأنه يريد أن يكسبهما :

ـ عوضنا على الله .. تفضلا ..

وركبا المركب وجلست على حافتها ملتصقة بحبيبها وذراعه يلف كتفيها .. ولم يرفع المراكبى القلع وأخذ يجدف بهما بالمجداف .. وقالت له :

ـ ألا ترفع القلع .. ؟

وقال وهو يجدف :

ـ الهواء نائم هذه الليلة وليس فيه ما يدفع القلع .. والبركة فى المجداف ..

ووصل بالمركب إلى منتصف عرض النيل ثم توقف عن التجديف .. ووضع يده فى جيبه والقارب يهتز فوق صفحة النيل وأخرج سيجارة وأشعلها واعتدل فى جلسته كأنه ينوى أن يستريح :

وقالت فى ذهول :

ـ لماذا توقفت .. ؟

وقال وهو ينفث دخان سيجارته :

ـ لنتكلم قليلا ..

وصاحت خديجة فى رعب :

ـ ماذا بيننا وبينك من كلام ؟

وقال بعد أن أطلق بصقة فى الماء :

ـ أليس من الحرام أن تكونى مع الخواجة ضد الغلابة أبناء بلدك .. ماذا كان يهمك لو دفع لى الخواجة مهما دفع ..

قالت وهى ترتعش :

ـ إذا كان لم يعجبك ما اتفقنا عليه فعد بنا وستأخذ الجنيه الذى اتفقنا عليه رغم أنه لم يمض علينا فى المركب سوى دقائق .. وضحك المراكبى ضحكة كأنها طرقعة السياط :

ـ لم يعد ما آخذه جنيها .. ولا حتى العشرة الجنيهات التى طلبتها أنا .. سآخذ كل ما فى جيوب الخواجة وكل ما فى حقيبتك ..

وحبيبها تيتو بدأ يتكلم باللغة الإنجليزية ثم تفلت منه ويتكلم بلغته اليوغسلافية .. يريد أن يعرف سر ما حدث وقالت له خديجة فى كلمة خاطفة ما يطالب به المراكبى ثم قالت للمراكبى :

ـ سأصرخ وصراخى سيصل إلى كل من على الشاطئ .. عد بنا ..

قال المراكبى ضاحكا ضحكة ساخرة :

ـ ربما اهتز القارب وأنت تصرخين وانقلب .. والله يرحمكما منى ..

واشتدت رعشة خديجة .. إنها لو سقطت فى النيل فستموت هى وحبيبها .. إنها لا تعرف السباحة . ولا حبيبها أيضا .. وسيغرقان ويموتان .. وبكت من الخوف . وقالت من خلال دموعها وهى ترتعش :

— حرام عليك يا ريس سنعطيك العشرة الجنيهات .. عد بنا فى عرضك ..

وقال كأنه سلطان من الجن ينفث دخان سيجارته :

— قلت إنى أريد ما معكما .. ودعك من الكلام وإلا بدأت أهز المركب ..

ومن خلال دموعها ترجمت ما يقوله المراكبى لحبيبها .. وقال تيتو وصوته يرتعش هو الآخر :

— لنعطه ما يريد حتى لا يقتلنا ..

ثم مد يده فى جيبه وأخرج محفظة نقوده من جيبه وناولها للمراكبى وهو يقول بصوته المرتعش وباللغة الإنجليزية :

— هذا كل ما معى ..

وأخذ المراكبى المحفظة وهو يقول لخديجة :

— قولى له أن يخلع ساعته والخاتم الذى فى إصبعه ..

وترجمت لتيتو الذى خلع الساعة والخاتم فورا وناولهما للمراكبى وهو ينظر إليه فى فزع كأنه يسأله ماذا يريد أكثر .. ومد المراكبى يده فجأة والتقط حقيبة خديجة التى كانت قد تركتها بجانبها ، وفتحها وأخذ يقلب فيها ثم قال ساخرا :

— إنك غلبانة .. ليس معك إلا قروش .. وقالت وصوت بكائها يرتفع ويكاد ينهار بها :

— إى والله غلبانة مع الدنيا كلها .. غلبانة حتى لو ركبت مركب فى نزهة ..

وجمع المراكبى ما وجده فى حقيبة خديجة ووضعه فى جيبه وهو يقول :

— يكون لى عليك حق آخر ..

وقالت وكأنها تترنح :

— أى حق .. أنا فى عرضك ..

وقال وهو ينظر إليها كأنه يهم أن يبتلعها :

— ما يتمتع به الخواجة أنا أحق بالتمتع به .. نحن أولاد بلد ..

وقالت وصوتها كأنه همس :

— ماذا تقصد .. ما هذا الذى يتمتع به الخواجة .. ؟

وقال وهو يلقى من يده عقب السيجارة :

— يتمتع بك أنت ..

ثم مال إليها وشدها من ذراعها إليه حتى أصبحت بين ذراعيه ثم بدأت يده تمتد فى أنحاء جسدها ويده الأخرى تشد شعرها حتى رفع شفتيها إلى شفتيه وهم كأنه سيأكلها .. والقارب يهتز .. وحبيبها تيتو جالس مكانه وهو متعلق بكفيه بحافة المركب حتى لا يقع منها ويقول كلمات بلغته كأنه يصرخ صرخات لا يسمعها إلا هو .. وألقى المراكبى فجأة بخديجة بعيدا عنه وهو يقول ساخرا كأنه يبصق :

— إنك لا تستحقين .. ولا تثيرين رجل .. طعمك كطعم الزبالة ..

ثم أمسك بالمجدافين وأخذ يجدف ويعود بالمركب إلى الشاطئ .. إلى أن وصل بهما وقال كأنه يشوطهما بقدمه :

— فى ستين داهية ..

وما كادا يضعان أقدامهما على الأرض حتى أخذا يجريان كأن هذا المراكبى يجرى وراءهما فى حين أنه كان جرى بالمركب فى أعماق النيل كأنه يختفى فى دنيا أخرى ..

* * *

وبذلت خديجة بعد أن عادت إلى البيت كل إرادتها لتخفى رعشتها وتوترها عن أهلها .. واستطاعت حتى أن تواجه فى هدوء الثورة التى يصبونها عليها لأنها عادت متأخرة بعد الساعة الثامنة .. ولكنها لم تستطع أن تنام .. إن طبيعتها ترفض الاستسلام لما حدث لها والاكتفاء بحمد الله على سلامتها .. طبيعة الفتاة المعتدة بنفسها والتى عاشت تحقق كل ما تريد دون أن تتعرض لشىء .. ودون أن تتعرض لأى إغراء .. وهى لا يمكن أن ترحم هذا المراكبى الذى اعتدى عليها وعلى حبيبها .. ولكن كيف .. كيف تسترد اعتزازها بنفسها .. كيف تنتقم ..

ستبلغ البوليس عن المراكبى ..

إن لها صديقة فى الجامعة ابنة مأمور قسم بوليس الجيزة .. ستتصل بها بالتليفون وتبلغ أباها بما حدث .. إنها لا تنتقم لنفسها فقط ولكنها تحمى بقية الناس من أمثال هؤلاء المجرمين .. تحمى البنات اللاتى

يفكرن مثلها فى قضاء متعة بريئة مع الحبيب فى مركب يطير بهما فوق مياه النيل ..

وفى صباح اليوم التالى استطاعت أن تتصل بالمأمور وروت له ما حدث .. ولكنه قال إنها يجب أن تسجل محضرا رسميا لكلامها حتى يبدأ فى اتخاذ الإجراءات والبحث عن المراكبى .. وقالت له بصراحة إنها لا تريد أن تعرف عائلتها شيئا .. إنهم لن يغفروا لها أنها ركبت مع غريب مركبا فى النيل .. ووعدها المأمور بأن يكون حريصا على ألا يصل شىء إلى عائلتها .. وكتب المحضر لها .. وبدأ البوليس يبحث عن المراكبى .. وهى تتصل بالمأمور دائما إلى أن عرفت أنه قبض على المراكبى وأدخل السجن تحت الحجز .. ثم قدم للنيابة وكان يجب أن تدلى بأقوالها مرة أخرى .. واستدعيت إلى النيابة لتواجه المراكبى .. وتعمدت أن تتجاهله ولم تترك نفسها تهجم عليه وتنهال عليه ضربا كما كانت تتمنى .. إن القانون كفيل بأن ينتقم لها .. والمراكبى نفسه كان صامتا هادئا أمامها يريد أن يظهر بمظهر البرىء المظلوم .. لم تسمع صوته إلا عندما كانت تحكى عن المحفظة التى استولى عليها .. فقال مقاطعا :

— ربما وقعت منكما فى النيل يا ست ..

ثم سمعت صوته مرة ثانية عندما كانت تحكى محاولته الاعتداء عليها .. فقال مقاطعا :

— لا يمكن يا ست .. لقد كان معك رجل ..

ووكيل النيابة ينهره حتى لا يتجرأ على المقاطعة ..

ووصل التحقيق إلى حد أن اضطرت أن تترك النيابة تستدعى حبيبها

تيتو وتسأله .. وقد اعترف هو الآخر بكل الحكاية ..

وبعد الانتهاء من التحقيق بدأ ينتابها نوع عنيف من الخوف ..

إن المراكبى لا يزال فى السجن .. ولكن قد يخرج من السجن بعد شهر أو شهرين .. أو بعد عام أو عامين .. فهل يتركها وينساها .. إن هذا النوع من المجرمين لا ينسى ولا يتنازل عن الانتقام .. وربما حاول أن ينتقم منها بعد أن يفرج عنه .. وهو يعرف الآن اسمها المسجل فى التحقيق .. خديجة برهان .. كما عرفت هى اسمه .. حمدان عبد الواحد .. ومن السهل أن يعرف عنوانها .. لماذا يارب لم تكتف بحمد الله على نجاتها ..

والخوف يشتد بها .. حتى بدأت تفكر فى التنازل عن دعواها ضد المراكبى . حمدان .. ولكنهم أفهموها أن ليس من حقها أن تتنازل إلا عن حقها المدنى ولكنها لا تستطيع أن تسحب الجريمة وتتنازل عنها .. وقالت لأبى صديقتها رجل البوليس إنها خائفة من حمدان بعد أن يفرج عنه فضحك وهو يقول لها ألا تخاف .. فهؤلاء الأصناف متعودون على السجن ولا يفكرون فى الانتقام ممن يبلغ عنهم ..

ولكن الخوف يشتد أكثر .. إنها خائفة وهى فى بيتها .. وخائفة وهى فى الشارع .. وخائفة وهى فى الجامعة .. ربما كان الخوف هو الذى جعلها تبتعد عن حبيبها اليوغسلافى تيتو .. لم تعد تطيقه .. إنه إنسان ضعيف لم يستطع يوما أن يحميها وضعفه هو الذى أطمع حمدان فيهما .. رغم أن هذا الضعف كان هو الذى يريحها باستسلامه لها ..

ولكل ما تريد .. وكان هذا الخوف هو الذى أدى بها إلى السقوط فى امتحان الكلية .. لأول مرة تسقط فى أى امتحان ..

لقد تغيرت كلها ..

لم تعد الفتاة المعتدة بنفسها .. الذكية الجريئة .. أصبحت منزوية .. ساهمة .. أصبحت تعيش الخوف .. ولا تدرى متى يفرج عن حمدان .

لا إلـٰه إلا الله

إن إبراهيم لا يزال يذكر أول سؤال حيره وتوجه به إلى أمه وهو لا يزال طفلا فى الخامسة من عمره .. فقد كان يرى أباه يصلى صباح كل يوم قبل أن يخرج من البيت وكان يقف خلفه أحيانا ويقلده فى انحناءات الصلاة ولم يكن أبوه يدعوه إلى الصلاة معه ولكنه كان يفرح عندما يراه واقفا خلفه يقلده .. وبدأ أبوه يتلو صلاته بصوت مرتفع كأنه يريد من ابنه أن يتلوها وراءه ويحفظها منه بل إنه بلا تعمد وفى فترات متباعدة كان يداعبه خلالها ، استطاع أن يلقنه صورة الفاتحة حتى حفظها.وفى يوم سأل إبراهيم أمه ، كمجرد خاطر طرأ عليه دون تعمد :

— هل الرجال وحدهم هم الذين يصلون ؟

وقالت أمه ضاحكة :

— الرجال والنساء كلهم يصلون ..

وقال فى دهشة :

— ولماذا لا تصلين أنت مع بابا ..

واحتضنته تقبله وهى تقول ..

— إنى أصلى مع خالك لبيب :

وقال فى دهشة :

— لماذا تصلين مع خالى ولا تصلين مع بابا ..

وقالت وهى تمسح بيدها على شعر رأسه :

— هكذا تعودت .. وتعود بابا .. ونحن الاثنان نصلى لربنا .. وربنا واحد ..

وقال وهو يضحك لها كعادة الأطفال عندما يطلبون شيئا :

— أريد أن أراك وأنت تصلين مع خالى ..

قالت وهى تبعده عنها فى حنان كأنها لا تريد أن يطيل معها الكلام :

— إننا لا نصلى فى البيت ..

وسأل بدهشة :

— أين تصليان ؟

قالت فى رفق وهى تنظر إليه فى لوم كأنها تتمنى عليه أن يرحمها من هذه الأسئلة :

— فى الكنيسة ..

ورنت الكلمة فى رأسه بطنين مرتفع .. إنها المرة الأولى التى يسمع فيها لفظ كنيسة. ترى ما هى الكنيسة؟ وقال ولهجته تحمل رنة إصرار:

— أريد أن أرى الكنيسة ..

وقالت أمه وهى تقوم مبتعدة عنه :

— حاضر ..

وتركته وهو يسقط فى بحر الحيرة التى عاش فيها طوال حياته ..

وقد انتظر يومها حتى عاد والده إلى البيت وانتهز فرصة اختلائه به وقال له وهو يلقى بنفسه على صدره ويقبله :

— بابا .. لماذا لا تصلى فى الكنيسة .

ورده أبوه وهو يضحك ويحتضنه :

— إنى أصلى فى البيت أو فى الجامع ..

ورن لفظ الجامع فى رأسه بنفس الطنين الذى رن به لفظ الكنيسة وقال وقد اشتدت به الحيرة :

ــ ولكن ماما تصلى فى الكنيسة ..

وسكت الأب برهة وهو ينظر فى عينى ابنه وعيناه تفيضان بالحنان ثم قال كأنه قرر أن ابنه وصل إلى السن التى يمكن أن يواجهه فيها بواقع لم يكن يعلمه بعد :

ــ إن ماما مسيحية وأنا مسلم ..

وقال إبراهيم فى دهشة :

ــ وما الفرق ؟

وقال الأب وهو يحتضن ابنه بابتسامة :

ــ بالنسبة لنا نحن الاثنين فلا فرق .. كلانا سعيد ومرتاح بإيمانه ..

وقال وهو غارق فى الحيرة :

ــ وأنا .. هل أنا مسلم أم مسيحى .

وقال الأب فى عجلة :

ــ أنت مسلم لأن أباك مسلم ..

وقال من خلال حيرته :

ــ هل لو كنت فتاة كنت أكون مسيحيا كماما ..

وقال الأب بسرعة ..

ــ لا .. الأبناء أولاد وبنات كما يحملون اسم الأب يحملون صفته كمسلم أو مسيحى ..

وقال كأنه يهم بالبكاء :

ــ ولكنى أحبك وأحب ماما .. وسأكون مسلما مثلك ومسيحيا مثلها ..

وقال الأب وهو يبتلع ريقه كأنه بدأ يعانى من ابنه :

ــ مستحيل فأنا أيضا أحب ماما وماما تحبنى وكل منا يعيش إيمانه دون أن يكون فيه ما يعكر حبه .. ولا تشغل نفسك بهذا الموضوع .. ودعها على الله ..

وقال الصبى بسرعة كأنه يدافع عن نفسه :

ــ ماما قالت لى إن الله واحد ..

وقال الأب وهو يبتعد عن ابنه :

ــ لا إلٰه إلا الله .. وعندما تكبر ستعرف أكثر ..

وتركه والده وهو يغوص أكثر فى بحر الحيرة وقد أخذ يلح على أمه حتى صحبته صباح يوم أحد إلى الكنيسة ووالده يعلم دون أن يعترض وكأنه أمر طبيعى أن تصحبه إلى الكنيسة.وقد جلس جانبها يستمع إلى التراتيل ويقلدها فى كل حركاتها ثم يتطلع إلى السقف وإلى الجدران بعينيه مأخوذا بالصور المعلقة وخرج دون أن يفهم شيئا وليس فيه ما ينبض بإحساسه إلا أنه بجانب أمه وقد عاد إلى البيت وبدأ يلح على أبيه قائلا :

ــ لقد رأيت أمى فى الكنيسة وأريد أن أراك فى الجامع ..

وكان أبوه يرد عليه قائلا :

ــ أفضل أن تنتظر حتى تكبر وتذهب إلى الجامع وحدك وحتى تكون دوافعك من إيمانك لا من إيمانى ..

ولكن إبراهيم الذى كانوا يدللونه باسم « برهم » أخذ يلح حتى صحبه معه فى صلاة الجمعة .. وأمه تعلم أنه صحبه إلى الجامع دون أن تعترض أو تعلق بكلمة وكأنه من الطبيعى أن يصحب أباه إلى الجامع وقد جلس بجانب أبيه يسمع القرآن ثم بدأ يقلده فى كل حركاته بعد أن أقيمت الصلاة ويردد مع إمام الجامع الفاتحة التى كان قد حفظها ويدير عينيه بين السقف والجدران وبين المصلين كأنه يحاول أن يكتشف شيئا يفهمه وإن كان كل ما اكتشفه وفهمه هو أن أباه كان فخورا به بين المصلين كأنه يتباهى بأنه أنجب مسلما ..

وقد سأل أباه يومها وكان هذا هو كل ما خرج به من الصلاة فى الجامع :

ـــ لماذا يجلس المصلون فى الكنائس على مقاعد ويجلسون فى الجوامع على الأرض ..

وقال الأب مشفقا فى حنان :

ـــ إنك لم تكن فى الجامع جالسا على الأرض ولكن على سجاد. وكل الأديان تركع لله ويكون ركوعها على الأرض.وإحساسك بالله يغلب إحساسك بكيف تكون وأنت متوجه إليه لأنه إحساس يرفعك إلى السماء .

ولم يستطع برهم أن يتخلص من الحيرة التى يعيش فيها وربما كان مما يعشش هذه الحيرة فى نفسه أن ليس حوله ما يخرجه منها أو يعينه عليها فأبوه وأمه عاشا كل حياتهما فى أقوى وأرقى حالات الحب لم يسمع منهما يوما خلافا أو نقاشا حول إسلامه أو مسيحيتها بل إن كلا منهما كان حريصا على رعاية إيمان الآخر،فأمه تطوى سجادة صلاة أبيه

بيديها وتهتم بحفظها ورعايتها .. بل إنها اشترت له أكثر من سجادة أعجبتها وكانت تتباهى بها كأنها اشترت تحفة مقدسة،وكانت فى أيام رمضان تطبق على البيت كله تقاليد الصيام وهى نفسها كانت تصوم أياما ولا تأكل إلا مع العائلة ساعة الإفطار وإن كانت فى معظم الأيام لا تستطيع أن تحرم نفسها من فناجين القهوة ومن السجائر.وكل أعياد المسلمين يحتفل بها فى البيت حتى أن أمه كانت تشترى بنفسها الخروف وتشرف على ذبحه فى عيد الأضحى وتشترى لزوجها وأولادها الملابس الجديدة فى العيد الصغير،وأبوه أيضا كان حريصا على رعاية مظاهر إيمان زوجته.إنه يتركها تتردد على الكنيسة كلما أرادت وهو فرح بإيمانها ويتركها تحتفظ بالصليب الصغير،فوق صدرها لا تتخلى عنه أبدا،بل إنه سافر مرة إلى الخارج وعاد يحمل بين الهدايا صليبا ذهبيا موشى بالفصوص ليعلقه فوق صدر حبيبته متباهيا به .. وكل الأعياد المسيحية يحتفل بها البيت وعيد الميلاد .. وعيد القيامة المجيد .. وأحد السعف .. و .. و ..وإن كانت أمه نفسها تعفيهم من التمسك بكل أيام الصيام التى لا تقدم لهم فيها أى شىء تدب فيه الروح ولا يأكلون إلا ما أعد بالزيت لا بالسمن ولا بالزبد.إنها أيام طويلة تصل فى عيد القيامة إلى خمسة وخمسين يوما وفى عيد الميلاد إلى أربعين يوما فكان يكفى أن يصوموا يوما أو يومين فى كل عيد،كما أعفتهم مما يتبعه المغالون فى التدين بالصيام كل يوم أربعاء وكل يوم جمعة طوال السنة ..

وكل منهما كان حريصا على زيارة عائلة الآخر خصوصا فى المناسبات،أبوه يذهب مع أمه لزيارة عائلتها وأمه تذهب مع أبيه لزيارة

عائلته وكانا يصحبان معهما دائما إبراهيم.وقد أحس إبراهيم أنه رغم السنوات الطويلة التى مرت على زواج أبيه وأمه فإن أباه يبدو غريبا وهو وسط عائلة أمه محتفظا مراعيا كل كلمة ينطق بها وأمه كذلك تبدو غريبة وسط عائلة أبيه .. هى أيضا متحفظة تفرط فى المجاملة .. أما هو وإخوته فكانت العائلتان تفرطان فى الترحيب بهما وتدليلهما وغمرهما بالهدايا،بل كانت كل عائلة تدعو أحيانا الأولاد دون دعوة الأب والأم .. كأن كلا منهما تسعى لتأخذ هؤلاء الأولاد من العائلة الأخرى ..

وقد عرف فيما بعد أن العائلتين كانتا تعارضان بعنف زواج أبيه وأمه .. ولكن حبهما قاوم العائلتين حتى انتصر عليهما وتم زواجهما .. كانت أمه تهدد أحيانا بالهروب من العائلة وأحيانا تهدد بالانتحار .. وكان أبوه يتحدى كل عائلته ويردد فى هدوء .. سأتزوج مارى. وتركتهما العائلتان يتزوجان دون أى احتفال بهذا الزواج بل إن العائلتين قاطعتا حضور توقيع العقد الذى تم فى مكاتب الشهر العقارى،ولكن لم تمض سوى ثلاثة أو أربعة شهور حتى بدأت العائلتان تعترفان بهذا الزواج .. خصوصا بعد أن تأكدت كل عائلة من سعادة الابن والابنة وإن كان الاعتراف قد ظل حتى اليوم اعترافا من تحت الضرس وفى حدود الرسميات العائلية ..

ويبتسم برهم بينه وبين نفسه وكأنه يسخر من نفسه .. لقد كان هو أول ما رزقهما الله ولعلهما أسمياه إبراهيم حرصا على أن يرضيا العائلتين .. عائلة أمه وعائلة أبيه .. فاسم إبراهيم يجمع بين المسيحية والإسلام .. فلم يسمياه جرجس مثلا كما لم يسمياه محمدا أو أحمد ..

وقد مرت بإبراهيم مراحل متعددة وهو يقاوم حيرته .. مرت مرحلة قرر فيها أنه مسلم .. ويجب أن يتفرغ بإيمانه وبشخصيته للإسلام وكان يتعمد أن يواظب على الصلاة ويصلى كل جمعة فى المسجد ويفكر فى أداء فريضة الحج .. ولم يكن فى ذلك مجرد مؤمن بالإسلام ولكنه كان كأنه يتعمد أن يفرض شخصية اختارها على كل الناس وعلى أمه وعلى عائلتها،ولكنه بعد فترة بدأ حبه لأمه يشق قلبه كأنه يظلمها ويضطهدها ووجد نفسه وهو حريص على أداء كل شعائر الإسلام يذهب إلى الكنيسة وحده بل إنه صادق القسيس ولكنها صداقة كان لها طابع خاص، فقد كان يناقشه فى الدين لا لحاجته إلى الإيمان به ولكن فقط ليعلم بماذا تؤمن أمه .. وكان يترك القسيس ويذهب ليجلس مع الشيخ مصطفى رجل الأزهر الشريف وصديق والده ويحادثه طويلا وهو يريد أن يعلم ما يؤمن به أبوه .. ولكنه كان دائما أكثر صراحة وجرأة وهو يناقش أباه .. وقد قال له يوما :

— إن الإسلام يهدينا إلى أن الله واحد والمسيحية أيضا تهدى إلى أن الله واحد فلماذا لا أكون مسلما مسيحيا ..

وقال له أبوه فى إشفاق :

— إن شهادة الإسلام لا تقتصر على أن الله واحد ولكنها تنص على أن محمدا هو رسوله.وأشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله .. فإن لم تؤمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو وحده نبيك فأنت لست مسلما.وقال إبراهيم مجادلا وكأنه يجادل نفسه :

— ولكن القرآن الكريم يؤكد أن عيسى هو أيضا رسول الله .. ولو كان الله قد أرسل محمدا قبل موسى لكان الإنجيل قد نص أيضا على أن

محمدا هو رسول الله .. كل من تلقى الوحى وحمل الرسالة ذكرهم القرآن .. وكلهم أنبياء .. فلماذا لا نجتمع كلنا حولهم كلهم ..

وقال الأب وهو يزداد إشفاقا على ابنه :

ـ إن لله حكمة فى التطور بالبشرية وهدايتهم .. وبين المسلمين من كانوا مسيحيين وبين المسيحيين من كانوا يهودا وكانوا يتطورون وفقا لإرادة الله.وكان النبى محمد هو آخر الأنبياء أى آخر مراحل التطور التى أرادها الله هداية للبشر ..

وقال إبراهيم فى جزع :

ـ ولكن أمى لم تتطور إلى الإسلام ..

وقال الأب فى هدوء .

ـ الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. ولم تتسع نفس أمك للتطور وعاشت نفسها هادئة مرتاحة مزدحمة بإيمانها بالمسيحية ولكنها لا ترفض حكمة الله .. فلم ترفض الإسلام كحكمة أرادها الله .. وتزوجت مسلما وأنجبت مسلما .. وقال إبراهيم فى حدة :

ـ هل تزوجتك ماما لأنك مسلم :

وقال الأب فى هدوء :

ـ تزوجتنى لأن الله جمع بيننا لنتزوج ... الله الواحد الأحد ..

وإبراهيم لا يتحرر أبدا من حيرته يسير فى الحياة وكأنه تائه ولا يكف عن مناقشة نفسه فى اختيار الطريق إلى أن انتقل إلى مرحلة أخرى .. مرحلة العلمانية .. إنه ليس فى حاجة إلى دين سواء كان الإسلام أو المسيحية كل ما يحتاج إليه هو العلم .. والحياة كلها علم .. والأديان نفسها ليست سوى قواميس للعلم .. وقد انتهى من

دراسة علم الإسلام وعلم المسيحية .. فلينتقل متفرغا للعلوم الأخرى ويدرس تكنولوجيا الحياة.إنه ليس مسلما ولا مسيحيا . إنه عالم يبحث فى أسرار الدنيا وخيل إليه أنه ارتاح ..

ولكن المعاناة بدأت تعاوده،معاناة الحيرة .. ووجد نفسه يهرب من أمام أبيه وهو يراه يصلى الصباح .. ويهرب من أمام أمه وهو يراها متوجهة إلى الكنيسة يهرب مقاوما ما يعانيه.وكان لا يرتاح إلا عندما يجلس مع مادلين ابنة خاله لبيب .. إنه لا يحس بها كمسيحية ولكنه يحس بها كأنها تكمل وجوده سواء كان مسلما أم مسيحيا .. ويحس بها كأنها أمه.إنه يحبها بكل ما يتسع له الحب.إن الله الواحد الأحد يجمعهما وإذا جمع الله بين فتى وفتاة فهو سبحانه وتعالى يفرض عليهما إعلان الزواج ..

ولم تكن معارضة العائلتين لهذا الزواج عنيفة كما عارضا زواج أمه من أبيه .. خصوصا وأن أباه وأمه رحبا بهما كزوجين.وقال إبراهيم وهو يتنهد ساخرا من تردده ..

ـ يبدو أن بنات عائلة أمى يضعفن أم فتيان الإسلام .. ولعل العائلة كلها أن تعلن إسلامها حتى يستطيع فتياننا أيضا أن يتزوجوا مسلمات ..

ولكن لا .. إن الذى يغير دينه فقط ليصل إلى فتاة يريد أن يتزوجها إنما يخدع وينصب على دينه وعلى الدين الذى انتقل إليه .. يخدع وينصب على الإسلام وعلى المسيحية .. وكثير من المسيحيين أعلنوا إسلامهم فقط ليتزوجوا من مسلمات .. فعاشوا ضائعين لا يستطيعون أن يعيشوا الإسلام ولا يقبل منهم المسيحيون أن يكون استمرار إيمانهم

فى الخفاء كأنهم يخفون عورة .. فعاشوا ولا يعترف لهم أحد بدين .. وتم زواج إبراهيم ومادلين ..

ووجد إبراهيم نفسه فى صبيحة ليلة الزفاف يقوم ويفرش السجادة ويصلى صلاة الصبح .. وقد هدأت حيرته فهو مسلم ويتطلع مبتسما إلى مادلين وهى خارجة إلى الكنيسة .. لقد تحقق له ما حققه أبوه وأمه .. واجتمع الإسلام والمسيحية فى بيت واحد ..

ولا إله إلا الله ..

كانت غشاشة

لقد فوجىء عبد العزيز بأنه عين رقيبا على طلبة الكلية فى امتحان آخر العام ..

إنه لم يتسلم عمله بعد كمدرس معيد فى الكلية .. وكان قد تخرج فى العام الماضى ورغم أنه لم يكن من الأربعة الأوائل فى نتيجة الامتحان الذين يقتصر عليهم توزيع وظيفة المعيد .. إلا أن الكلية عينته معيدا ربما لأنها فى حاجة إلى تكوين جيل جديد من المعيدين والمدرسين والأساتذة .. أو لأن الطلبة الأوائل أصبحوا لا يقبلون على تعيينهم كمعيدين للمرتب الهزيل الذى يتقاضونه .. وأصبح كل منهم يحمل شهادة تقدمه فى الامتحان ويبحث عن وظيفة فى شركة أو فى بنك .. أو يحاول أن يهرب بعلمه إلى الخارج .. خصوصا وأن وظيفة المعيد لم يعد لها الرهبة والوقار والاحترام الذى كان يتباهى به كل من يحصل عليها .. يكفى أن يحصل على وظيفة معيد حتى يعتبر عبقريا تفوق على كل الطلبة حتى اختاروه أستاذا عليهم .. ولكن كان هذا أيام زمان .. أما اليوم فإن من يعين معيدا على طلبة الجامعة يضيع وسط زحام الطلبة حتى يبدو وكأنه واحد منهم .. إنه زحام لم يعد يفسح أى مكان تظهر فيه شخصية الأستاذ أو المعيد .. ولم يعد يتيح للأستاذ أو للمعيد علاقة خاصة بالطلبة توفر له الهيبة والاحترام .. إنه لا يعرف أحدا من الطلبة ولا أحدا من الطلبة يعرفه .. ويقف أمامهم ويلقى محاضراته كأنه تاجر فى سوق الكانتو ينادى على بضائع قديمة ..

ورغم ذلك كان قد فرح بتعيينه معيدا فى الكلية .. إنه لم يكن يتصور أنه يمكن أن يصل إلى أن يكون أقرب إلى أستاذ بالنسبة للطلبة .. فلم يكن متفرغا للدراسة والعلم ولكنه كان دائما طالبا « شاطرا » ذكيا يستطيع أن ينجح فى أى امتحان ويصل إلى درجات متقدمة محترمة جتى كان ترتيبه فى التخرج الحادى عشر بين الطلبة الناجحين .. هو نفسه دهش بهذا الترتيب المتقدم كأنه فوجئ بأن يكون زملاؤه الطلبة من الخيبة والغباء حتى يتقدم عليهم إلى ترتيب الحادى عشر ..

وكان قرار تعيينه قد صدر قرب نهاية العام الدراسى .. ولم يكن قد اجتمع بعميد الكلية وهيئة الأساتذة ليحددوا له اختصاصه وبرنامجه فى جداول التدريس للطلبة .. ولكنه فوجئ بأن وضعوه كمراقب على الطلبة خلال الامتحانات ..

وهو يكره ظهوره بين الطلبة كرقيب عليهم .. والطلبة يعتبرون الرقيب عليهم أثناء الامتحان كأنه رجل بوليس أو من رجال المخابرات .. مهمته أن يضبطهم ويقبض عليهم إذا حاولوا الغش أثناء إجابتهم على الأسئلة .. وهو لا يريد أن يستقبله الطلبة بعد أن أصبح أستاذا عليهم بدرجة معيد بالحذر منه أو بمحاولة خداعه حتى يتمكنوا من الغش أثناء الامتحان .. بل إنه فى الواقع يؤمن بأن الغش هو حق شرعى للطالب .. فإن التعليم لا يقوم على حشو ذاكرة الطالب بالمعلومات التى يحفظها « صم » .. ويسجلها على أوراق الإجابة فى الامتحان ثم ينساها بمجرد أن ينتهى من تسجيلها ويعود أجهل مما كان حتى لو نجح فى الامتحان .. إن هذا هو سر ضعف كل خريجى الجامعة .. كلهم يحملون شهادات وعقولهم فارغة من أى علم .

شهادات كأنها أوراق تسجيل ميلاد دون أن يكون من يحملها مسئولا عن مولده ولا يعرف كيف ولماذا ولد .. ووسائل التعليم الحديثة لم تعد تعتمد على حشو ذاكرة الطالب بمعلومات عن المادة التى يدرسها حتى يحفظها صم ويستطيع أن يرددها كما يردد الببغاء ما يسمعه دون أن يكون له القدرة على فهم ما يردده .. أو يردد نظرية فيثاغورس كما يردد فاتحة القرآن الكريم .. حفظها لأنه كان مفروضا عليه حفظها حتى يدخل الجنة .. إن العلم الحديث أصبح الآن يعتمد على تعليم الطالب القدرة على الوصول إلى المرجع الذى يحتاج إليه الوصول إلى العلم .. فإذا عرض عليه سؤال فليس مفروضا أن يجيب عليه من ذاكرته .. بل يلجأ إلى الكتاب الذى يعلم أنه يعتبر مرجعا للاطلاع عليه حتى يصل إلى الإجابة على هذا السؤال .. ومعظم الجامعات فى أمريكا اليوم تتيح للطالب أثناء الامتحان أن يحمل معه ما يشاء من الكتب والمراجع وتتركه حرا فى تصفحها حتى يصل إلى الإجابة على السؤال المعروض عليه .. ثم ماذا يفعل المحامى الكبير مثلا عندما تعرض عليه قضية .. إنه لا يكتفى أبدا بالمعلومات القانونية التى يختزنها فى ذاكرته بل يبدأ فى مراجعة كتب القانون حتى يستخرج العلم الصحيح الذى يمكن أن يعتمد عليه فى كسب القضية لصالح موكله .. والمهندس .. إنه لا يستطيع أن يبدأ فى تنفيذ مشروع إلا بعد أن يكون قد انتهى من مراجعة كل المراجع التى تدله على كل التفاصيل .. وإلا اعتبر مهندسا فاشلا كسولا لو اعتمد على ذاكرته واكتفى بما حشاها به أيام دراسته الجامعية .. والطبيب .. كيف يجرؤ على فتح بطن مريضه دون أن يكون قد استكمل الاطلاع على كل المراجع التى تكشف له كل

أسرار هذا المرض وإلا كان كأنه يذبح مريضه .. و .. و .. والطالب .. إن كل ما يحتاج إليه أثناء الامتحان هو الاستعانة بالمراجع ليصل إلى الجواب الصحيح .. ولكن هذا ممنوع .. فيضطر إلى تسجيل مراجعه خفية والوصول إليها كأنه لص يسرقها حتى إذا ضبط اتهم بأنه طالب غشاش وقبض عليه وطرد من الامتحان .. إنه هو نفسه كان طالبا غشاشا .. وكان من العبقرية بحيث لم يضبط وهو يغش ولا مرة .. كان دائما أذكى من جميع المراقبين على الامتحانات ..

وابتسم بينه وبين نفسه وهو يتذكر أحداثا وقعت له وهو يغش ..

لقد كان لا يزال فى المدرسة الثانوية .. وكان له زميل وصديق اسمه صلاح يجلس بجانبه فى الفصل الدراسى .. وكان صلاح متفوقا دائما فى الرياضيات .. كالجبر والهندسة .. بينما كان هو متفوقا فى العلوم النظرية .. التاريخ والجغرافيا والمحفوظات .. وفى امتحان نصف السنة اتفق مع صديقه صلاح على أن يتبادلا الغش .. هو يغششه العلوم النظرية وصلاح يغششه الرياضيات .. وجاء امتحان التاريخ فقرب ورقة إجابته من صديقه صلاح حتى مكنه من أن يقرأ وينقل عنه كل ما يكتبه .. ثم جاء امتحان الهندسة فإذا بصديقه يبعد عنه ورقة إجابته ويحيطها بذراعيه وهو يكتب فيها بحيث لا يستطيع أن يصل إليها بعينيه ويقرأ منها حرفا واحدا .. وهمس .. قرب ورقتك يا صلاح .. ارفع ذراعك عن الورقة يا صلاح .. ولكن لا يرد عليه ولا يقرب ورقة إجابته ولا يرفع ذراعه التى يخفيها بها .. وجن من الغيظ .. ولم يتحمل جنونه فقام وسط الامتحان وانهال على صلاح ضربا .. وذهل المدرس

المشرف على مراقبة الطلبة وجاء يسأل ماذا جرى وهو يكتفه كأنه يقبض عليه .. وقال للمدرس المشرف بكل صراحة :

ـ لقد اتفقت معه على أن نتبادل تغشيش بعض .. وقد غش منى امتحان التاريخ كلمة كلمة .. وهو الآن يرفض أن يغششنى الهندسة ..

وضحك المدرس لهذه الصراحة ولكنه صمم على حرمانه من الامتحان .. ولكنه كان امتحان نصف السنة فلم يؤثر حرمانه منه فى نجاحه فى امتحان آخر العام .. ولكنه من يومها تعود إذا احتاج إلى الغش أن يعتمد على نفسه ولا يعتمد على أى زميل له ..

وقد عرف الكثير من وسائل الغش فى الامتحانات ..

إنه يستطيع أن يكتب على ورقة صغيرة وبحروف دقيقة كل ما يحتاج إليه ويطوى الورقة كما تطوى المروحة بحيث يكون على كل طية فيها موضوع من المواضيع التى يحتاج إليها .. قد تشمل هذه الورقة الصغيرة ثمانية أو عشرة موضوعات .. ومن السهل عليه أن يتصفحها دون أن يراها أحد من المراقبين ..

ويستطيع أن يكتب الإجابات الصعبة على كف يده .. وتبقى يده مطوية طول الامتحان ولا يفتحها ليقرأ إلا وهو مطمئن إلى أن أحدا لا يراقبه ..

ثم إنه وجد أقلاما من أقلام الحبر الجافة طويلة ومضلعة بحيث يستطيع أن يكتب على كل ضلع منها موضوعا من الموضوعات التى يعتقد أنه سيحتاج إليها فى الامتحان .. إن إحدى الطالبات كانت تدخل الامتحان ومعها أكثر من خمسة أقلام من هذه الأقلام كأنها سجلت عليها كل المقرر وتغير كل قلم تكتب به مع تغير السؤال الذى تجيب

عليه .. دون أن يثير أى قلم شبهة أحد من المراقبين المشرفين على الامتحان ..

واكتشف أن بعض الطلبة يتفق قبل أن يدخل الامتحان مع حامل زجاجات الكوكاكولا الذى من حق الطالب أن يستدعيه أثناء الامتحان ليقدم له زجاجة يثلج بها صدره ليخفف من نار الأسئلة .. يتفق معه ويعطيه الورقة التى سجل عليها موضوعات الغش .. فإذا احتاج إليها طلب من المشرف على الامتحان أن يطلب له زجاجة كوكاكولا .. ويدخل الرجل ويقدم له الزجاجة ومعها الورقة التى أعدها ليغش منها .. المهم أنه دخل الامتحان وليس معه أى ورقة تعينه على الغش فكسب ثقة المراقبين وتغاضوا عن مراقبته ..

وهناك وسائل أصعب للغش .. كالكتابة على ورقة الكاربون كلمات غير مقروءة ويستطيع أن يضعها على ظهر ورقة الأسئلة فتظهر الحروف وينقلها إلى ورقة الإجابة إذا ساعده الحظ وكان فى حاجة إليها .. بل إن عملية الغش تطورت أخيرا تطورا علميا يعتمد على آخر المخترعات حتى أصبح الغش يمكن أن يتم عن طريق اللاسلكى .. فيدخل الطالب إلى الامتحان وفى جيبه جهاز استقبال صغير .. وأحيانا يكون هذا الجهاز فى حجم حبة صغيرة يضعها فى داخل أذنه .. بينما يقف فى الخارج صديق له يحمل جهاز إرسال .. وتصل ورقة الأسئلة بطريق أو بآخر إلى هذا الصديق ويبدأ فى إرسال الأجوبة التى يتلقاها الطالب بجهاز الاستقبال ويسجلها فى أوراق الإجابة .. إن الطلبة وصلوا إلى آخر مخترعات العلم الحديث ..

ولكن .. رغم كل ما عرفه عن وسائل الغش إلا إنه لم يكن يغش أبدا .. بل إنه لا يعتبر طالبا غشاشا .. كان من الذكاء بحيث يستوعب كل ما يدرس بسهولة .. وكان كل ما هناك أنه يتخوف أحيانا من بعض المواد التى قد تصادفه للامتحان فيصد تخوفه بالاحتفاظ ببعض الأوراق فى جيبه لعله يحتاج إليها .. وهو فخور بأنه كان ينجح دائما غير معتمد على الغش ..

* * *

ووقف عبد العزيز يستقبل الطلبة الداخلين إلى الامتحان بابتسامة واسعة ويصافح من يعرفه منهم ومن كانوا زملاء له فى الدراسة وسبقهم حتى أصبح معيدا عليهم .. وهو يردد لكل منهم :

ـــ ناجح بإذن الله ..

وبعد أن جلسوا وتلقوا أوراق الأسئلة وهو واقف بينهم وابتسامته معلقة بين شفتيه وفى عينيه نظرات مرحة حانية كأنه يقول لهم .. الغش مسموح .. ولم يحاول أن يكون فى صورة الرقيب الجاد المتجهم الذى يبدو أمام الطلبة كأنه يهددهم بأنه سيسحق كل من يحاول منهم الغش .. وقد اطمأن الطلبة فعلا إلى ابتسامته واستراحوا إلى نظرة عينيه وبدأ كل منهم يمنح نفسه حق الغش .. ولكنهم كانوا حريصين أيضا على التستر والهدوء كأنهم يحترمون موقفه منهم ولا يريدون أن يتسببوا فى إحراجه ..

وهو ينقل عينيه بينهم دون أن يشعرهم بأنه يراقبهم .. وقد رأى كل الوسائل التى يلجأ إليها بعضهم للغش .. ليس كلهم ولكن بعضهم .. ولكنه كان لا يحاول التدخل أبدا .. أنهم لا يغشون ولكنهم يستعينون

بمراجع أعدوها .. ولم يتدخل إلا عندما رأى طالبة فى نهاية فترة الامتحان ترفع كتابا كانت تجلس عليه ثم تبدأ فى تصفحه فى جرأة مكشوفة حتى يراها كل من حولها .. واقترب منها وقبل أن يتكلم رفعت رأسها إليه وقالت فى لهجة جادة :

— لقد انتهيت من كل الإجابات .. ولكنى أخرجت هذا الكتاب لأراجع ما كتبته .. أطمئن ..

ومد أصابعه وقلب فى الأوراق التى أمامها ووجدها قد انتهت فعلا من الإجابة على كل الأسئلة قبل أن تفتح هذا الكتاب .. وقال وهو يبتسم لها :

— هذا حقك .. آسف ..

وتركها تراجع ما كتبته فى الإجابة على الأسئلة بالنسبة لما فى الكتاب ..

ولكن لم يكن هذا هو كل ما حدث يومها ..

فقد كانت عفاف بين الطالبات الممتحنات ..

لقد مضى الآن عامان منذ أدمن النظر إلى عفاف .. كان فى عامه الدراسى الثالث عندما التحقت عفاف بالكلية .. ومنذ أن لمحها من بعيد وهو يدمن تتبعها بعينيه من بعيد .. إن كل ما فيها يثير كل شىء فيه .. يثير خياله .. ويثير إحساسه .. ويثير شهوته .. وأحيانا يتصورها كأنه يغنى معها أغنية حب فى حديقة الورد .. وأحيانا يتصور أنه يضربها علقة وتصح أذناه برنين كأنه رنين صرخاتها .. وأحيانا يتصور أنه يركع أمامها ويمسح حذاءها فقط ليتمتع بلمس قدميها .. وليال كثيرة كان يحلم بها وهو نائم كأنها بين أحضانه ويشتد إحساسه حتى تثور لهفته إلى نهايتها

ويمتص خياله قطرات شبابه كأنه يضاجعها فعلا .. وأحيانا يتصور أنه يتزوجها .. لماذا لا يتزوجها فعلا ؟ إنه يستطيع أن ينتظر إلى أن يتخرج ويعين فى وظيفة ويتقدم إليها .. ولكن مستحيل .. إنه لا يمكن أن يتزوجها كما لا يمكن أن يتقدم إليها ليتعرف بها .. احتفاظا باعتزازه بشخصيته .. إنها منطلقة بين طلبة الكلية بجرأة عجيبة حتى أثارت حولها كثيرا من الحكايات .. وأحيانا كان يتصورها فتاة سهلة يستطيع أى فتى أن يمتع نفسه بها .. وأحيانا يتصورها كأنها ولد وليست بنتا فهى لا تبدو أمامه أبدا إلا بين الطلبة بعيدة عن الطالبات .. وهو لا يريد أن يقترب منها ويتعرف بها حتى لا يضع نفسه فى هذا الزحام ويصبح طالبا عاديا ممن يلتفون حولها فى حين أنه حريص على أن يحتفظ لنفسه بشخصية مميزة بين باقى الطلبة .. ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من إدمانه النظر إليها .. من بعيد ..

والآن تجلس أمامه عفاف تمتحن وهو رقيب عليها .. ووقف ينظر إليها من بعيد وهو يبتسم متصورا أن ابتسامته لها لا تختلف عن الابتسامة التى ينثرها على باقى الطلبة الممتحنين ليطمئنهم .. ولكن الواقع أن ابتسامته كانت لا تكاد تصل إليها حتى تزداد لمعانا تبرق حتى يصل بريقها إلى تحسس وجنتيها .. وكانت هى أحيانا ترفع عينيها إليه وتبتسم هى الأخرى ابتسامة مفتعلة ثم تزفر أنفاسها كأنها فى ضيق وتعود تركز عينيها فى أوراقها .. وكان يتعجب من زفراتها.

.. ربما كانت تحاول أن تغش وتضيق بعينيه المسلطتين عليها .. يحب أن يقاوم إدمانه ويبعد عينيه عنها حتى يطلق لها حرية الغش .. وإن كان يتمنى أن يعرف الطريقة التى ستغش بها إذا بدأت الغش ..

وتعمد أن يبتعد من أمامها ويقف في ركن جانبي خلفها .. إنه يستطيع أن يراها من بعيد يشبع إدمانه النظر إليها دون أن تستطيع أن تراه .. وبعد فترة عابرة فوجئ بأنه يراها تقوم بحركات عجيبة .. إنها تميل برأسها كأنها تنظر تحت التختة الصغيرة التي تجلس إليها .. ثم تعود وترفع رأسها وتكتب في أوراق الإجابة .. ماذا تحتفظ به تحت التختة .. وغير موقفه وخطا خطوتين بحيث يستطيع أن يرى ما تحت التختة .. وفوجئ أكثر .. إن ساقها التي تحتفظ بها تحت التختة تكاد تكون عارية .. وكانت ترتدى « جيب » مشقوق من الأمام وتستطيع أن ترفع جانبه لتكشف عن جزء من ساقها ..

إنها تغش ...

وقد كتبت المواد التي تغشها فوق لحم ساقها .. لعلها نقلت الكتاب كله إلى ساقها فما كتبته فوقها يغطى مساحة كبيرة من لحمها .. إنها طريقة لم يسمع بها من طرق الغش .. ولعلها طريقة خاصة بالطالبات لأن الطلبة لا يرتدون فساتين يمكن رفعها عن الساقين .. ولكن ليس هذا هو المهم .. المهم أن لحم ساقها مثير .. إنه لحم أبيض يبدو لامعا أملس رجراجا .. وجحظت عيناه فوق اللحم الأبيض .. وأحس بزوبعة من الاشتهاء تجتاحه .. بل أحس بأصابع يده تنقبض وتنفرج كأنه يعصر بها هذا اللحم .. ولا يدرى لماذا أثارت هذه الساق كل هذه الزوبعة في إحساسه رغم أنه تعود أن يرى سيقان البنات وهن يرتدين المايوه على الشاطئ .. ولكن يبدو أن ساق البنت من تحت الفستان لها مفعول آخر غير الساق التي يكشف عنها المايوه .. وقاوم نفسه برهة ولكنه ما لبث أن بدأ يخطو مقتربا منها .. ورأسها منحن تقرأ من تحت التختة ما كتبته

على ساقها .. وفاجأها بأن انحنى فوقها مستندا بيد على التختة بينما مد يده الأخرى إلى لحم ساقها العارية وضمه بين أصابعه وقال هامسا بصوت خافت وهو يحرك أصابعه فوق اللحم كأنه يتذوقه :

— هل أضبطك وأنت تغشين ؟

وقالت هامسة في صوت مرتعش :

— حرام عليك يا أستاذ ..

وقال هامسا وأصابعه لا تزال تعصر لحمها :

— حتى أقرر مصيرك يجب أن أقرأ ما هو مكتوب على هذه الساق حتى أتأكد من براءتك ..

ونظرت عفاف حولها في ارتعاش وعادت تهمس :

— كيف ؟

وقال في همسة سريعة :

— انتظريني عند منحنى الشارع بعد الامتحان .. وكوني الآن على حريتك .. ولا تنسى أني سأكون الرقيب غدا أيضا .. وهمست وهي تبتسم كأنها عرفت بخبرتها ماذا يريد منها :

— حاضر ..

ورفع أصابعه عن ساقها بعد أن ضغط عليها ضغطة أخيرة وابتعد عنها .. لا يمكن أن يكون باقي الطلبة الممتحنين قد اكتشفوا شيئا مما حدث .. إنها مجرد طالبة تسأل الرقيب سؤالا وهو كان يجيبها عليه كما يحدث كثيرا أثناء فترات الامتحان ..

وانطلقت عفاف حرة مع ساقها تغش من عليها كل ما تحتاج إليه أسئلة الامتحان .. وهو مبتعد عنها بحيث لا تراه بعينيها وإحساسه

بالاشتهاء لا يهدأ .. حتى إنه لا يحس بشىء مما حوله هائما مع خياله يرسم به كل الصور التى يتمناها ..

وانتهى الامتحان .. ونظر إليها وهى خارجة من اللجنة نظرة أقرب إلى التهديد كأنه يذكرها بما اتفق عليه وردت نظرته مع ابتسامة سريعة كأنها تطمئنه .. واستطاع بعد أن جمع أوراق الممتحنين أن يعتذر لرئيس اللجنة عن بقية مهامه .. وانطلق كأنه يجرى ..

ووجدها فى انتظاره على الناصية .. وبسرعة وبدون أن يتبادل معها كلمة استدعى تاكسى ودفعها إلى داخله وهى تقول فى دهشة :

— إلى أين ؟

وقال دون أن ينظر إليها وعيناه معلقتان فى قفا السائق :

— لقد اتفقنا على أن أقرأ المكتوب قبل أن أتخذ قرارا ..

وظلا صامتين وإن كان قد مد يده واحتضن يدها كأنه يخاف أن تهرب منه .. أو لعله لم يكن يريد أن يحرم نفسه من قطعة من اللحم « كأبرتيف » يحتفظ بشهيته مفتوحة ..

ووصل بها إلى بيته ..

وقال لأمه بعد أن فتحت لهما الباب :

— طالبة فى الكلية سأراجع معها الامتحان اتركينا وحدنا يا أمى .

وقالت الأم مرحبة :

— ألا أقدم لكما شيئا إلى أن أعد الغداء ..

وقال عبد العزيز وهو يشد عفاف إلى غرفة الصالون :

— ليس الآن ..

وأغلق الباب وراءه ودفع عفاف لتجلس فوق الأريكة الواسعة وجلس

بجانبها ومد يده يحاول أن يرفع ثوبها عن ساقها .. ولكنها مدت ذراعيها تشد ثوبها حتى لا يرفعه وهى تقول ضاحكة :

— لم يكن يبدو عليك أنك بهذه الجرأة .. لماذا لم نكن أصدقاء طوال هذه الأعوام ..

وقال مقاطعا :

— أرجوكِ .. دعينى أقرأ ..

وقالت وهى تحاول أن تهدئه بابتسامتها :

— سأقول لك ما هو مكتوب قبل أن أمسحه :

وقال وهو لا يزال يشد فى الثوب .

— سأمسحه لك أنا .. سأشربه بشفتى ..

واستطاعت عفاف أن تقفز من جانبه ووقفت أمامه قائلة :

— إنك غريب .. لعلك مبتدىء .. ليست هذه هى الطريقة التى تصل بها إلى قرار .. وقد كنت أنظر إليك من بعيد فى الكلية وكنت أعتبرك لقوة مركزك بين الطلبة أنك مستحيل .. لم يكن يخطر على بالى أبدا أنك سهل كبقية الطلبة والأساتذة ..

ونظر إليها عبد العزيز وهو لا يزال ينهج .. ثم قال وهو يميل بظهره على مسند الأريكة كأنه يستريح مما يعانيه :

— أنا أيضا كنت أنظر إليك من بعيد وكان يعدنى عنك أنى أعتبرك فتاة سهلة .. وكنت أقاومك لأنى لا أريد أن أكون كبقية الطلبة الملتفين حولك .. ولا أدرى لماذا ضعفت اليوم أمامك ..

وقالت عفاف وقد علا صوتها كأنها تدافع عن نفسها :

— أنا حرة ولكنى لست سهلة .. والفتاة السهلة هى التى تستسلم

لإرادة من تقابله .. ولكنى أنا التى أفرض أرادتى على الجميع .. وقد كنت أقبل كل من يتقدم إلى بصداقته من الطلبة لأنى أعتبر نفسى أقوى منهم جميعا .. أنا التى أفرض إرادتى .. وقال كأنه يسخر منها :

— وما هى إرادتك التى ستفرضينها على ..

وقالت مبتسمة وهى تعود وتجلس بجانبه وإن كانت بعيدة عنه :

— أن نبدأ من الأول .. نبدأ من الصفر .. فأنا أريد أن أبدأ معك وأتمنى أن تبدأ معى .. ثم نعيش فى انتظار ما تقودنا إليه البداية .. ويجب أن أتأكد أولا من أنك لم تستغل موقفى كغشاشة لتفرض على إرادتك ..

وقال كأنه هو الآخر يدافع عن نفسه :

— كل الطالبات غشاشات .. بل إنى أعتبر الغش كأنه حق للطالب فى الاستعانة بالمراجع .. ولكنى ربما من طول انتظارى تحججت بالغش لأصل إليك .. أنت بالذات لا أى فتاة تغش ..

وقالت وعيناها تطوفان بكل وجهه كأنها تراه من جديد :

— إنى أحس الآن بإحساس عجيب .. أحس بأنى فى حاجة إليك ..

وقال مبتسما :

— إذا اعترفت بحاجتك إلى فهذا يعطينى حق فرض إرادتى .. وما أفرضه عليك هو ألا تعودى وتكتبى على ساقك .. إن الساق تحت الفستان يجب أن تحتفظ باحترامها وهيبتها إلى أن تجد نفسها فى مايوه .

وقالت فى حيرة مرحة :

— ولكنى فى حاجة إلى تسجيل مراجع ألجأ إليها فى الامتحان .. والساق أسهل ما تسجل عليها المراجع كما أنها لا تثير الشبهات فلا أحد يخطر على باله أنى أغش من ساقى ..

وقاطعها ضاحكا :

— لقد أثارنى كلى .. ولا تخافى الامتحان .. سأكون بجانبك واعتمدى على .. ونبدأ من الآن ونراجع معا مادة امتحان الغد ..

واعتبر نفسه أستاذا لها وأخذ يذاكر لها مواد الامتحان .. وتركته بعد أن أقنعته بألا يقوم بتوصيلها حتى لا يبدأ بإثارة الشبهات وكلام الناس حولهما .. وتركته بعد أن احتضنته كله بعينين هائمتين كأنهما تطيران به فى سماء الحب ..

وهو سعيد بها وبنفسه .. إنها ليست كما كان يتصورها فتاة سهلة منرطة فى جرأتها بين الشبان ..

إنها فتاة جادة عاقلة تستطيع إن تفرض إرادتها .. وقد فرضت عليه أن يكونا فى البداية .. بداية الحب .. والبداية لا تسمح ولو بتبادل قبلة .. يكفيهما أن يبدآ بالصداقة وتبادل النظرات .. وهو يلوم نفسه .. لقد أخطأ فعلا عندما قرر أن ينفرد بها ليلتهم ساقها .. كان مجنونا وهو يحاول هذه المحاولة ..

وفى اليوم التالى ذهب إلى لجنة الامتحان مبكرا واستطاع أن يحصل على ورقة الأسئلة ثم انزوى يكتب عليها إجابات مختصرة تكفى لتكون مرجعا لعفاف حتى تكتب فى الامتحان إجابات صحيحة .. ثم قام يطوف بين الطلبة والطالبات الممتحنين ويتعمد أن يقف بجانب كل

لإرادة من تقابله .. ولكنى أنا التى أفرض أرادتى على الجميع .. وقد كنت أقبل كل من يتقدم إلى بصداقته من الطلبة لأنى أعتبر نفسى أقوى منهم جميعا .. أنا التى أفرض إرادتى .. وقال كأنه يسخر منها :

— وما هى إرادتك التى ستفرضينها على ..

وقالت مبتسمة وهى تعود وتجلس بجانبه وإن كانت بعيدة عنه :

— أن نبدأ من الأول .. نبدأ من الصفر .. فأنا أريد أن أبدأ معك وأتمنى أن تبدأ معى .. ثم نعيش فى انتظار ما تقودنا إليه البداية .. ويجب أن أتأكد أولا من أنك لم تستغل موقفى كغشاشة لتفرض على إرادتك ..

وقال كأنه هو الآخر يدافع عن نفسه :

— كل الطالبات غشاشات .. بل إنى أعتبر الغش كأنه حق للطالب فى الاستعانة بالمراجع .. ولكنى ربما من طول انتظارى تحججت بالغش لأصل إليك .. أنت بالذات لا أى فتاة تغش ..

وقالت وعيناها تطوفان بكل وجهه كأنها تراه من جديد :

— إنى أحس الآن بإحساس عجيب .. أحس بأنى فى حاجة إليك ..

وقال مبتسما :

— إذا اعترفت بحاجتك إلى فهذا يعطينى حق فرض إرادتى .. وما أفرضه عليك هو ألا تعودى وتكتبى على ساقك .. إن الساق تحت الفستان يجب أن تحتفظ باحترامها وهيبتها إلى أن تجد نفسها فى مايوه

وقالت فى حيرة مرحة :

— ولكنى فى حاجة إلى تسجيل مراجع ألجأ إليها فى الامتحان .. والساق أسهل ما تسجل عليها المراجع كما أنها لا تثير الشبهات فلا أحد يخطر على باله أنى أغش من ساقى ..

وقاطعها ضاحكا :

— لقد أثارنى كلى .. ولا تخافى الامتحان .. سأكون بجانبك واعتمدى على .. ولنبدأ من الآن ونراجع معا مادة امتحان الغد ..

واعتبر نفسه أستاذا لها وأخذ يذاكر لها مواد الامتحان .. وتركته بعد أن أقنعته بألا يقوم بتوصيلها حتى لا يبدأ بإثارة الشبهات وكلام الناس حولهما .. وتركته بعد أن احتضنته كله بعينين هائمتين كأنهما تطيران فى سماء الحب ..

وهو سعيد بها وبنفسه .. إنها ليست كما كان يتصورها فتاة سهلة متعرضة فى جرأتها بين الشبان ..

إنها فتاة جادة عاقلة تستطيع إن تفرض إرادتها .. وقد فرضت عليه أن يكونا فى البداية .. بداية الحب .. والبداية لا تسمح ولو بتبادل قبلة .. يكفيهما أن يبدآ بالصداقة وتبادل النظرات .. وهو يلوم نفسه .. لقد أخطأ فعلا عندما قرر أن ينفرد بها ليلتهم ساقها .. كان مجنونا وهو يحاول هذه المحاولة ..

وفى اليوم التالى ذهب إلى لجنة الامتحان مبكرا واستطاع أن يحصل على ورقة الأسئلة ثم انزوى يكتب عليها إجابات مختصرة تكفى لتكون مرجعا لعفاف حتى تكتب فى الامتحان إجابات صحيحة .. ثم قام يطوف بين الطلبة والطالبات الممتحنين ويتعمد أن يقف بجانب كل

منهم ويتبادل كلماتٍ .. إلى أن وصل إلى عفاف وألقى أمامها بالورقة التى سجل عليها الإجابات .. وقالت له هامسة :

ـــ سأكون عندك فى البيت بعد الامتحان ..

وهكذا مضت كل أيام الامتحان .. يلتقى بها فى بيته ويراجع معها مواد امتحان اليوم التالى .. ويزودها خلال الامتحان بكل ما تحتاج إليه لتنجح .. وبينهما كلام حلو لا ينتهى ونظرات هائمة تطير بهما .. ولكنها لا تزال مصرة على أنهما فى البداية ولم يصلا بعد إلى أكثر من أن يحتضن يدها بيده ..

إلى أن كان آخر يوم فى الامتحان .. وعاد إلى بيته وجلس فى انتظارها كما عودته .. ولكنها لم تأت إليه .. وبدأت الوساوس تهرى عقله وتحرق فى أحاسيسه .. هل تتخلى عنه بمجرد أن ينتهى الامتحان .. هل تقذفه من نافذة حياتها لمجرد أنها لم تعد فى حاجة إليه ..

وانتظرها فى اليوم التالى أيضا .. لعلها لم تأت أمس لأنها كانت فى حاجة لتستريح من دوشة الامتحان ..

ولكنها لم تأت هذا اليوم أيضا .. أين نظراتها الهائمة .. وأين يدها التى كانت ترقد فى يده ليحتضنها .. وانطلقت زوبعة تعصف بأحاسيسه .. لقد كانت تقول له إنها قادرة دائما على أن تفرض إرادتها ولكنه لن يتركها تفرض إرادتها عليه .. إن إرادتها أصبحت مرتبطة بوعود بينها وبينه .. وعود بأن يعتبرا نفسيهما فى البداية .. وليس من حقها أن تكون حرة فى التخلى عن هذه الوعود ..

وخرج يجرى كالمجنون يبحث عنها .. إنه يعرف عنوان بيتها ..

ووقف أمام بابها ساعات طويلة فى انتظار أن يراها ويستولى عليها .. ولم يجدها ولكنه أحس بأصابع رقيقة تنقر علىَ ظهره .. كأنها تستأذنه فى أن يفتح بابه .. واستدار فى عصبية صدمة المفاجأة .. إنها هى .. وقد رأته قبل أن يراها وجاءت إليه وعلىَ شفتيها نفس الابتسامة وفى عينيها نفس النظرة .. وأحس بنفسه وهو يحتضن وجهها بعينيه يتنهد مستريحا كأنه أخيرا وصل .. أخيرا وصل إليها .. وقال وكلماته ترتعش بين شفتيه :

ـــ لم تأتى اليوم ولا أمس ..

وقالت وهى تبتسم ابتسامة واسعة :

ـــ لقد انتهى الامتحان ولم أجد حجة أخرى أقنع بها نفسى لأذهب إليك ..

وقال وهو يمد يده يحاول أن يحتضن يدها :

ـــ هناك حجة أكبر تدفعك إلى .. امتحان أكبر لك ولى ..

وقالت فى دهشة وهى تبعد يدها عن يده :

ـــ أى امتحان ؟!

وقال فورا وبحماس :

ـــ سنتزوج .. وسأطلبك الآن من أهلك ..

وسكتت برهة وابتسامتها تضيق بين شفتيها ثم قالت كأنها تحادث نفسها :

ـــ إن كل ما كان بينى وبينك حتى اليوم هو الغش فى الامتحانات .. ولا أعتقد أن الزواج يمكن أن يقوم على الغش أو فى حاجة إلى الغش .. لا أتصور نفسى زوجة غشاشة وأنت مستسلم لى

كغشاشة .. إن امتحان الزواج يختلف عن امتحانات الجامعة ..

وصاح فى حدة :

— إنى كما قلت لك لا أعترف بالغش .. ولم أعتبرك غشاشة ولكنك كنت فى حاجة أثناء الامتحان إلى مراجع قدمتها لك ..

وقالت وقد عادت ابتسامتها تتسع :

— لقد قدمت لى مراجع لامتحانات الجامعة وليست مراجع أعتمد عليها فى دراسة الزواج .. وقد قلت لك إننا يجب أن نعتبر نفسينا فى البداية .. وللأسف فإن هذه البداية لم تتطور بى إلى أكثر من حاجتى إلى الغش ..

وقال فى دهشة غاضبة :

— ماذا تقصدين ؟

قالت وابتسامتها تتسع أكثر :

— أقصد أن نبقى كما نحن .. فى البداية .. وقد نتطور إلى أبعد من اقتناعنا بحقنا فى الغش .. ونصل إلى الاقتناع بالصدق .. صدق واقعى وصدق واقعك فنتزوج .. أو نبقى كما نحن نعيش بداية ليست فى حاجة إلى أكثر من الغش .. وعن إذنك ..

وتركته واختفت داخل العمارة .. وهو مذهول .. والزوبعة تهم أن تعصف بأحاسيسه .. ولكن على العكس إنه يحس بأنه بدأ يهدأ وكأنه يقترب من شاطئ الأمان بعيدا عن هذه الزوبعة .. حتى لو كانت عفاف قد خدعته واستغفلته حتى يوفر لها الغش فى الامتحان وتنجح بتفوق فالحمد لله الذى أنقذه من التفكير فى أن يتزوج غشاشة ..

من أطلق هذه الرصاصة؟

كان يومها فى منتهى التعب والإرهاق .. كان قد ذهب إلى المطار فى منتصف الليل ليعود بزوجته التى تعمل مضيفة طائرات .. وهو يعلم أن الطائرة تتأخر دائما عن موعد وصولها وخصوصا فى هذا الخط الذى يمتد من طوكيو عاصمة اليابان إلى القاهرة .. وهو يعلم منذ أن أصبح كأنه أحد أفراد طاقم أى طائرة تكون من بينه زوجته هناء .. يعلم أنه تأخير متعمد فى موعد الوصول .. لا نتيجة حادث أو ارتباك فى الطائرة ولكنه نتيجة تصرفات أفراد طاقم الطائرة التى أصبحت كأنها تقاليد متفق عليها ومحترمة .. فإذا هبطت الطائرة فى مطار هونج كونج مثلا منح أفراد الطاقم أنفسهم إجازة تستمر ساعات وتركوا الطائرة وخرجوا إلى السوق .. إن سوق هونج كونج تعتبر أرخص وأعجب سوق فى العالم . وكل منهم فى حاجة لبشترى منها .. سواء ليهدى ما يشتريه أو يستعمله شخصيا أو ليبيعه فى السوق السوداء فى القاهرة .. ثم تهبط الطائرة فى مطار مانيلا عاصمة الفلبين .. ويترك أفراد الطاقم الطائرة ويذهبون إلى العاصمة فإن أخت واحد منهم متزوجة فى مانيلا وتصر أن تقيم لهم دعوة فخمة كلما وصلت الطائرة إليها وتقدم لهم فيها أعاجيب الأطعمة الفلبينية .. وبعد ساعات تقلع الطائرة إلى مطار جدة .. وواحد منهم يريد أن يؤدى العمرة ويطوف حول الكعبة الشريفة ليدعو لأمه بالشفاء .. ومن الظلم أن يحرم واحد منهم من الدعوة لأمه .. ثم إن فى

جدة كثيرا من الأصدقاء وتجد فى سوقها كل ما تحتاجه مصر .. و .. و .. وهكذا تتأخر الطائرة عن موعد وصولها ..

ورغم ذلك فقد تعود مصطفى أن يذهب إلى المطار ليعود بزوجته فى الموعد المحدد رسميا .. فإن موعد التأخير ليس محددا .. قد يتأخر موعد وصول الطائرة ساعتين أو ثلاثا أو أربعا .. ولكن الطائرة فى هذا اليوم تأخر وصولها أكثر من عشر ساعات .. قضاها متنقلا بين مكاتب من يعرفهم من موظفى المطار .. أو راقدا على أحد المقاعد الخشبية فى صالة الاستقبال دون أن يستطيع أن ينام أو أن يصحو ..

إلى أن وجد نفسه فى اليوم التالى وهو يقود سيارته عائدا بزوجته هناء .. وهى نائمة على المقعد بجانبه .. فمن السهل عليها أن تنام على مقعد السيارة بعد أن تعودت أن تنام على مقعد الطائرة .. وهو يضغط بكل أعصابه على عجلة القيادة التى يمسك بها حتى يظل واعيا يقاوم التعب والإنهاك .. ولا يستطيع أن ينام ولا أن يصحو ..

وقد قطع الشارع الطويل حتى أصبح على حافة القاهرة فاستدار إلى شارع يؤدى إلى حى الأزهر .. وهو الشارع الذى يختاره دائما ليصل إلى بيته .. شارع مزدحم بالناس وبالسيارات وبالعربات الكارو .. وفوجئ بتريسيكل أى بموتوسيكل له ثلاث عجلات ينحنى إلى اليمين فى مواجهة سيارته .. وقائده وهو رجل عجوز يسقط أمامه على الأرض .. وقد كان واعيا فى هذه اللحظة .. واستطاع أن يوقف سيارته قبل أن تمس هذا التريسيكل أو سائقه .. إنه متأكد أنه لم يمسه .. ولم يكن له ذنب فى كل ما حدث .. إنه يسير فى خط مستقيم لم يحد عنه .. سائق التريسيكل هو الذى حاد عن طريقه وسقط أمامه .. ولكن

الجماهير تجمعت حوله تسبه وتلعنه وتتهمه بالقتل .. لقد قتل الرجل العجوز .. الجثة ملقاة أمام عجلات سيارته .. وحاول أن يدافع عن نفسه .. ونزل من سيارته ليشير إلى مسافة السنتيمترات تفصل بين سيارته والتريسيكل مما يثبت أنه لم يمسه .. ولكن كل أفراد الزحام مصممون على أنه القاتل .. واضطر أن يدخل سيارته ويقفل الباب ويرفع الزجاج حتى لا يعتدى عليه الناس وقد يقتلونه انتقاما للقتيل .. وكان المرور كله قد تعطل ووقف خلفه وبجانبه كل السيارات .. وقد حاول بعض قادتها أن يقنعوا الناس بأن مصطفى مظلوم وأنه لم يمس التريسيكل بسيارته ولكن لا أحد يريد أن يقتنع ويهدأ .. والثورة تشتد حتى بدأ فريق من الأطفال يجمعون الحجارة يلقون بها على سيارته ويحاولون تحطيم زجاجها .. بينما هناء زوجته جالسة تصرخ وتقول كلاما كثيرا لا يسمعه أحد ..

إلى أن جاءت عربة الإسعاف وحملت جثة الرجل العجوز .. وجاء البوليس وقبض على مصطفى وجره للتحقيق معه بينما تبعه عشرات من أفراد الجمهور وكل منهم متطوع للشهادة على أن هذا الرجل هو القاتل .. وللأسف لم يتبعه أحد من قادة السيارات الأخرى الذين كانوا مقتنعين ببراءته .. بينما زوجته تتبعه من بعيد وهى تبكى ..

واستمر التحقيق طويلا .. ثلاث ساعات .. أربعا .. وقال ضابط البوليس وهو ينظر إلى مصطفى فى إشفاق :

ـــ إنى أرجح براءتك خصوصا بعد أن عاينت مكان الحادث ورسمت خطوطا على الأرض تؤكد أن سيارتك لم تصطدم بتريسيكل

المصاب .. ولكن هناك إجماعا كاملا على إثبات التهمة عليك لا أستطيع أن أتجاهله وأتحداه ..

وفجأة دخلت سيدة كانت مصرة على لقاء ضابط البوليس لتدلى بشهادة فى الحادث .. وقالت فورا دون أن تنظر إلى المتهم مصطفى :

— إن الحادث وقع أمام العمارة التى أقيم فيها وقد كنت واقفة فى الشرفة ورأيت كل شىء .. إن السيارة لم تصدم الترسيكل .. إنى متأكدة .. رأيت كل شىء بعينى ..

وأحس مصطفى كأنه يهم بأن يلقى بنفسه تحت أقدام هذه السيدة ويقبل حذاءها.إنها السيدة الوحيدة التى تشهد ببراءته .. وتكلف نفسها أن تأتى إلى قسم البوليس لتنقذه ..

وقال ضابط البوليس بلا مبالاة :

— إذن كيف سقط السائق على الأرض ..

وترددت السيدة برهة ثم صاحت كأنها تتحدى البوليس :

— من أين أدرى كيف سقط .. كل ما رأيته هو أنه سقط على الأرض دون أن تمسه هذه السيارة ..

وسجل ضابط البوليس شهادة السيدة بعناية كبيرة .. وقام مصطفى يشكرها فى كلمات حارة وصادقة قبل أن تنصرف .. وقد تقبلت شكره صامتة دون أن تنظر فى وجهه ..

وقال مصطفى لضابط البوليس الذى تركه جالسا بجانبه ولم يرسله إلى التخشيبة رحمة به :

— هذه شهادة براءتى .. ألا تستطيع أن تتركنى الآن أعود إلى بيتى وأكون تحت أمر التحقيق وتحت أمرك ..

وقال ضابط البوليس فى إشفاق :

— هذه شهادة واحدة بين عشرات الشهادات التى تدينك .. لا أستطيع أن أكتفى بها للإفراج عنك .. وأنا فى انتظار نتيجة الكشف الطبى على المصاب .. حتى أستطيع أن أتخذ قرارا بالنسبة لك .. وقد أرسلت الباشجاويش خصيصا ليتعجل الكشف ..

وقال مصطفى فى توسل :

— هل تستطيع زوجتى أن تعود بالسيارة إلى البيت .. إنها منهكة بعد أن طارت ساعات طويلة من طوكيو إلى القاهرة .. وهى لا تريد أن تتركنى وتعود إلى البيت إلا إذا كانت السيارة معها فهى محملة بكل ما اشترته خلال رحلتها .. وتخاف أن تترك السيارة ربما أكثر مما تخاف أن تتركنى ..

وضحك ضابط البوليس ضحكة إشفاق وقال :

— لا مانع أن تأخذ زوجتك السيارة وتعود بها إلى البيت فقد رسمت موقع الحادث .. وهذا يكفى ..

وتركته زوجته هناء وحيدا مع ضابط البوليس ..

وهو مرتخ على المقعد الذى يجلس عليه يهده التعب والإرهاق وأعصابه كلها تكاد تكون ملتهبة .. ويرتخى جفناه فوق عينيه كأنه نام .. لقد مضى عليه الآن أكثر من عشرين ساعة دون أن ينام .. ولكنه لا يلبث أن يرفع جفنه عن عينيه كأنما أقلقه دخول قضية جديدة على حضرة الضابط أو شخص آخر مقبوض عليه ..

وفتح عينيه أخيرا على صوت جرس تليفون الضابط .. ورآه يستمع وحاجباه يرتفعان فى دهشة .. ويردد .. غريبة .. غريبة ..

وألقى الضابط بسماعة التليفون ثم قال كأنه يحادث نفسه :

— انتهى الكشف الطبى .. وقد مات الرجل .. مات مقتولا ..

وقبل أن يصرخ مصطفى دفاعا عن نفسه .. استطرد ضابط البوليس قائلا كأنه يحادث نفسه :

— هل تدرى كيف قتل .. لقد أصابته رصاصة فى منتصف قمة رأسه فقتلته .. وسقط من فوق التريسيكل مقتولا ..

وقال مصطفى فى ذهول :

— كيف حدث هذا .. كيف يقتل فى منتصف الشارع وأمام الناس .. ودون أن يدرى أحد ..

وقال ضابط البوليس مبتسما من خلال خطوط بدأت تتجمع على جبينه كأنه يعانى من التفكير فى موضوع صعب :

— طبعا لست أنت الذى قتلته .. فليس معك ولا فى سيارتك مسدس .. ثم إن وضع الرصاصة التى وجدت فى رأس القتيل لا يمكن أن تصل إليه من اتجاه جلستك داخل السيارة .. أنت برىء .. مفرج عنك .. تستطيع الآن أن تنصرف .. وأقدم لك أسفى واعتذارى مما حملته لك .

ولكن مصطفى لم ينصرف .. لقد دب فى أعصابه نشاط أنساه تعبه وإرهاقه .. يريد أن يعرف كيف قتل هذا الرجل الذى اتهم هو بقتله ..

وقال ضابط البوليس وهو لا يزال كأنه يحادث نفسه :

— إذا كانت الرصاصة قد أصابت منتصف قمة الرأس فلا شك أنها أطلقت من أعلى .. أى من فوق موقع القتيل .. والاحتمال الوحيد فى

هذه الحالة أن تكون الرصاصة قد أطلقت من نافذة أو شرفة إحدى العمارات التى تحيط بموقع الجريمة ..

وفجأة قفز ضابط البوليس من وراء مكتبه ثم خرج وجمع عددا من رجال البوليس حوله واستدعى سيارتين ركب فى إحداهما وسمح لمصطفى أن يركب بجانبه فقد كان ملهوفا على أن يعرف كل شىء .. وكأن الضابط كان يبالغ فى الاعتذار لمصطفى بالاستجابة إلى لهفته .. والسيارة الثانية تتبعها محملة بأفراد قوة مركز البوليس ..

ووصلوا إلى موقع الحادث .. ووقف الضابط يدير عينيه بين العمارات كأنه يقيس موقع كل منها .. ثم جمع القوة ودخل بها إحدى هذه العمارات .. ولم يتوقف عند الدور الأول من العمارة فاتجاه الرصاصة لا يمكن أن يبدأ من عند مستوى الدور الأول .. كان يبدأ من الدور الثانى ويدخل كل شقة ويسأل ويفتش .. كان يبحث عن أى شخص على معرفة بالقتيل .. كما كان يفتش لعله يجد مسدسا أو بندقية يمكن أن تكون قد أطلقت منها الرصاصة .. ولكنه لم يجد شيئا مما يبحث عنه فى العمارة الأولى .. وكان يترك كل شقة معتذرا لسكانها وإن كان قد أمر بالقبض على اثنين لأنه وجد فى أدراج كل منهما قطعة من الحشيش ..

وقد قال مصطفى لضابط البوليس عندما بدأ فى هذا التفتيش :

— ألم يكن من الواجب الحصول على إذن من النيابة أولا ؟

وقال الضابط ساخرا :

— إذن النيابة موجود دائما .. وليس من الصالح أن ننتظر حتى يستطيع المجرم أن يخفى ما نبحث عنه ..

وبعد أن انتهى البوليس من تفتيش العمارة الأولى انتقل إلى العمارة الثانية التى تحيط بالموقع .. ووجد مصطفى نفسه يدخل مع البوليس شقة فى الدور الثالث هى شقة السيدة التى تطوعت لإنقاذه بالإدلاء بشهادتها .. وعرف أن اسمها فردوس .. وقد استقبلت البوليس فى بساطة .. وكانت تمسك فى يدها بيد ابن فى الثامنة من عمره .. وتلتصق بها ابنة لعلها فى العاشرة .. وعندما سألها البوليس عن رجل البيت أجابت وهى تتنهد فى أسى .. الله يرحمه .. وعندما سألوها هل تعرف القتيل .. أجابت أنها لا تعرف حتى شكله .. فهى لم تره إلا من شرفتها بعد أن سقط على الأرض .. وتم تفتيش الشقة وتم فى بساطة وبمجرد إلقاء نظرات .. فلا يمكن أن يكون لدى هذه الأرملة الوحيدة أى سلاح ..

وكان مصطفى طوال فترة تفتيش شقة فردوس يكرر لها شكره على تكليف نفسها مشقة الذهاب إلى مركز البوليس للشهادة ببراءته .. وقال لها :

ــ ولو كنت أعلم أن هذه الشقة هى بيتك لمنعت البوليس من الدخول عليك وإزعاجك ..

وقالت مبتسمة ابتسامة تغلب عليها المرارة :

ــ إن البوليس منذ بدأ تفتيش العمارة المجاورة وكل الشقق والبيوت فى انتظار التفتيش .. فلم أفاجأ بتشريفكم وإن كنت لا أدرى سبب هذا التشريف .

وعاد مصطفى يعتذر لها ويكرر شكره ..

لم يعد يحتمل التعب والإنهاك بعد تفتيش شقة فردوس .. فاعتذر

لصديقه ضابط البوليس وعاد إلى بيته وألقى بنفسه نائما .. وكأنه لن يصحو أبدا ..

* * *

ومضت ثلاثة أسابيع على الحادث دون أن يصل البوليس إلى شىء .. ولا يزال سر إطلاق الرصاصة على رأس العجوز قائد التريسيكل مجهولا .. والقضية كلها أصبحت قضية ضد مجهول .. ومصطفى لا يكف عن رواية الحادث كلما سنحت له فرصة الكلام .. سواء تكلم لأحد أو تكلم مع نفسه .. ولا يستطيع أن ينسى أبدا فردوس .. السيدة المحترمة التى تطوعت وتحملت المتاعب لتشهد أمام البوليس لصالحه .. إن الدنيا لا تزال تضم ملائكة وسط زحامها بالشياطين .. كأنهم يهبطون من السماء لإنقاذ البشر .. ماذا كان يدفع فردوس إلى التطوع لإنقاذه لولا أنها ملاك وهب نفسه لفعل الخير وإنقاذ المظلوم ..

وأخذ يلح على زوجته هناء بأن تصحبه لزيارة فردوس وتقديم هدية لها اعترافا بجميلها وشكرا على تطوعها لإنقاذه .. صحيح أنها لم تكن السبب المباشر لإنقاذه .. فقد كانت الرصاصة التى وجدت فى رأس العجوز القتيل هى التى أنقذته .. ولكن يكفى أن فردوس تطوعت لمحاولة إنقاذه بعد أن تخلى عنه كل الناس وهرب سائقو السيارات الذين حضروا الحادث وكانوا يستطيعون المساهمة فى إنقاذه .. ولم تكن هناء مقتنعة بأن تصل إلى حد زيارة فردوس فى بيتها .. إنها تفضل أن تنسى الحادث كله بما فيه فردوس .. ولكن مصطفى مستمر فى الإلحاح عليها .. وهو لا يستطيع أن يذهب لزيارة فردوس وحده .. هذا ليس لائقا .. وقد تثير زيارته شكوكها .. بل قد تثير كلام الناس ..

ففردوس لا تزال امرأة ناضجة لم تصل بعد إلى سن اليأس من أنوثتها .. وهو لا يستطيع أن يزورها إلا ومعه زوجته .. زيارة عائلية ..

واضطرت هناء أن تستسلم لإلحاح زوجها وهى تزفر أنفاس الضيق .. ماذا يدفعه إلى هذا التصميم على زيارة فردوس .. إنه مجنون .. والواقع أنه لم يكن هناك ما يلح على مصطفى لزيارة فردوس إلا عرفانه بجميلها الذى أسبغته عليه ولم يكن ينتظره من أحد ..

وذهبا إلى فردوس فى يوم إجازة لهناء من عملها كمضيفة ولا تسافر فيه على إحدى الطائرات .. وقد حملا لها « تورته » فى حجم الفطيرة الكبيرة الزاهية بالألوان ومعها هدية أخرى عبارة عن بنطلون وقميص لصبى صغير كانت هناء قد اشترتها من لندن لابن أختها ولكنهما لم يتسعا لحجمه ..

واستقبلتهما فردوس بترحاب مهذب وكلماتها ترن بلهجتها البلدية .. إنها رغم مستواها المحترم فهى بنت بلد .. واستلمت الهدايا شاكرة وهى تردد من خلال فرحتها الهادئة :

— لماذا يا ست هانم .. لماذا كل هذا يا سعادة البيه .. ماذا فعلت أكثر من أن قلت ما رأيته ..

فأخذ مصطفى كعادته يعيد رواية الحادث كله ويكرر شكره لفردوس .. بينما زوجته جالسة صامتة تضج من الزهق .. وفجأة دخل عليهم الصبى الصغير ابن فردوس الذى كان مصطفى قد لمحه واقفا فى البلكونة وقال لأمه دون أن يقترب من أحد من الضيوف :

— أين مسدس بابا يا ماما .. أريد أن ألعب به ..

وارتعشت فردوس وصرخت فى وجه ابنها صرخة مفاجئة :

— امش من هنا ياولد ..

ثم عادت تصرخ وتنادى ابنتها الكبرى وقالت لها :

— خذى أخاك وابقى معه فى الحجرة الأخرى حتى لا يزعج الضيوف ..

ومصطفى أحس بأنه فوجئ بشىء جديد .. وجحظت عيناه وهو ينظر إلى فردوس كأنه يسألها .. ما هى حكاية هذا المسدس الذى كان يملكه أب الصبى ..

وهدأت فردوس قليلا بعد أن مرت بها برهة تهدجت فيها أنفاسها وقالت وهى تبذل مجهودا لتضع على شفتيها ابتسامة تبدو مفتعلة :

— إنه ولد متعب .. كان المرحوم والده قد اشترى له مسدسا صغيرا كلعبة يلعب بها .. وقد أضاعه .. ومن يومها وهو يسأل عن هذا المسدس .. ولا أشترى له غيره فإننى لا أحب أن يلعب الأولاد بالمسدسات ..

وخيال مصطفى يأخذه بعيدا ويحس كأنه يرى عالما آخر أو كأنه يبدأ فى رواية قصة جديدة عن كل ما حدث .. وتعمد كأنه مستمر فى تبادل الحديث العائلى مع فردوس وسألها :

— متى توفى المرحوم ..

وقالت فردوس وهى تتنهد فى حزن تكاد تهم بالبكاء .

— منذ سبعة أشهر واثنى عشر يوما ..

ثم نظرت إلى الساعة المعلقة فى الجدار واستطردت :

— وخمس ساعات ..

واشترك مصطفى وزوجته هناء فى عزاء فردوس والتخفيف من

حزنها على ذكرى المرحوم .. ولكن مصطفى انتهز سياق الحديث عن المرحوم وعاد يسأل :

— وماذا كان يعمل ..

وأجابت فردوس كأنها تتباهى بزوجها المرحوم :

— كان محصلا يجمع كل مستحقات الشركة .. وكان معروفا ومشهورا بأنه فى قمة الأمانة .. لقد كان يعود إلى البيت أحيانا وهو يحمل حقيبة وهى مكدسة بآلاف الجنيهات .. عشرات الآلاف .. وكان يرفض أن يفتحها أمامى لمجرد الفرجة .. كنت أتحايل عليه ليرينى شكل النقود عندما تتكدس فوق بعضها وتصبح ألوفا .. ولكنه كان أمينا إلى حد ألا يسمح لأحد حتى لزوجته أن ترى أموال الشركة ولو لمجرد نظرة ..

واستمع مصطفى وخياله يأخذه إلى أبعد ..

وانتهت زيارة فردوس وأخذ يقود سيارته وزوجته بجانبه دون أن ينطق بحرف واحد على غير عادته وما هو معروف عنه من أنه لا يكف عن الكلام ..

إنه مأخوذ بخياله ..

إنه يعرف الآن من أين انطلقت الرصاصة التى أصابت العجوز الذى كان يقود التريسيكل وقتلته ..

إن زوج فردوس كان محصلا .. والمحصلون خصوصا الذين عليهم تحصيل مبالغ كبيرة يحملون دائما سلاحا مرخصا يدافع به عن نفسه وعما يحمله من أموال إذا طمع أحد فى سرقته .. وقد مات زوج

فردوس وترك وراءه سلاحه .. المسدس .. ولعل الشركة التى كان يعمل فيها لم تطالب باسترداد هذا المسدس بعد موت الفقيد .. أو لعله كان ملكا خاصا له .. وأهملت فردوس هذا المسدس وتركته بين مخلفات زوجها ملقى فى الدولاب أو أدراج البيت .. والتقطه ابنها الصغير الذى لم يتجاوز الثامنة من عمره وأخذ يلعب به دون أن تهتم أمه ودون أن تكشف عن داخل هذا المسدس لتتأكد من خلوه من الرصاص القاتل.. أو لعلها كشفت عنه ولم تتنبه أنه لا تزال فيه رصاصة .. وابنها يلعب بالمسدس وهو واقف فى الشرفة مقلدا الأفلام التى يراها فى التليفزيون .. مقلدا دور بطل .. وضغط على الزناد .. وانطلقت الرصاصة .. وقتل الرجل العجوز ..

ولا شك أن أمه كانت واقفة بجانب ابنها فى الشرفة .. ورأت القتيل يسقط .. ثم رأت الناس تهجم على مصطفى وتتهمه بأنه صدم العجوز بسيارته وقتله .. وتحرك قلبها الطيب وإيمانها بالله .. إن ابنها قتل الرجل العجوز .. ولكنه الآن سيكون سببا فى قتل هذا الرجل الآخر الذى يتجمع حوله الناس ويكادون يفترسونه .. إن الله قد يعاقب ابنها لأنه قتل واحدا .. ولكن عقاب الله سيكون أقسى وأشد إذا قتل اثنين .. إنها يجب أن تنقذ هذا الآخر تخفيفا من غضب الله على ابنها .. وهى لا تدرى كيف تنقذه .. ولكنها مصممة على أن تخفف من غضب الله على ابنها .. وقضت ساعات وهى مترددة وتفكر بدليل أنها لم تذهب إلى قسم البوليس إلا بعد أربع ساعات من القبض عليه .. ذهبت لتشهد بأنه برىء .. وهذا هو كل ما تستطيع .

هذه القصة تسيطر على خيال مصطفى حتى تحولت إلى واقع يعيش فيه .. وقد أراد أن يتأكد أكثر كأنه يحقق مع نفسه .. وكان قد عرف اسم المرحوم زوج فردوس .. عبد الله عبد الغنى عبد الله .. فذهب إلى سجلات الترخيص بحمل السلاح وأخذ يقلب فيها أياما حتى وجد هذا الاسم .. إنه مرخص له بحمل مسدس .. وهو مسدس من نفس النوع الذى انطلقت منه الرصاصة القاتلة ..

ولكن البوليس لم يعثر على مسدس فى شقة فردوس عندما فتشها ..

وابتسم مصطفى بينه وبين نفسه .. إن البوليس لم يفتش تفتيشا جادا .. ثم أن فردوس قالت له إن كل الشقق والبيوت كانت فى انتظار هذا التفتيش بمجرد أن بدأ البوليس بالعمارة الأولى .. ولا شك أنها أخفت المسدس عن أن يصل إليه أى تفتيش أو لعلها بحكم الجهل أخفته فى سيفون دورة المياه .. رغم أن البوليس أصبح بحكم تعامله مع الجهلة يبدأ التفتيش دائما بسيفون دورة المياه ..

ماذا يفعل الآن ؟!

هل يبلغ البوليس والنيابة لإعادة التحقيق فى مقتل العجوز قائد التريسيكل .. حتى يؤكد تبرئة نفسه ويحقق العدالة .. ويردع الأمهات اللاتى يتركن أطفالهن يلعبن بالأسلحة والمسدسات ؟!

مستحيل ..

إنه لا يستطيع أن يرد جميل المرأة التى تطوعت لإنقاذه بتعريضها هى وابنها للمرمطة وعذاب البوليس والنيابة .. ثم إن الحادث قيد ضد مجهول بعد أن عجز البوليس عن معرفة من أطلق الرصاصة القاتلة ..

وهذا الصبى الصغير يعتبر بحكم سنه لا يزال مجهولا .. إنه لم يوجد بعد .. لا يمكن أن يكون إنسانا كاملا يحاسب ويعاقب على أفعاله وتصرفاته .. إنه مجهول كما أثبت تحقيق النيابة ..

ومصطفى لا يزال يروى الحكاية فى كل ندوة تجمعه بأصدقائه ولكنه يحذف منها الجزء الأخير الذى يثبت اكتشافه لمن أطلق الرصاصة القاتلة ..

كانت تزور قبر حياتها ..

كانت ناهد منذ وعت الحياة وهى على قدر ما تحب أمها تحس بالغيظ منها وتنتابها لحظات تهم أن تثور عليها .. ورغم ذلك لم تكن أبدا تستطيع أن تتأكد من دوافع هذا الإحساس بالغيظ أو الثورة .. إنها أم كاملة .. حادة .. محترمة .. تستطيع أن تفرض شخصيتها على كل المجتمع الذى تعيش فيه ويحيط بها .. ورغم أنها امرأة جميلة ومعروفة بين باقى الأمهات أنها جميلة إلا أنها لم يبد عليها أبدا أن جمالها يجعل منها امرأة كبقية الجميلات .. امرأة مغرورة تحس بهذا الجمال وتحرص على استغلاله فى معاملتها أو فى مظهرها داخل المجتمع .. كما أن ناهد لم تحس أبدا بشىء ينقصها من أمها .. أنها ترعاها وتحيطها بكل ما تحتاجه أو حتى تتمناه بنت من أمها .. ورغم ذلك فإن ناهد تحس أن لأمها سرا لا تعرفه .. تحس كأن لها حياة أخرى غير حياة الأم وحياة البيت .. بل تحس كأن فى حياة أمها رجلا آخر غير أبيها .. وقد دفعها هذا الإحساس منذ البداية إلى أنها نشأت وهى تحس كأنها تشفق على أبيها وتتعمد أن تفيض عليه بحنانها والتدلل عليه وملاعبته والانشغال به .. ربما بكثير من المبالغة عما تعودته البنات فى تدليل الآباء .. حتى أصبح معروفا عنها أنها تحب أباها أكثر مما تحب أمها .. وأن كان ما تحس به هو أنها تتعمد أن تعوضه عن شىء ينقصه من أمها .. وإن كانت لا تعرف ما ينقصه من أمها .. إنها تعيش مجرد إحساس ..

وربما كان هذا الإحساس قد بدأ ينتابها منذ كانت صغيرة وكانت تمر بها فترات يكون أبوها قد خرج من البيت وترى أمها تحمل التليفون وتدخل به إلى غرفتها وتقفل الباب وراءها بالمفتاح ثم تقضى وقتا طويلا وهى تتحدث فيه بصوت وإن كان خافتا إلا أن رناته تسمع من خارج الغرفة .. وعندما كبرت قليلا بدأت تسائل نفسها .. ترى من تحادث أمى .. وعندما كبرت أكثر بدأت تتصور أنه ما دامت أمها لا تتحدث هذا الحديث إلا بعد أن يخرج أبوها وبعد أن تغلق وراءها الباب بالمفتاح فلا شك أنها تحادث رجلا بينها وبينه حكاية .. خصوصا وأن أمها لا تقول لها شيئا أبدا عن هذا الحديث كما تعودت أن تقول لها عن أحاديثها مع صديقاتها أو مع البقال والجزار .. وقد قل وجودها مع هذه الأحاديث بعد أن دخلت المدرسة .. ولكنها كانت وهى فى المدرسة تمر عليها فى كل يوم لحظات وهى تتخيل صورة أمها وقد حملت التليفون ودخلت به حجرتها وأغلقت وراءها الباب .. بل إنه بدأت تمر بها أيام ترى فيها أمها تخرج وحدها من البيت تحيط بها مظاهر غير المظاهر العادية التى تحيط بكل مرة تخرج فيها .. وتجد ناهد نفسها تتصور أن أمها قد خرجت للقاء هذا الرجل الآخر .. وربما كانت ناهد تزداد تأكدا مما تتصوره لأنها لا تحس به إلا فى أيام متباعدة .. ربما يمر أسبوعان أو ربما شهر كامل وأمها تخرج دون أن ينتابها هذا التصور .. إن أمها سيدة حريصة لا تنهار وراء الرجل الآخر وتبخل عليه بالخروج إليه حرصا على مظهرها وارتباطها بالعائلة والبيت ..

وهى فى كل يوم تحاول أن تتجرأ على أمها وتسألها عمن تحدثه فى التليفون وراء الباب المغلق .. ولكنها تحس أنها لو سألتها فكأنها

تتهمها .. فكيف تتهم أمها وهى ليست متأكدة من شىء .. وتقاوم .. وتدفعها المقاومة إلى هذا الإحساس بالغيظ من أمها وكأنها تهم بالثورة عليها .. بل إنها استطاعت يوما أن تتجرأ وتسأل أمها .. ضغطت على أعصابها وانتظرت حتى فتح الباب المغلق بعد أن انتهت أمها من حديث التليفون وقالت لها وهى تفتعل ابتسامة تبدو بها طبيعية :

ــ من كنت تحادثين يا ماما ؟

وترددت الأم فى لحظة عابرة ثم ضحكت ضحكة عالية تبدو مفتعلة وقالت وهى تحتضن ابنتها :

ــ إنه حديث كل يوم .. فالتليفون مهمة عائلية لا أستطيع أن أتخلى عنها .. ففى كل يوم يجب أن أسأل عن أمى وعن إخوتى الثلاثة .. وهو حديث يبدأ دائما بالحديث عنك وعن الأولاد والبنات .. وأحيانا إذا اتسع الوقت أسأل عن بنات العم والصديقات أو أضطر للتحدث مع البقال .. إنى لا أستطيع أن أستغنى عن التليفون كما لا أستغنى عن الأكل والشرب ومتاعب البيت .. ولذلك أتحدث من غرفتى بعد أن أغلق الباب حتى أتفرغ للتليفون .. وإياك يوم يكون لك بيت أن تتركى يوما يمر دون أن تحادثينى وأحادثك فى التليفون .. كيف أطمئن عليك كما أطمئن أنا على أمى وإخوتى ..

وسكتت ناهد ..

لعل أمها صادقة .. ثم لماذا تشغل نفسها بهذه الأوهام .. إن كل من فى البيت سعيد .. أبوها سعيد .. وأخوها سعيد .. وأمها طبعا

سعيدة .. فلماذا تحاول هى تعكير سعادتها .. ورغم ذلك فهى لا تستطيع أن تتخلص من هذه الأحاسيس التى تدفعها إلى الغيظ من أمها رغم أنها تحبها ..

* * *

وكبرت ناهد .. إنها فى الثالثة والعشرين من عمرها وقد انتهت من دراستها الجامعية وأصبحت موظفة فى الشركة .. وقد أعلنت خطوبتها إلى ياسر بعد قصة حب طويلة بدأت منذ التقيا فى الجامعة وسيتم الزفاف بعد شهرين عندما يكون قد انتهى من فترة تجنيده .. إنه حب أهم ما فيه هو المصارحة الكاملة بينهما .. إنها تعلم كل شىء عنه .. وهو يعلم كل شىء عنها حتى إنه من كثرة ما عرف أصبح يعتبرها هو الآخر وكأنها تحب أباها أكثر مما تحب أمها ..

إلى أن كان يوم استأذنت فيه من عملها فى الشركة بعد أن أحست بتعب .. إنها تتعب دائما كلما همت بها الدورة الشهرية .. وعادت إلى البيت .. ورأت أمها فى غرفتها وهى محتضنة آلة التليفون وتتحدث دون أن تغلق الباب كعادتها .. ربما كانت مطمئنة إلى أن ابنتها فى عملها خارج البيت كزوجها .. وانزوت ناهد قبل أن تراها أمها وأخذت تسمع ما تقوله أمها فى التليفون .. إنها تسمع كلاما غريبا وأمها تقول لمن تحادثه :

ــ كيف أنساك يا ممدوح .. إنى من يوم أن ولدت ناهد وأنا أعيش معك كل يوم بل كل لحظة .. وتشغلنى كما تشغلنى ناهد .. هل نسيت .. إن ناهد هى أنت ..

وانتابت ناهد نوبة من الذهول .. واتسعت عيناها جاحظتين .. وانفرجت شفتاها كأنها تشهق .. وألقت ظهرها مستندة على الجدار كأنها تخشى أن تقع مغشيا عليها ..

ماذا يعنى هذا الكلام الذى تقوله أمها ..

لا .. لا يمكن أن يكون معناه هو ما خطر على بالها وهى تسمعه .. ولكنه كلام ليس له أى معنى آخر .. كلام ليس له إلا معنى واحد .. معناه أن أمها أنجبتها من هذا الرجل الآخر .. إنها ليست ابنة أبيها ولكنها ابنة هذا الآخر الذى سمعت اسمه .. ممدوح .. وإلا فما معنى أن أمها منذ أنجبتها وهى لا تستطيع أن تنسى ممدوح ولو ليوم واحدأو لحظة .. لأنه هو الذى أنجبها منها .. إنه هو أبوها .. وليس أبوها هو الذى تحمل اسمه فى شهادة الميلاد .. والذى تعيش معه وتحبه كل هذا الحب كأب ..

إن أباها ليس اسمه ممدوح ولا تعرف بقية اسمه لأنه ليس مسجلا فى شهادة ميلادها .. إن أمثالها لا يسجل لهن أسماء آبائهن فى شهادات الميلاد .. لأنها ابنة حرام ..

إنها ابنة حرام ..

ووجدت نفسها تتحامل وتزحف إلى حجرتها دون أن تدخل إلى أمها وهى تكاد تسقط فى كل خطوة تزحف بها .. إلى أن ألقت بنفسها على فراشها كأنها تزهق أنفاسها الأخيرة ..

وزوبعة تعصف بفكرها وتنطلق فيها صور يرسمها خيالها ..

إنها ليست ابنة بابا رفعت .. إنها ابنة رجل لا تعرفه اسمه ممدوح ..

إنها ابنة حرام ..

ابنة حرام ..

وتهدأ الزوبعة فترة ويبدأ فكرها وكأنه يحكى لها حكاية .. إن أمها عرفت ممدوح وهى زوجة رفعت .. إنها زوجة لواحد وعشيقة للآخر .. ومثل هاتيك النساء إذا حملن لا يستطعن تقدير ابن من سينجبن .. هل ينجبن من الزوج أو من العشيق ... ولكنهن يستطعن دائما أن ينسبن المولود للزوج حتى لو تأكدن أنه من إنجاب العشيق .. ولكن كيف استطاعت أمها أن تتأكد أن ابنتها من نسل عشيقها لا من نسل زوجها حتى أصبحت لا تراها إلا وترى فيها صورة العشيق كما قالت فى التليفون .. وكيف تتأكد هى من أنها ليست ابنة أبيها الذى تحمل اسمه ولكنها ابنة الرجل الآخر .. ابنة الحرام .. إنها تتذكر أنه كان لها زميلة فى المدرسة الثانوية كانت متهمة بأنها ليست ابنة أبيها .. ولكن هذه الزميلة كانت أمها سيئة السمعة ومعروفة بأنه كان لها عشيق . ثم كان يقال إن هذه الزميلة تشبه العشيق فى كل تفاصيل خطوط وجهها .. ولكن أمها هى ليست سيئة السمعة .. بالعكس .. إن الناس يعتبرونها أطهر الزوجات .. وهى فى كل مظهرها جادة ومحترمة ومتعالية عن كل ما يمكن أن يمس مظهر امرأة .. ولكن هل أنجبت ابنتها وفيها شبه من زوجها .. لا .. إن ناهد تعرف نفسها ويعرف عنها كل الناس أنها تشبه أمها وليس فيها أى خط من خطوط أبيها .. الأب الذى تعرفه وتحمل اسمه ..

وقفزت ناهد من الفراش والتقطت مرآة صغيرة وعادت ترقد وهى تبحلق فيها كأنها تبحث فى تفاصيل خطوط وجهها من جديد لعل خطا

قد فاتها منه .. خط من خطوط وجه أبيها .. ولكن لا شيء .. إن أخاها الأكبر يحمل الكثير من خطوط وجه أبيها .. أما هى .. فلا خطا واحدا أخذته عنه .. إنها كلها صورة من أمها .. ولكن لا .. لقد بدأت عيناها تتركزان على ملامح لم تكن تهتم بها من قبل .. إن بياض لون بشرتها أفتح قليلا من بياض لون أمها .. واكتشفت أن أذنيها أعرض قليلا من أذنى أمها .. وأصابع يديها أقصر وممتلئة أكثر من أصابع أمها .. ثم شعرها .. شعر رأسها .. لقد نسيت ناهد هذا الشعر .. إنه ليس فى لون شعر أبيها ولا شعر أمها .. إنه يميل إلى اللون الأصفر الداكن .. فى حين أن رأس أبيها ورأس أمها يحملان شعرا داكن السواد .. وقد كانت وهى صغيرة يتندر أفراد العائلة بلون شعرها .. وكانت أمها تقول لها إن جدتها كانت سيدة من تركيا شعرها أصفر فاتح ولعلها جاء لون شعرها متأثرا بلون شعر جدتها .. وحتى أبوها الذى تعيش معه كان يقول لها كأنه يطمئنها إن عمه كان متزوجا من سيدة إنجليزية.. ولذلك فأولاد عمه شعرهم فاتح اللون ولعلها ورثت هذا اللون مع أولاد عمه أو لعل أمها توحمت على هذا اللون وتمنته لها .. ولكن الآن .. وبعد أن عرفت لماذا لا يكون هذا اللون هو لون شعر الرجل الآخر .. عشيق أمها .. أبيها الذى لا تعرفه ..

وعادت الزوابع تعصف بفكرها ..

إنها يجب أن تواجه أمها.. تواجهها بكل إصرار مهما بلغ بها الإصرار من تحديها والقسوة عليها حتى تعرف كل شيء .. إن من حقها أن تعرف من هو أبوها .. حتى لو كانت ابنة حرام .. لقد كبرت الآن ويجب أن تعيش واقعها ومهما عذبها هذا الواقع فهو عذاب أرحم من

الحيرة والتشتت اللذين يمزقانها ويهريان فكرها ويمزقان كل قطعة منها ..

وتعود الزوابع وتخفت قليلا من حول فكرها .. وتسائل نفسها : إلى أين ستنتهى بها مواجهة أمها .. لقد عاشت طوال عمرها وهى تمر فى لحظات تشك خلالها فى أمها كلما اختبأت فى غرفتها مع التليفون وينتابها الإحساس بالغيظ منها والثورة عليها .. ولكنها لم تواجهها أبدا بهذه الأحاسيس .. ومضت الحياة سعيدة هادئة لا ينقصها فيها شيء ولا يعكرها سوى هذه الأحاسيس العابرة .. فماذا يحدث لو واجهتها بعد أن أصبحت شكوكها اتهاما.. كيف تستطيع أن تعيش معها بعد ذلك .. وكيف تستطيع أن تعيش مع أبيها وأخيها .. كيف تستطيع أن تعيش فى هذا البيت .. بل ماذا يكون مصير هذا البيت الهادئ السعيد .. وتجمدت عيناها وهما معلقتان فى سقف الغرفة .. عندما وصل بها التساؤل إلى مصيرها مع خطيبها وحبيبها ياسر .. إن حبهما قائم على المصارحة الكاملة بينهما .. كل منهما يعرف كل شيء عن الآخر .. فهل تصارحه بأنها ابنة حرام بعد أن تتأكد أنها فعلا ابنة حرام .. وهل يبقى حبه كما هو بعد أن ينتقل من حب ابنة شرعية إلى حب ابنة حرام .. إنها هى نفسها قد لا تستطيع أن تحبه وهى ابنة حرام كما تحبه الآن وهى ابنة كاملة ..

وانطلق فى صدرها قرار كالصراخ .. لا .. إنها لن تواجه أمها ولن تصارحها بما اكتشفته ويعذبها كل هذا العذاب .. ويجب أن تبحث عن حياة تخفف عنها ..

وعادت الزوابع تعصف بفكرها .. هناك شيء لا تستطيع الآن أن تعدل عنه أو تهرب منه .. وهو أن تعرف هذا الرجل الآخر وتتصوره كأنه أبوها .. إنها حتى لو واجهت أمها فقد تكذب عليها .. بل لا شك أنها ستكذب عليها .. ولكنها لو عرفته هو شخصيا ونظرت في وجهه ولو من بعيد فتحس أنها ستتأكد مما إذا كان فعلا أباها أو لم يكن .. إن مجرد رؤيته ستحدد إحساسها به وإحساسها أيضا بأبيها الشرعي .. هل هي ابنة ممدوح أم ابنة رفعت ..

ووسط هذه الزوابع سمعت أقدام أبيها وقد عاد إلى البيت .. وقفزت من فوق الفراش وجرت إليه وألقت بنفسها بين أحضانه وشدته إلى صدرها بعنف كأنها تستغيث به أو كأنها تستنجد به حتى يبقى أبا لها كما هو ولا يتركها،والأب دهش وهو مستسلم لها يربت عليها بحنان قائلا :

— ما بك يا ابنتي ؟

وقالت كأنها تهم بالبكاء :

— تعبة يا بابا .. مريضة ..

وقالت لها أمها وهي في استقبال زوجها :

— متى عدت .. إني لم أرك ..

وأطلت على أمها وهي بين أحضان أبيها وقالت في حدة وجفاء :

— كنت متعبة .. وكنت تتحدثين في التليفون .

وهم أبوها رفعت أن يزيحها عن صدره ليدخل غرفته .. فانحنت تلقائيا وعلى غير عادتها وقبلت يده .. كأنها تشكره وتعترف بفضله عليها منذ بدأ يؤويها وهي ليست ابنته .. وابتسم لها أبوها في حنان

والدهشة تشتد وهو ينظر إليها ثم قبلها على جبينها وهو يبتعد عنها ..

ولم تجلس معهم على مائدة الغداء .. إنها تعبة .. وكلهم يعرفون أنها تصل إلى هذا الحد من التعب كلما بدأت بها الدورة الشهرية .. فتركوها تعود إلى غرفتها .

* * *

وفي أوائل المساء سمعت صوت أقدام أبيها يخرج من البيت ولا شك أن أخاها قد سبقه وخرج .. أصبحت وحدها مع أمها في البيت .. وتحاملت على نفسها وقامت من فراشها بعد هذه الساعات الطويلة التي قضتها وسط الزوابع التي تعصف بفكرها .. وخطت مترنحة حتى وقفت أمام أمها ووجدتها تحمل آلة التليفون وتهم أن تدخل بها إلى غرفتها .. وقالت الأم في جزع :

— لماذا تركت الفراش .. إنك متعبة .. بل يبدو أنك متعبة أكثر مما تعودت ..

وقالت ناهد وهي تستند على الجدار حتى لا تقع على الأرض :

— هل تعرفين شخصا اسمه ممدوح ..

وبدا أن الأم ارتعشت لهذا السؤال حتى اهتز التليفون في يدها وسقطت من فوقه السماعة .. وانحنت تلتقط السماعة وهي تقول في صوت مرتبك في نبراته :

— من هو هذا الشخص ؟

وقالت ناهد وهي مستندة إلى الجدار ونظراتها ثابتة على وجه أمها :

— إنه شخص سمعتك تحادثينه في التليفون وترددين اسمه .. ممدوح ..

وقالت الأم وهى تتنحنح كأن صوتها مخنوق :

ــ متى كان هذا ؟

وقالت ناهد بنفس الصوت الجاف :

ــ هذا الصباح ..

وعادت الأم تتنحنح وتشغل نفسها بوضع التليفون مكانه وقالت بعد فترة دون أن تنظر إلى ابنتها :

ــ آه .. تذكرت .. لقد سألت هذا الصباح عن أخى طاهر وقالوا لى إنه عند صديقه ممدوح وأعطونى رقم التليفون فاتصلت به هناك .. وطبعا رد على ممدوح نفسه .. وأنا أعرف أنه صديق من زمان بعيد لخالك طاهر .. وإن كانت صداقتهما لم تجمعهما عائليا ..

وقالت ناهد وهى تبذل مجهودا أكثر للسيطرة على أعصابها :

ــ هل هو يعمل مع خالى طاهر ..

وقالت الأم ولعلها تحاول أن تكون طبيعية مع ابنتها فاحتضنتها كأنها تعينها على تعبها وقالت :

ــ لا،لا يعمل مع خالك .. وما أسمعه عنه أنه رجل أعمال له شركات كبيرة .. تعالى واجلسى بجانبى على الأريكة ..

وقالت ناهد وهى مستسلمة لأمها وتتركها تشدها لتجلس على الأريكة :

ــ وما اسمه الكامل ..؟

وقالت الأم فى دهشة صريحة :

ــ لماذا تريدين أن تعرفى اسمه الكامل ؟

وقالت ناهد وهى تبتسم ابتسامة مفتعلة :

ــ أنت تعرفين أن عملى فى الشركة يسمى العلاقات العامة .. أى يجب أن أعرف كل رجال الأعمال الذين يمكن أن تعمل معهم الشركة .. وربما كان هذا الشخص يمكن التعامل معه ..

وأحنت الأم رأسها كأنها تهم بالاعتراف وقالت بصوت خافت :

ــ اسمه ممدوح عبد الرؤوف وهو معروف ..

ثم رفعت الأم رأسها واستطردت قائلة :

ــ سأعد لك كوب نعناع مغلى ..

وقامت من جانب ابنتها منتفضة وخطت بعيدا عنها كأنها تجرى هربا .

* * *

وكان قد مضى أكثر من ثلاثة أسابيع وناهد قد تركت الفراش .. وأصبحت قادرة على الخروج إلى العمل ولكنها لا تزال هزيلة ممصوصة الوجه .. ولا تزال أعاصير الفكر تعصف بها كلما كانت وحدها أو حاولت أن تنام .. وبينها وبين أمها شىء لا ينتهى .. إن كلا منهما ترخى عينيها عن الأخرى كأنها تهرب منها .. ولا تتحدثان إلا فى كلمات عابرة .. وأمها أيضا بدأت تبدو كأنها تعانى .. ولونها بهت وتميل إلى الهزال ..

ووجدت ناهد نفسها ذات صباح تصعد إلى مكتب ممدوح عبد الرؤوف .. وكان من السهل أن تعرف العنوان فهو رجل مشهور عنوانه معروف .. وقالت للسكرتيرة التى استقبلتها فى برود :

ــ هل أستطيع أن أرى ممدوح بك ؟

وقالت السكرتيرة فى جفاء :

ــ لماذا ؟

وقالت ناهد كأنها تحادث نفسها :

ــ موضوع خاص ..

وقالت السكرتيرة فى ازدراء .. لعلها اعتبرتها إحدى البنات اللاتى لا يزلن يلقين أنفسهن على ممدوح طمعا فى ثرائه :

ــ آسفة .. إنه مشغول ..

وقالت لها ناهد فورا :

ــ أبلغيه باسمى لعله يرانى ... ناهد البلتاجى ..

قالتها وهى تقول لنفسها .. لو قبل لقاءها رغم أنه مشغول فمعنى ذلك أنه يعترف بأنها ابنته .. فهو وإن كان لا يعرفها فهو على الأقل يعرف اسمها ..

ونظرت إليها السكرتيرة كأنها تحقق فى مظهرها لتطمئن إليها .. ثم رفعت سماعة التليفون وقالت اسمها فيه .. ومرت برهة سريعة صامتة كأن ممدوح يفكر بعد أن سمع هذا الاسم .. ثم قامت السكرتيرة منطورة واقفة كأنها تلقت أمرا صارما وتقدمت لناهد وهى تردد :

ــ تفضلى .. تفضلى ..

واستقبلها ممدوح واقفا .. ومضت برهة وكل منهما صامت يحدق فى الآخر .. لعله كان يستوعب شكلها .. وهى تبحث فيه عن الحقيقة وعيناها معلقتان بشعر رأسه .. إنه نفس لون شعرها .. إنه أبوها .. وأذناه أعرض من أذنى أمها .. وأصابعه أقصر وأغلظ من أصابعها .. وانتابها إحساس عجيب وهى تنظر إليه أول نظرة .. إنها تكرهه .. تكره

هذا الرجل .. إنه الرجل الذى استدرج أمها حتى أنجبها منها .. لا .. إنه لم ينجبها .. ولكنه ألقى بها فى بطن أمها كما يلقى بعقب سيجارة بعد أن يدخنها .. أو كما يلقى ببذرة البرقوق بعد أن يأكلها .. إنها هى عقب السيجارة أو بذرة البرقوقة .. وألقاها فى الحياة كما يلقى أى شيء لا يريده صاحبه لأنه حرام ..

وكان يبتسم لها ابتسامة حانية وهو يستوعبها بين عينيه وقال :

ــ هل أنت ابنة رفعت بك البلتاجى ؟

وقالت فى فتور :

ــ نعم ..

واتسعت ابتسامته الحانية وقال كأنه فرح مبهور بها وهو يشير إلى المقعد :

ــ تفضلى ..

ولم تتقدم لتجلس على المقعد وقالت فى سخرية مرة :

ــ هل تريد أن تعرف اسم أمى أيضا .. أم أنك تعرفه ؟

ونظر إليها فى دهشة حائرة وإن كانت ابتسامته الحانية لا تزال معلقة بين شفتيه وقال :

ــ إنى أعرف أيضا اسم والدتك .. إنها شقيقة صديقى طاهر .. خالك .. وكنا كلنا جيرانا فى الصغر .. تفضلى .

ولكنها لم تجلس وظلت واقفة وقالت فى كلمات سريعة كأنها لم تعد تطيق هذا الرجل أكثر :

ــ سمعت أنك تبحث عن موظفة .. فجئت أسأل .. إنى خبيرة فى مجال العلاقات العامة ..

وقال من خلال ابتسامته الحانية :

ـــ الواقع أنى لا أبحث عن موظفات ولست فى حاجة إلى أكثر ممن عندى فى قسم العلاقات العامة .. ولكنك تستطيعين أن تكونى معنا وتختارى أى مسئولية لك فى المكتب ..

وقالت فى حدة :

ـــ لماذا توظفنى عندك وأنت لست فى حاجة إلى ..

وعادت الدهشة الحائرة إلى عينى ممدوح وقال من خلال ابتسامته التى لا تزال تنبض بالحنان :

ـــ لأنك ابنة أخت أعز صديق لى .. صديق الصبا ..

وقالت دون أن ترفع أى ابتسامة على شفتيها :

ـــ شكرا .. سأفكر .. عن إذنك ..

واستدارت له دون أن تصافحه وخطت كأنها تهم أن تجرى خارجة من الباب .. وممدوح يقول من ورائها كلمات لا تسمعها .. إنها تكره هذا الرجل .. كانت تحس وهو أمامها كأنها تهم أن تمد أظافرها وتنبش فى وجهه حتى تمزقه وتشرب الدم الذى يسيل منه .. كيف يكون هذا الرجل هو أبوها وهى تكرهه كل هذه الكراهية .. الرجل الذى ألقاها فى بطن أمها عقب سيجارة تمتع بها .

* * *

وعادت إلى البيت ولم تقل لأمها إنها رأت ممدوحا . لاشك أنه سيقول لها فى التليفون إنها ذهبت إليه ورآها .. لتنتظر إلى أن تبدأها أمها بالحديث عنه .. ولكن مرت الأيام وأمها لا تحادثها فى هذا الموضوع .. موضوع اكتشافها لأبيها .. وهى قد تغيرت لم تعد الفتاة

النشيطة المرحة التى تملأ البيت بضجيجها وتحركاتها .. أصبحت فتاة صامتة منعزلة عن صديقاتها وتقضى عمرها داخل غرفتها وقد تعودت أن تغلق بابها عليها كما تفعل أمها عندما تتحدث فى التليفون .. وكانت خلال هذه العزلة تدور فى خيالها القصص وبعضها تكون كأنها تلتمس بها العذر لأمها .. لقد أحبت أمها ممدوحا وهو جار لها .. ولكنها كان لا يمكن أن تتزوجه فهو فى مثل سنها وأمامه سنوات حتى يتم دراسته ويؤهل حياته للزواج .. كانت منذ البداية وهى تعلم أنها لن تتزوج ممدوح .. ولذلك قبلت أن يزوجوها رفعت .. كان أكبر منها ومؤهلا للزواج وليس فيه ما يعيبه بل إن فيه كل ما تتمناه زوجة .. ولكنها لم تستطع أن تتخلص من حبها لممدوح فاحتفظت به فى حياتها وهى بنفس الشخصية الجادة الكاملة التى تحتفظ بها بزوجها .. وربما حملت من ممدوح نتيجة خطأ فى الحسابات التى تحرص عليها النساء .. لا يمكن أن تكون قد تعمدت أن تنجبها من ممدوح .. ليست هناك امرأة حتى ولو كانت عاهرة تتمنى أن يكون لها مولود حرام .. قد تكون أمها معذورة ولا تستطيع أن تحاسبها على إنجابها فى الحرام .. بصرف النظر عن أنها أم تخون زوجها ..

وقد بدأت هذه الأم تعانى الضعف والهزال أكثر حتى سقطت مريضة لا تقوم من فراشها .. وهى تحنو على أمها وتراعيها بكل ما يحتاجه مرضها .. ولكن كلا منهما لا تزال تهرب من أن تلتقى عيناها بعينى الأخرى .. وكل منهما لا تزال صامتة عن مصارحة الأخرى .. مع أنها تعلم سبب ما تعانيه أمها كما تعلم هى سبب ما تعانيه .. حتى الأطباء لم يجدوا سببا لكل هذه المعاناة وكلهم يقولون إنه نتيجة حالة عصبية أو

حالة حساسية ..ولا تحاول إحداهما علاج الأخرى من حالتها ..

وقد تغيرت ناهد أيضا بالنسبة لأبيها رفعت .. إنها لا تزال تحبه غاية الحب ولكنه نوع آخر من الحب .. ليس مجرد حب الابنة لأبيها لقد أصبح حبا كله اعتراف بفضله عليها .. إنه هو الساتر الوحيد لكل حياتها .. هو الذى ينقذها من فضيحتها كابنة عشيق .. ابنة حرام .. وهى لم تعد تحس بأنها تتدلل عليه أو تدلله .. إنها تحس كأنها تشكره .. كأنها تستحلفه ألا يتركها وحدها حتى لو عرف أنها ليست ابنته .. وقد كادت تتعود على تقبيل يده لولا أنه رفض لها هذه العادة وقال لها ضاحكا وحبه وحنانه يفيض عليها :

ـ إنك تذكريننى بأيام زمان عندما كان الابن والابنة يقبلان يد الأب والأم .. وأنت لست من بنات زمان ولا أنا ربيتك لتكونى من بنات زمان .. إنك الجيل الجديد الذى لا يعرف تقبيل اليد .. بل يعتبر تقبيل اليد إهانة وإذلالا حتى لو كانت يد الأب .. وبينى وبينك .. فإنى أحب قبلتك على خدى أكثر مما أحبها على يدى .

واستطاعت أن تقلع عن تقبيل يد بابا رفعت .. ربنا يبقيه لها فهو ينقذها حتى من نفسها .

ولكن التغيير الأكبر الذى حدث فى حياتها هو مصيرها مع حبيبها وخطيبها ياسر .. إنها لا تستطيع أن تصارحه بأنها ابنة حرام .. ولن تصارحه بأنها ليست ابنة هذا الأب ولكنها ابنة رجل آخر .. وهى لا تستطيع أن تعيش معه وهى تخفى عنه حقيقتها .. ولا تستطيع أن تكون زوجة كاذبة مخادعة وتترك زوجها يحبها ويعيش معها على أنها ابنة حلال .. ويجب أن تهرب منه حتى لا تتسع حياة الكذب التى

تعيشها .. حياة المظهر الكاذب الذى لا يستطيع أن يعيش الواقع الصريح .. وبدأت فعلا تهرب منه إلى أن صارحته بأنها لن تتزوجه .. لن تتزوج أبدا .. وقامت ضجة بين العائلتين .. ولكنها تصر إلى حد أن اتهموها بالجنون .. أو ربما أحبت آخر تريد أن تتزوجه .. وأمها قد إزدادت حالتها المرضية خطورة كأنها تسعى بنفسها إلى الموت .. وبابا رفعت تشتد خيبته فيها واقتناعه بأنها لم تعد طبيعية .. وهى بينها وبين نفسها متأكدة أنها لن تتزوج أبدا .. إلا إذا تقدم إليها واحد يعرف مقدما أنها ابنة حرام ويصل حبه لها إلى أن يقنعها بالزواج .

والأيام تمر بكل هذا الثقل وكل هذه المرارة التى تهرى فى حياتها وحياة أمها وتتعس بابا رفعت ..

وتمر بها شهور .. وكلما مرت بها شهور .. تجد نفسها يوما تسير فى الشارع وتقف أمام باب العمارة التى يقع فيها مكتب ممدوح .. وتنتظر طويلا إلى أن تراه من بعيد وهو يخرج إلى الشارع .. إنه لم يتغير .. إنه هو كما هو وجيه أنيق وشعره الأصفر الداكن فوق رأسه .. إن الذى يلقى بعقب سيجارة متعته فى بطن امرأة لا يتغير ولا يتأثر ولا يندم على السيجارة التى انتهى من تدخينها ..

وتطيل النظر إليه من بعيد وهى ترى نفسها فيه .. ترى نفسها ابنة حرام .. ترى نفسها عقب السيجارة الذى ألقاه فى بطن أمها .. وتنهمر دموعها .. إنها لم تأت إلى هنا إلا كأنها تزور قبر حياتها وتترحم على نفسها ..

وتاهت بعد العمر الطويل

كانت ناهد زوجة سعيدة .. عاشت واحدا وثلاثين عاما وهى زوجة سعيدة ..

لم تتعرض حياتها الزوجية أبدا لما يمكن أن يعكرها .. وهى نفسها لم تفكر أبدا فى تغيير أى شىء فى حياتها الزوجية أو إدخال أى جديد عليها ولو لمجرد مقاومة الملل والزهق .. أبدا .. لم يطرأ عليها أبدا أى لمحة إحساس بالملل أو الزهق .. لقد كانت تحس منذ اليوم الأول الذى تزوجت فيه أنها وصلت إلى قمة السعادة وليس هناك شىء فوق القمة يمكن أن يغريها بأن هناك سعادة أكبر يمكن أن تجذبها .. وقد أصبحت كل أيامها تمر على وتيرة واحدة منظمة بالساعة والدقيقة .. والبيت الذى تزوجت فيه لا يزال هو البيت الذى تقيم فيه .. وحتى قطع الأثاث لم تغير فيها شيئا ولم تحرك أى قطعة منها إلى مكان غير مكانها .. وحتى بعد أن انجبت ابنها شهاب وابنتها لوتس اتسعت حياتها ولكن لم يشملها أى تغيير .. ظلت حياة منظمة بالساعة والدقيقة دون أن تصادف ما يعكرها أو ما يمسها بالملل أو الزهق ..

وقد كانت فى صباح كل يوم تقوم من النوم فى الساعة السادسة والنصف وتترك زوجها مراد فى الفراش وتذهب إلى ابنها وابنتها وتوقظهما فى رقة وحنان وتبدأ فى إعدادهما للذهاب إلى المدرسة .. وفى الساعة السابعة تماما تعود إلى زوجها لتطمئن إلى أنه قد ترك الفراش .. فهذا هو موعده .. ثم تتركه يدخل الحمام ويستكمل إعداد

نفسه للذهاب إلى عمله فى مؤسسة الغزل بينما هى تدخل المطبخ لتعد طعام الإفطار للعائلة كلها .. وتحرص وهم على مائدة الإفطار أن تسأل كلا منهم عما يريده فى يومه لتعده له .. ثم يخرجون من البيت ويتركونها وحدها .. وتبدأ بمنتهى الهمة والنشاط فى تنظيف البيت وتنظيمه وتسوية كل ما فيه .. إنها لا تحاول أن تعتمد على عزيزة الشغالة ولا تتركها أبدا تعمل بعيدا عنها .. وبعد ذلك تخرج من البيت إلى الأسواق لتشترى ما تحتاج إليه .. إنها وحدها التى تشترى كل شىء حتى ما يخص زوجها .. ثم تعود لتدخل المطبخ وتبدأ فى طهو وإعداد الغداء وعزيزة بجانبها ولا تترك المطبخ لها وحدها .. إلى أن يعود ابنها وابنتها من المدرسة وقد تقدم لهما طعام الغداء وحدهما فى حين أن زوجها مراد ليس له موعد محدد لعودته من عمله .. قد يعود فى الثانية والنصف أو الثالثة وأحيانا الرابعة .. وهى فى انتظاره دائما لتتناول معه الغداء .. ومن عادته بعد الغداء أن ينام .. إنه يقول إنه يستريح ولكنه فى الواقع ينام .. وإن كان نومه لا يستغرق إلا ساعة ونصفا .. لا أكثر .. ويقوم من النوم ليخرج من البيت .. قد يكون لديه اجتماع فى مؤسسة الغزل .. إنه يتقدم سريعا فى عمله ويرتقى فى مناصب المؤسسة .. وحتى لو لم يكن مرتبطا باجتماع عمله فقد يخرج لزيارة أصدقاء عمل .. وبعد أن يخرج تتفرغ هى للجلوس مع الولد والبنت للإشراف على مذاكرة ومراجعة المواد الدراسية .. إنها حريصة على الإشراف على مذاكرتهما حتى بعد أن كبرا وأصبحا فى المدرسة الثانوية .. بل إنها كانت هى نفسها تذاكر المواد الدراسية التى يدرسانها حتى تستطيع أن تجلس بينهما كأستاذة .. وفى الساعة التاسعة يعود زوجها إلى

البيت .. إنه لم يتأخر أبدا عن الساعة التاسعة .. ويكون أشرف ولوتس قد ناما .. وتقضى معه أجمل ساعات اليوم .. يشاهدان معا التليفزيون وهما يتناولان طعاما خفيفا للعشاء تبذل كل يوم مجهودا خاصا لاختيار أصنافه حتى يكون لذيذا شهيا .. وفى أغلب الليالى لا يتفرغان لمشاهدة التليفزيون بل يأخذ زوجها مراد فى التحدث عن عمله .. عن كل ما حدث له فى يومه .. كل ما يفرحه وكل ما يتعبه .. وهو يتحدث كأنه يفرج عن نفسه ويريح صدره مما يحمله دون أن ينتظر غالبا رأيها فيما يقول ودون أن يبدو وكأنه يستشيرها .. ولكنها بلا تعمد كانت أحيانا تقول رأيها وبلا تعمد أيضا كان يبدو أنه فى انتظار هذا الرأى .. وهى من طول ما تحدث معها عن عمله أصبحت تفهم هذا العمل بكل تفاصيله وأسراره .. وتستطيع أن تحكم على كل من يعملون معه ويساعدونه أو يضايقونه ويتعبونه حتى دون أن تعرفهم شخصيا .. لا شك أنها المستشارة الأولى لزوجها ولو أنها لا تفرض عليه ما تشير به .. ولا تقيم لنفسها شخصية المستشارة .. وتظل هذه الساعات الحلوة تجمعهما كل ليلة حتى الساعة الحادية عشرة على الأكثر .. إلا فى ليالى يشدهما فيها ما يعرضه التليفزيون حتى الساعة الثانية عشرة .. ثم يجمعهما الفراش .. وتضمهما ليالى الشتاء وتبعد بينهما ليالى الصيف ..

كان هذا هو كل يوم من أيام حياتها .. أيام منتظمة بالساعة والدقيقة .. يضاف إليها الأيام التى يدعون فيها إلى الخارج أو يقومون بدعوة بعض الأصدقاء ولكنها كانت أياما قليلة فلم تكن هى نفسها من هواة الدعوات .. وكانت تتخلل هذه الأيام فترات يسافر فيها الزوج بعيدا عن بيته .. وقد يغيب أحيانا .. بل إنه سافر أكثر من مرة إلى أوربا

وكان يغيب أسابيع .. ولكنها أيضا فترات لأيام منظمة بالساعة والدقيقة .. وقد تغير بعض ما تفرضه هذه الساعات والدقائق من ناحية التنظيم مع كبر سن شهاب ولوتس والتحاقهما بالمدارس الثانوية .. ولكنها دائما ساعات ودقائق فى منتهى التنظيم ..

وكبرت وكبر زوجها مراد حتى أحيل على المعاش بحكم السن .. لقد وصل إلى الستين وهى فى التاسعة والأربعين .. إن الفارق بين عمريهما إحدى عشرة سنة .. ولكنها لم تحس أبدا بهذا الفارق .. بل إن مراد لا يزال حتى الآن وبعد أن وصل الستين وهو فى منتهى الصحة والنضارة والحيوية والنشاط .. وهما لم يفكرا أبدا فى إحالته على المعاش إلا قبل أن يحل موعده بشهور قليلة .. كأن سعادتهما واكتفاءهما الذاتى بكل ما يعيشان فيه قد ألهاهما عن التفكير والإعداد للمستقبل .. المستقبل الذى ينزعه عن عمله ويلقى به على أرض جرداء خاوية .. أرض المعاش ..

وعندما تذكرا مستقبل المعاش وبدآ يفكران فيه كان زوجها مراد يبدو فى منتهى الاطمئنان .. لقد اكتسب اسما لامعا محترما بين كل قادة صناعة الغزل .. ومن السهل بعد إحالته على المعاش أن يجد عملا رئاسيا فى شركة من الشركات الكثيرة التى تنتج الغزل .. بل إن هناك شركة غزل أسست فى السعودية وهو يعرف أصحابها ومؤسسيها معرفة شخصية ولا شك أنهم يتلهفون على أن يعمل معهم .. وسيتقاضى منهم مرتبا يوازى أضعاف المرتب الذى يتقاضاه من هذه المؤسسة الحكومية التى يعمل فيها .. إن إحالته على المعاش تعتبر فاتحة خير تفيض عليه وعلى العائلة كلها بالرخاء وتوفر لهم أرقى وأغلى ما يمكن أن تقدمه

الحياة .. ولكن الواقع أن مراد لم يحاول قبل أن يحل موعد إحالته على المعاش أن يتصل بأحد ممن يمكن أن يوفر له عملا آخر .. لم يحاول أبدا أن يبذل أى جهد ليضمن لنفسه مجالا جديدا للعمل والكسب ..

وحل يوم إحالته على المعاش ..

وبدأ كل شيء فى حياتها يتغير ..

وقد قالت له في اليوم الأول :

ــ هل اخترت العمل الذى ستلتحق به ..

وقال مبتسما وهو يتمدد على فراشه :

ــ لقد قررت أولا أن أمنح نفسى إجازة على الأقل لمدة شهر .. وبعدها أبدأ فى اختيار ماأعمله .. ربما كان على حق .. إنه طوال هذا العمر الطويل الذى قضاه ينهك نفسه فى العمل لم يكن يمنح نفسه إجازة .. بل لم يكن يتحمل الإجازات الرسمية وكان يقضيها داخل المكاتب والمصانع متنازلا عنها بحجة تطوعه بالإشراف على العمل وإن كانت دوافعه الحقيقية هى الهرب من الإجازة فقد كان لا يجد شيئا فى حياته إلا العمل .. ولعله يستسلم الآن للإجازة ويمنحها لنفسه لأنها إجازة مفروضة عليه بحكم المعاش.إنها ليست إجازة .. إنها حكم بطرده من العمل ..

وبدأت تحس به كأنه طرد فعلا من العمل وليس فى إجازة .. فالناس تستغل أيام الإجازات فى إمتاع أنفسهم بمتع الحياة .. فى النزهات والزيارات والسفريات واللعب .. ولكن مراد لايحاول أن يستغل إجازته فى شيء .. إنه يقضى كل أيامه إما راقدا فى الفراش أو جالسا على مقعده المريح أمام التليفزيون .. ويقضى ساعات طويلة يقلب فى

الصحف اليومية والمجلات دون أن يبدو عليه أنه يجد فى كل مايقرأه شيئا يثيره أو يهمه .. ويقضى ساعات أطول مما تعود فى الحمام .. وساعات أطول مما تعود وهو على المائدة يتناول إفطاره أو غداءه أو عشاءه .. ولا يحاول أبدا أن يخرج من البيت ولو حتى لزيارة عائلته .. بل لا يحاول حتى أن يتحدث فى التليفون مع أحد .. حتى أحاديثه معها بدأت تتباعد وتختصر .. وهى فى عجب .. كيف انقلب مراد من إنسان يفرط فى العمل والنشاط إلى إنسان يفرط فى الكسل ويعيش فى اللاشيء .. ربما كانت هذه هى طبيعة كل من يتميز بالإفراط .. فهو إما أن يفرط فى العمل وإما أن يفرط فى الكسل .. وهى تدعو الله بأن يعود زوجها إلى الإفراط فى العمل ..

وبعد أن مر الشهر الذى قد حدده كإجازة يستريح بها ، إذا به لا يزال قابعا فى البيت لا يتحرك .. وسألته وكأنها تنهره فى رقة :

ــ ألن تبدأ فى البحث عن عمل ؟!

ورد عليها بمنطق تسمعه منه لأول مرة .. صاح قائلا :

ــ كيف تريديننى أن أبحث عن عمل .. هل أدور على الناس أستجديهم ليتفضلوا بالإشفاق علىّ ويمنحونى عملا .. هل تريديننى أن أنسى كل ماقدمته للبلد وأنقلب إلى شحاذ .. لا .. إنهم هم الذين يسعون ورائى ويتوسلون أن أقبل العمل الذى يعرضونه .. وقد أقبل أو لا أقبل .. إنى أستاذهم وسيد سيدهم .

ولم يسع أحد وراءه ..

وبدأت تحس به وهو قابع فى البيت كأنه قابع على صدرها .. أصبحت تحس بكل ساعات ودقائق يومها كأنها مشارط تمزق فى إحساسها .. لم تعد تستطيع أن تجد ماتعودته .. إنها لا تستطيع أن

توقظه في الساعة السابعة صباحا لأنه ليس في حاجة لأن يكون له موعد يصحو فيه .. وابنها شهاب وابنتها لوتس قد يخرجان إلى المدرسة دون أن يريا وجهه ثم لا تستطيع أن تنظف البيت وترتبه وتشرف عليه وهو فيه .. إنها تراه كأنه أصبح قطعة من الحجر أو الصخر تشوه جمال ونظام البيت .. وقد فقدت متعة انتظاره التي تعودت عليها .. متعة الشوق .. أصبحت تعيش وهي في انتظار متعة أن يخرج من البيت ويريحها من وجوده .. حتى بعد أن تدخل المطبخ لم تعد تحس بمتعة إعداد الطعام بينما هو جالس في الصالة وكأنه جالس فوق كتفيها .. ولم تعد ساعات الليل التي تجمعهما بعد أن ينام شهاب ولوتس تجد فيها المتعة التي كانت تهنأ بها في نهاية كل يوم .. كيف تهنأ بحديثه في هذه الفترة وهو طول اليوم بجانبها يتحدث كلما أراد ..

ثم زحف عليها إحساس بأن مجرد وجوده في البيت أصبح يفسد ابنها وابنتها .. إنه طول عمره هائم في حب ابنه شهاب وقد أصبح في كل يوم بعد أن يعود ابنه من المدرسة يأخذه بجانبه ويجلسان أمام التليفزيون .. فيلهيه عن مذاكرة دروسه .. كما كان طول عمره عنيفا بالنسبة لابنته لوتس .. ويغار عليها من الهواء ويحرضه عليها خياله الرجعي .. أين تذهب .. ماذا تلبس .. كيف تخطو في مشيتها .. ولماذا تطل من الشباك .. وقد أصبح وجوده في البيت عذابا لابنته لوتس .. لا يمر يوم إلا وتبكي وتهرب من أمامه حتى لا يجرحها بكلماته .. والمهم المذاكرة .. وناهد كأم لم تعد تستطيع أن تقوم بالإشراف على مذاكرة الولد والبنت لدروسهما .. فإذا استطاعت أن تأخذهما بعيدا عن أبيهما وتجلسهما بجانبها للمذاكرة وجدت نفسها

لا تستطيع أن تركز ذهنها وإحساسها فيما يذاكرانه كما تعودت .. فبين كل سطر وآخر مما يقرآنه تجد ذهنها وإحساسها يشت إلى الحال الذي أصبح فيه زوجها .. والولد والبنت أيضا لا يستقران بين الكتب والكراريس ويقفزان بين كل لحظة وأخرى إلى أبيهما بحجة أنهما يسألانه سؤالا فيما يدرسان .. وهو نفسه قد يناديهما ويخطفهما من أمام كتب المذاكرة ليريا مشهدا أعجبه على شاشة التليفزيون .. لقد أصبحت تخاف على الولد والبنت ألا ينجحا في امتحان المدرسة بعد أن كانت تعيش وهي تعتبرهما من الطلبة العباقرة ولا تخاف عليهما من أي امتحان ..

وحتى عزيزة التي تعمل في البيت منذ أكثر من عشر سنوات بدأت تتغير .. ربما لم يعد البيت هو نفس البيت .. لقد كانت عزيزة تعمل وهي لا تتلقى الأوامر ولا تخضع إلا لست البيت .. ولم يكن رجل البيت يأمرها أو يطلب منها شيئا .. بل ربما كان لا يحس بوجودها إطلاقا .. لم يكن يطلب شيئا إلا من زوجته ست البيت .. وكانت ست البيت وحدها هي التي تتعامل مع عزيزة .. ولكن رجل البيت أصبح الآن مقيما طوال النهار والليل في البيت وأصبح يتعامل مع عزيزة .. أصبح لعزيزة سيدان لا سيد واحد .. لم تعد ملكا لست البيت وحدها ولكنها أيضا ملك لرجل البيت .. ولا شك أن عزيزة ترتاح أكثر في التعامل مع رجل البيت .. على الأقل هو جاهل بكل أعمال البيت ويكون أرحم عليها فيما يكلفها به وهي تستطيع أن تخدعه وتكذب عليه بسهولة ..

وأصبحت ناهد تعاني حتى من عزيزة ..

وقد أصبحت ناهد مقتنعة بأنها يجب أن تغير من نظام أيامها التي

تعودتها .. إن الأيام مع زوج يعمل لا تصلح لتقضيها مع زوج على المعاش .. زوج عاطل .. وقد بدأت تفكر فى إقامة الدعوات للأصدقاء .. وفى قبول الدعوات .. إذا كان زوجها لا يريد أن يخرج من البيت وحده فلتخرجه معها .. ومجتمع الدعوات والجلوس بين الأصدقاء قد يعيد إليه رغبته فى العمل ويدفعه إلى البحث عن مجال يعمل فيه .. خصوصا وأن بين الأصدقاء من كان يعمل معه ومن المتخصصين فى صناعة الغزل ..

وكان زوجها مراد يقاوم مقاومة عنيفة أى فكرة لدعوة أصدقاء أو قبول دعوة .. لم يعد يطيق أن يستقبل أى أحد فى البيت أو يخرج من البيت .. أصبح كأنه يعيش وهو حى فى مقبرة جميلة لا ينقصه فيها شيء .. ولكنها كانت تستطيع أن تتحايل عليه وتلح إلى أن يقبل توجيه أو قبول دعوة .. وكانت توجه إليه الأسئلة عن العمل الذى قرر أن يقوم به بعد أن أحيل على المعاش .. وكيف يقضى أيامه ويملأ فراغه .. وكان يكذب .. كان يقول إنه يعد دراسة واسعة عن صناعة الغزل سينشرها فى كتاب .. وأحيانا يقول إنه يكتب مذكراته .. وأحيانا يقول إن شركات الغزل قد عرضت عليه العمل معها ولا يزال يختار بينها .. وكل ذلك كذب .. إنه يقضى كل أيامه وهو يقلب صفحات الصحف والمجلات ويشاهد ما على شاشة التليفزيون ..

ويئست ناهد ..

إن زوجها لن يعود إلى العمل أبدا ..

إنه مفرط فى الكسل وليس هناك أى دافع يقاوم به كسله .. وهو فى حالة اكتفاء تام .. ولا يطمع حتى فى الكسب وزيادة دخله .. وما لديه

يكفيه فقيمة معاشه لا تقل عن قيمة المرتب الذى كان يتقاضاه إلا عشرة جنيهات .. وقد جمع مبلغا كبيرا بفضل إرادة زوجته وقدرتها على التوفير .. وهو مبلغ يضعه فى البنوك ويدر عليه أرباحا .. علاوة على العشرين فدانا التى ورثها عن أبيه ضمن الأرض الواسعة التى يديرها أخوه الأكبر .. ثم إنه سعيد مع زوجته .. وسعيد بابنه وابنته .. وسعيد ببيته .. وسعيد حتى بعزيزة الشغالة .. فلماذا يترك كل هذه السعادة ويتعب نفسه فى البحث عن عمل .. ثم إنه تعود العمل فى مؤسسات عامة تملكها الدولة .. تعود على أن يتعامل مع الدولة .. ولا يريد أن يجازف ويتعامل مع أصحاب أعمال خاصة .. قد يفقد هيبته .. هيبة الدولة ويمرمط شخصيته بين أصحاب رؤوس الأموال ..

ولم تعد ناهد تطيق أيامها مع زوجها الملقى أمامها كأنه جثة حية ..

ولم تعد تطيق اليأس ..

ودون أن تحس وجدت نفسها تتركه .. وتترك ابنها وابنتها .. وتترك البيت .. وتهرب دون أن تفاتح أحدهما بما قررته .. بل إنها هى نفسها لم تكن تعلم ماذا قررت .. وأخذت تجوب الشوارع طوال النهار إلى أن وجدت نفسها تذهب إلى بيت أختها الكبرى وتعلنها أنها ستقيم عندها ..

واتصلت أختها بزوجها مراد بالتليفون وصاح مراد :

ــ لقد كدت أجن وأنا فى انتظارها .. إذا لم تعد إلى البيت خلال ساعة واحدة فسآتى أنا إليها ..

وقالت أختها فى هدوء :

— أفضل أن تتركها عندى حتى تهدأ وتسترد أعصابها ..

واطمأن ..

وتركها مراد إلى أن تعود ..

وناهد تتعذب .. إنه لم يمض على إحالة زوجها إلى المعاش سوى تسعة شهور ورغم ذلك لم تتحمله فكيف تتحمله بقية عمرها .. ولكنها لا تستطيع أن تعيش بعيدا عن ابنها وابنتها .. وهى فى كل صباح وكل مساء تطلب من أختها أن تطلبهما فى التليفون لتحدثهما وتحادث عزيزة لتعطى إليها تعليمات بخصوصهما .. لم تكن هى التى تدير رقم التليفون حتى لا تواجه بصوت زوجها مراد .. ولكن رغم كل شىء فهى تحب مراد .. لا تستطيع أن تهرب من ثلاثين عاما من عمرها عاشتها فى حبه .. ثم ما ذنبه .. إن هذه هى طبيعته .. كما كان يتحمل الإفراط فى العمل فهو يتحمل الآن الإفراط فى الكسل .. إنه لا يتعمد شيئا ولكنها طبيعته .

ولم تبق فى بيت أختها سوى ليلتين وفى الصباح التالى وجدت نفسها تعود إلى البيت .. وقد عادت فى الساعة السادسة والنصف صباحا حتى تطمئن على الولد والبنت وتعدهما للذهاب إلى المدرسة .. وفوجئت بأن وجدت زوجها مراد متيقظا وأنه واقف مع عزيزة يشرف عليها فى إعداد الإفطار .. وفرح بعودتها فرحة كبيرة ولكنه ما كاد يقبلها مرحبا حتى تركها ودخل حجرة النوم وألقى بنفسه على الفراش .. وهى مذهولة بالدهشة بعد أن وجدت مراد متيقظا ويتولى إعداد الإفطار للولد والبنت .. وبدأت تقتنع بأن مراد ليس من طبيعته الاستسلام للكسل إلى حد أن يهمل الاطمئنان على مسيرة شئون البيت .. وقد كان يعتمد

عليها اعتمادا كاملا ويلقى نفسه بين الصحف والمجلات وأمام شاشة التليفزيون .. ولكن عندما غابت عنه وعن البيت نفض عن نفسه الكسل وبدأ يشرف على شئون البيت بمنتهى النشاط .. بل عرفت أنه خرج أمس إلى السوق واشترى اللحم والخضار واشترى أيضا بطيختين .. واكتشفت أنه ليس جاهلا بأسرار السوق .. إن ما اشتراه يتوفر فيه جودة الصنف والأسعار المعقولة .. لم يستطع أحد فى السوق أن يغشه أو يخدعه ..

وبدأ تفكيرها يتجه اتجاها جديدا ..

إنها لن تستطيع أن تقنع زوجها بأن يعود إلى العمل فى المجال العام وفى تخصصه بصناعة الغزل .. ولكنه على استعداد لأن يعمل داخل البيت فى إدارة شئونه والإشراف على ما تحتاجه العائلة ..

وهى نفسها تحس بأنها تستطيع أن تعمل خارج البيت .. بل إنها طوال عمرها كانت تمر عليها فترات تتخيل نفسها وهى تعمل فى إحدى الشركات الكبيرة المتخصصة فى مد الأسواق بالملابس النسائية وملابس الأطفال .. أو تشارك إحدى صديقاتها الكثيرات اللاتى افتتحت كل منهن « بوتيك » لبيع لوازم النساء المستوردة وحققن أرباحا طائلة .. ولكنها لم تقدم على أى عمل وظلت طوال عمرها متفرغة للبيت لأنها كانت تتصور أن البيت لا يستطيع أن يستغنى عنها ولو ساعات من يومها ..

والآن يمكن أن يتغير الوضع العائلى .. لقد كان وضعا قائما على أن يعمل زوجها خارج البيت وتعمل هى داخل البيت .. وستقلب هى هذا الوضع .. ستعمل هى خارج البيت ويتحمل زوجها العمل على إدارة

البيت وتدبير شئون العائلة ..

ولم تناقش زوجها فى هذه الأفكار التى بدأت تتحكم فيها إلا بعد أن استطاعت أن تتفق على أن تعمل فى شركة « المرأة السعيدة » التى تدير عدة مصانع لإنتاج الأقمشة والملبوسات النسائية ولها عدة محلات منتشرة فى القاهرة وفى كل عواصم مصر تبيع إنتاجها .. وقد رحب رؤساء هذه الشركة بأن تعمل ناهد لديهم .. إنها سعيدة يحترمها كل المجتمع ومعروفة بشطارتها وذكائها وجديتها ..

وفاجأت مراد قائلة :

— اتفقت على أن أعمل فى شركة « المرأة السعيدة » .. بمرتب مائتى جنيه فى الشهر ..

ورد عليها فى دهشة :

— إننا لسنا فى حاجة إلى هذا المرتب .. ولمن تتركين البيت ؟.

وقالت وهى تبتسم له الابتسامة التى تعلم أنه يحبها ويضعف أمامها :

— لقد تعودنا على أن يعمل أحدنا فى الخارج ويعمل الآخر فى الداخل .. وبما أنك أصبحت تقيم فى البيت فلأعمل أنا خارج البيت ..

وصاح من خلال دهشته :

— لماذا ؟

وقالت من خلال ابتسامتها :

— كى لا يخسر أحدنا متعة انتظار الآخر حتى يعود إليه .. متعة الشوق ..

وربما كانت ساعتها على استعداد لأن تعدل عن كل أفكارها ومشروعاتها لو أن مراد صمم على أن تبقى متفرغة للبيت ويعدها بأن

يخرج هو للعمل .. ولكن مراد لم يصمم ولم يعد وقال ساخرا :

— لنجرب حياة جديدة ..

وخرجت للعمل ..

ولم تكن تتعمد قبل أن تخرج أن تلقى على مراد تعليمات بخصوص إدارة البيت واحتياجات العائلة .. لم تكن تريد أن تشعره بأنه قد أصبح الزوجة وهى الزوج .. ولكنها كانت تلقى مطالبها الخاصة بالبيت فى كلمات عابرة لا تحمل لهجة الأمر كما تعود الأزواج وهم يفرضون على الزوجات مطالبهم ..

وكان أول ما عاودها منذ أن بدأت تعمل خارج البيت هى متعة الشوق .. الشوق إلى الأولاد .. والشوق إلى البيت .. والشوق إلى مراد .. الشوق إلى أن تعود إليه بعد أن كانت تعيش فى شوق أن يعود إليها .. وكان العمل يفرض عليها كل يوم غيبة طويلة .. كانت تخرج مع شهاب ولوتس فى الصباح ولا تعود إلا فى الساعة الرابعة بعد الظهر وأحيانا الخامسة .. بل كانت أحيانا تضطر إلى الخروج فى المساء لتعود للإشراف على العمل ..

المهم أن مراد تغير كثيرا ..

تغير وهو سعيد .. بل يبدو أنه أكثر سعادة ..

إنه يشرف بنفسه على إعداد البيت بعد أن تخرج ناهد .. وينزل إلى السوق ليشترى كل ما تحتاجه العائلة ..

بل أصبح يدخل المطبخ ومعه عزيزة .. لقد كان يدخل المطبخ أحيانا وهو معها .. وكان يتفاخر بأنه أمهر من يعد طبق البيض الأوملت .. ولكنها لم تعرف عنه أن هوايته للمطبخ تصل إلى حد إجادة

طهو كل هذه الأصناف .. وأكثر من ذلك .. لقد بدأ بنفسه يتحمل مسئولية الإشراف على شهاب ولوتس فى مذاكرة دروسهما .. لقد قال لهما إن أمهما أصبحت مشغولة وهو وحده الذى يتحمل مسئوليتهما ..

وطبعا لم تستطع أن تستسلم كل الاستسلام لمسئولية زوجها على البيت . من المستحيل أن يصل إلى مستواها كست بيت .. وكانت بعد أن تعود إلى البيت فى كل يوم تصحح بعض ما قام به .. أو تتعمد أن تفعل شيئا لم يفعله .. وكانت لا تستطيع أن تهجر المطبخ هجرة كاملة .. كانت تدخل وتتعمد أن تطهو بنفسها صنفا تعلم أن زوجها يستحيل عليه أن يطهوه .. إنه صنف يحتاج إلى عبقرية المطبخ .. وهى حريصة على أن تبرز عبقريتها أمام ابنها وابنتها وتتحدى بها زوجها .. بل إنها كانت لا تعود إلى البيت إلا بعد أن تمر على السوق حتى بعد أن تعودت على أن يشترى زوجها كل شىء .. وتتعمد أن تشترى ما تتصور أنه لم يخطر على بال زوجها شراءه .. فقط لتقنعه بأنه لن يصل أبدا إلى مستواها كست بيت .. لن يستطيع الرجل أن يستغنى أبدا عن المرأة فى البيت ..

وكل ما فى الحياة أصبح يحيطها بمنتهى السعادة ..

ولكن ..

إنها تخدع نفسها عندما تتصور سعادتها بالعمل خارج البيت وترك زوجها يعمل داخل البيت .. إنها تعيش مشدودة إلى البيت رغم كل ما يشغلها به العمل فى الشركة .. لا تمر بها دقائق متفرغة من العمل حتى تجد عقلها يشت إلى تصور ما يجرى فى البيت .. بل إنها بدأت تحس كأنها مغتاظة من زوجها مراد لأنه أخذ منها مسئولية البيت ..

ثم بدأت تطرأ على بالها فكرة أخرى ..

لماذا لا تحيل نفسها على المعاش وتترك العمل فى الشركة وتعود وتستقر فى بيتها بجانب زوجها ..

سيكون الاثنان — هى وزوجها — فى حالة واحدة .. كلاهما محال على المعاش .. وكلاهما اختار التفرغ لحياة البيت بلا عمل بعيدا عن البيت ..

ولكنها لا تزال فى الخمسين من عمرها .. ولم ينقض على عملها فى شركة « المرأة السعيدة » سوى عام واحد .. أى ليس من حقها أن تحيل نفسها على المعاش .. وليس هناك قانون يفرض عليها الإحالة على المعاش كما فرض على زوجها .. حتى يكون الاثنان فى حالة واحدة ..

وهى لا تزال تفكر ..

ويشتد ضعفها يوما بعد يوم ..

إن متاعب البيت ومتاعب الزوج أرحم من متاعب البعد عن البيت وعن الزوج ..

إنى سعيدة .. فقد أكلوا لحمى ..

كانت مغرورة بذكائها أكثر من غرورها بأنوثتها .. وقد استطاع هذا الذكاء أن يجعل عمرها كله كأنه صفقة مربحة .. وكانت قد حصلت على الشهادة الثانوية والتحقت بالعمل فى مكاتب مصانع الغزل والنسيج التى يملكها الثرى ورجل الأعمال الكبير بلتاجى جمعة .. واستطاعت بذكائها أن تستغل بهرة وحرارة أنوثتها فانتقلت خلال عام واحد للعمل كسكرتيرة للسيد بلتاجى جمعة نفسه .. كانت إحدى السكرتيرات ولكنه خصص لها مكتبا وحدها .. وكانت كل مهمتها كسكرتيرة قاصرة على أن تدخل على السيد بلتاجى عندما يدق لها الجرس أو ترد عليه عندما يدق لها التليفون .. وبعد عام واحد تزوجها السيد بلتاجى مع احتفاظه بزوجته الأولى ..

وقد انقطعت عن العمل كسكرتيرة والتردد على المصنع منذ تزوجت وتفرغت لزوجها فى الشقة الرائعة التى خصصها لتكون بيت الزوجية فى أرقى أحياء القاهرة .. والسيد بلتاجى رجل منظم إلى آخر درجات التنظيم فى حياته الخاصة كما هو منظم فى عمله .. وقد خصص لها ثلاث ليالى زوجية فى الأسبوع .. ليلة السبت .. وليلة الاثنين .. وليلة الأربعاء .. وكانت متأكدة أنها فى كل ليلة تزيده ارتباطا بها .. دون أن تحاول أن تزيد من عدد هذه الليالى لتأخذه أكثر من زوجته الأولى .. إن ثلاث ليال تكفيها وتريحها الليالى الباقية من الجهد الذى تبذله فيها .. ولم يكن جهدها محصورا فى استغلال أنوثتها .. بل

كان يعتمد أكثر على ذكائها .. وكان أهم ما يشغل ذكاءها هو فهم تفاصيل عمل زوجها .. وعلى أسرار مصانع الغزل والنسيج .. كانت كأنها تريد أن تطمئن على نفسها إذا ما تركها زوجها فجأة .. أو يتوفاه الله وخصوصا أن فارق السن بينهما كبير .. تريد أن تطمئن على الاحتفاظ بنصيبها فى أملاكه الواسعة ودخله الكبير .. وحتى قبل أن يموت فهى تريد أن يكون نصيبها على الأقل فى مستوى نصيب زوجته الأولى وأولاده منها ويوفر لها نفس مستوى الرخاء .. وكانت تستطيع وهو معها أن تشده إلى الكلام عن أعماله .. ووصل تمتعه بالحديث إليها إلى حد أنه كان أحيانا يستشيرها فى بعض مشاكل العمل العابرة .. وأحيانا كان يرسل إليها الرسومات المعدة لتقول رأيها فيها وفى اختيار ألوانها قبل أن يحولها إلى أقمشة .. أصبحت كأنها مستشارته الخاصة بجانب أنها زوجته .. وكل رؤساء العمل فى المصنع أحسوا بنفوذها عليه وبدأوا يحسبون حسابها .. وهى لم تحاول أن تجاهر بهذا النفوذ حتى لا تعرض نفسها لخلافات ومناقشات سافرة ، ولكنها عملت على اكتساب صداقة بعض العمال وبعض الرؤساء .. صداقة عائلية بريئة .. كانت تستطيع من خلالها أن تكتشف تفاصيل أكثر من تفاصيل العمل لم تستطع أن تصل إليها من أحاديث زوجها ..

وقد أنجبت من زوجها ابنتها ليلى .. وبعد عامين أو ثلاثة تأكدت أنها لن تنجب منه أكثر .. وهى المسئولة .. فقد تعرضت فى وضع ابنتها لما يحرمها من الاستمرار فى الإنجاب .. وعلى كل حال فإن زوجها هو الآخر قد وصل من السن ما يخبو معه اهتمامه بالإنجاب ..

ومنذ وضعت ليلى وهى تحيطها بذكائها بجانب أمومتها .. إنها

يجب أن تعدها لتتحمل مسئولية مصانع أبيها وثروته بعد أن يموت وبعد أن تموت هى الأخرى .. حتى تستطيع ليلى أن تحتفظ دائما بنصيبها وتحمى نفسها فى مواجهة ولديه الآخرين من زوجته الأولى .. ولو أنهما أخواها غير الشقيقين إلا أن التباعد بين البيتين يصل إلى حد التباعد الكامل .. حتى إنها لم تلتق أبدا بهذه الزوجة الأولى وابنتها ليلى لم تلتق أبدا بأخويها .. وإن كانت تعلم أن لها أخوين وهما يعلمان أن لهما أختا ..

ومنذ بدأت ليلى تكبر وأمل أمها فيها يخيب يوما بعد يوم .. لقد أخذت عنها أنوثتها وإن كانت تشوبها بعض خطوط جافة ورثتها عن أبيها .. ولكنها لم تأخذ شيئا أبدا من ذكائها .. ولا بارقة طفيفة من هذا الذكاء .. وربما كان غباء ابنتها هو الذى جعل منها فتاة مستسلمة استسلاما كاملا لكل ما تطلبه منها .. ولكن ابنتها مهما استسلمت فهى لا تستطيع أن تصب الذكاء فى رأسها .. بل لا تستطيع حتى أن تثير فيها الإحساس بالطموح لتكون فتاة قادرة على تحقيق مصالحها .. إنها لا تستطيع حتى أن تثير فيها الرغبة فى العلم .. وكانت دائما تلميذة خائبة .. وعجزت عن أن تثير فيها الإصرار على النجاح فى المدارس بعد أن نقلتها من المدارس الفرنسية إلى المدارس الإنجليزية ثم إلى المدارس العربية .. حتى وصلت إلى السادسة عشرة من عمرها دون أن تحصل على شهادة لها وزن وإن كانت قد وصلت إلى القراءة والكتابة والتلعثم ببعض الكلمات الفرنسية والكلمات الإنجليزية ..

إن كل ما تحس به هذه الفتاة .. ابنتها ليلى .. هو أنها أنثى .. وكل ما تسعى إليه هو التمتع بأنوثتها .. حتى لو خرجت عن استسلامها لأمها ..

واختارت ليلى بعد أن تعدت السادسة عشرة ابن الجيران .. مصطفى .. وبدأت تحادثه فى التليفون .. ثم بدأت تلقاه .. وأمها تعرف .. ولكنها لا تعتبر أن ابنتها وقعت فى حب مصطفى .. إن ذكاءها لا يعترف بالحب إطلاقا .. فالحب وحده لا يكفى لبناء المستقبل .. وتركت ابنتها مع مصطفى على أنها فقط تلهو بأنوثتها .. ولكن مصطفى تخرج فى الجامعة وتقدم يطلب الزواج .. وصرخت الأم .. لا .. مستحيل .. إنه شاب يسعى للالتحاق بوزارة الخارجية ليبدأ حياته موظفا فى إحدى السفارات .. إنه مستقبل لا يصلح لابنتها .. إنها تريد لها شابا يعد نفسه للأعمال الحرة ويستطيع أن يقف بجانبها فى حماية حقوقها التى سترثها عن أبيها .. إذا كانت ليلى لا تستطيع فعلى الأقل تتزوج من يستطيع ..

ومصطفى يلح .. وليلى تلح .. أريد أن أتزوجه يا ماما .. إلى أن وافق الأب على هذا الزواج .. إن الأب لا يمكن أن يطرأ على خاطره أن يبحث عمن يحمى ابنته من ولديه الآخرين .. واضطرت الأم أن توافق .. وسافرت ليلى مع زوجها حيث عين موظفا فى إحدى السفارات فى الخارج .. وأحست الأم بعد أن سافرت ابنتها أنها فقدت كل ما قضت حياتها تسعى إليه وتحتفظ به .. فقدت مصانع الغزل والنسيج وفقدت كل ما سيخلفه زوجها بلتاجى من ثراء .. من سيحمى حقوق ابنتها بعد أن يموت ..

وقد مات زوجها فعلا بعد عام واحد من زواج ابنتها .. ووقفت الأم وحدها تدافع عن حقوقها لا فى تقدير الإرث فقط بل وفى إدارة هذا الإرث .. وأن تعرف أين كل مليم تركه زوجها المرحوم .. وتعرف كل

تفاصيل إدارة المصانع .. وولداه رغم تباعدهما عنها .. ورغم الجفاء الذى يجمع بينهما .. لا يتخذان موقفا منها .. ولا يثيران أى مشكلة يمكن أن تؤدى بالعائلة كلها إلى القضاء .. بل إنهما سمحا لها بالاشتراك فى الإدارة وكونا مجلسا للإدارة تكون من بين أعضائه .. ولكن الأم لا تأخذ كل هذا على أنه حكمة منهما وحرصا على سمعة العائلة بل تأخذه على أنه نتيجة قوة ذكائها ..

وهى تشيخ .. إنها تخاف أن تموت هى الأخرى .. ولعلها بعد أن تموت ينفرد الولدان بكل شىء ولا يبقى لابنتها شىء ..

وكانت ابنتها قد جاءت فى إجازة مع زوجها مصطفى فانفردت به الأم بعد أن تعمدت أن تستقبلهما بترحاب كبير .. وقالت له :

ـــ لماذا لا تستقيل وتتفرغ لإدارة المصانع التى لزوجتك نصيب كبير فيها ..

واعتذر مصطفى .. إنه مصمم على أن يبقى فى السلك الدبلوماسى حتى نهاية عمره .. هذا هو استعداده وهوايته .. وطال إلحاح الأم واشتدت المناقشات حتى يئست ..

وبدأت تركز كل ذكائها على السيطرة على ابنتها .. إنها تحاول أن تقنعها بأن مستقبلها ليس مع زوجها ولكنه مستقبل مع هذا الثراء الضخم الذى ورثته عن أبيها .. وسيضيع منها هذا المستقبل إن لم تعش له .. ويجب أن تعيش له حتى لو اضطرت أن تترك زوجها .. الطلاق .. واستسلمت ليلى لإلحاح أمها حتى بدأت المشادات بينها وبين زوجها ثم رفضت أن تعود معه إلى مقر منصبه بعد أن انتهت إجازته .. صارحته

بأنها تريد الطلاق .. ولم يطلقها قبل سفره ولكنه تركها مع أمها لعلها تعود إليه .. إنه يحبها ..

وذكاء الأم ينطلق بها كصاروخ .. إنها حتى تحتفظ بإصرار ابنتها على الطلاق فيجب أن تشغل أنوثتها .. وهى لن تشغل أنوثتها إلا إذا وضعتها فى طريق زواج آخر .. وقد اختارت هى هذا الزوج الآخر .. إنه مهندس شاب يعمل فى مصانع الغزل والنسيج منذ أكثر من عامين .. وكل من فى المصنع يشيدون بعمله .. إنه موهوب إلى حد العبقرية .. وهى قد عرفته شخصيا وكان الوحيد الذى تستريح للمعلومات التى ينقلها إليها والآراء التى ينصحها بها .. المهندس رفعت ..

وبدأت تدعو رفعت إلى البيت وترفع الكلفة بينه وبين ابنتها ليلى كأنه واحد من أفراد العائلة .. وقد عرف أن ليلى طلبت الطلاق من زوجها .. ووجد أنه يستطيع أن يتمنى زواجها .. ثم بدأ يطلب الزواج فعلا .. ولعل ليلى لم تحب رفعت ولكن الجو الذى كانت تحيطها به أمها كان جوا يثير كل أنوثتها .. وكل ما تستجيب له أنوثتها مباح لها ..

إلى أن يئس منها زوجها مصطفى وأرسل لها الطلاق .. وستتزوج رفعت .. ولكن رفعت يطلب التأجيل فترة إلى أن يتم زفاف أخته التى أعلنت خطوبتها .. ولكنه بدأ يتغير .. لعله قدر أن زواجه بليلى سيضعه فى نوع جديد من العلاقات مع أخويها اللذين يديران المصنع الذى يعمل فيه .. وهو يحترم الأخوين بل ويخافهما .. إنهما أقوى مما تقدر الأم .. ولعله قدر أنه لكى يعيش زواجه بليلى فيجب أن يعيش بين أصابع الأم .. وهو من الذكاء بحيث يقدر ذكاء هذه الأم ويخافه ويخشاه .. إنه ذكاء محصور فى الأنانية والملكية الخاصة ..

إلى أن جاء يوم فوجئت فيه الأم ومعها ابنتها باستقالة رفعت من العمل فى مصانع بلتاجى .. وجاء إليها معتذرا بأن الدولة عرضت عليه أن يعمل فى مصانع المحلة متحملا مسئولية رئيسية وبعد إرساله فى بعثة إلى موسكو لدراسة آلات النسيج هناك التى تنوى مصر استيرادها .. وهى بعثة قد تطول إلى أكثر من عام . لذلك فهو يطلب تأجيل الزواج .. ويترك ليلى حرة ..

وجنت الأم .. كأنها طعنت فى ذكائها .. وألحت على رفعت فى استجداء أن يعدل عن قراره .. أن يستسلم لما رسمته له .. وصعقت ابنتها ليلى .. إنها لا تحب رفعت ولكن أنوثتها كانت قد تعودت عليه واستقرت معه .. ووصل إلحاحها عليه إلى حد أن أمضت ليالى فى فراشه .. وأمها تعلم وتتركها تعريه بكل أنوثتها .. ولكن كان رفعت يكرر وهى بين أحضانه .. لا نستطيع أن نقرر شيئا الآن .. لنترك حبنا فى يد القدر ...

إنه يهرب ..

والأم ليست من الضعف حتى تستسلم للقدر أو تترك ابنتها تستسلم له ..

وكان بين مهندسى مصانع بلتاجى شاب آخر .. عباس مختار .. إنه فى منتهى النشاط .. وإن كان نشاطه محيرا .. نشاط يثير دائما ضجة متعبة ولكنه إذا وضع نفسه فى عمل ينجح دائما فيه .. وقد عرفته هو الآخر شخصيا .. كان هو الذى استطاع أن يصل إليها ويكسب رضاءها باعتبارها من ورثة بلتاجى وعضوة فى مجلس الإدارة .. وربما سعى إليها لأن ولدى بلتاجى كانا يتعمدان إبعاده والحد من نشاطه مع

احتفاظهما به .. فأراد أن يستند عليها .. لماذا لا يكون هو من تسعى إليه ليرعى مصالح ابنتها بعد أن تموت .. لماذا لا يكون هو الزوج المطلوب .. الزوج الذى يغنيها عن انتظار ما يخفيه القدر على يد رفعت .. ودعته إلى البيت .. وتركته منذ اليوم الأول يفهم أن ابنتها تبحث عن زوج .. ثم تركته يطلبها .. وليلى لم تفكر أبدا فى الرفض أو القبول .. بل لعلها لم تهتم بأن تعرفه أو حتى تهتم بالتدقيق فى ملامحه .. إنها منكوبة بما حدث لها مع رفعت .. وتريد أن تهرب من نكبتها .. وعباس يملأ دنياها بنشاطه ولا يكف عن إشغالها بنفسه وإضحاكها وتسليتها وشدها بعيدا عن نكبتها .. لماذا لا تتزوجه .. على الأقل حتى تغيظ رفعت وكأنها تقول له إنها تستطيع أن تجد مثله عشرات يتقدمون إليها بإشارة من أصبعها ..

ولم تنتظر الأم مدة كافية حتى يعيش عباس معها كخطيب لابنتها .. وحتى تختبره وتعرفه أكثر .. لقد قررت أن يتم الزواج فى الحال .. وعندما عرف أخوا ليلى وقبل عقد القران ذهبا إلى الأم ينصحانها برفض هذا الشاب .. إنه شاذ .. مجنون .. ورغم كل مظاهر نشاطه إلا أنه لا يوثق به .. ولكن الأم صممت أكثر .. لعلهم لا يريدونه لأنهم يخافونه .. يخافون من قوة وعيه تقف فى وجوههم حماية لحقوق ابنتها وهم يديرون المصنع ..

واستسلم الأخوان حتى إنهما حضرا عقد القران حرصا على المظهر العائلى .. وقد مضت الأسابيع وعباس يبدو كزوج مثالى .. هادئ .. جاد .. حريص على مظهره الجديد كزوج ابنة عضو مجلس الإدارة .. ولكنه بدأ يضيق بهذا المظهر وهذا الهدوء والجدية .. وكأنه عاد إلى

طبيعته .. عاد نشطا هذا النشاط المجنون .. ولم يعد يستجيب لمطالب الأم ولا يراعى خواطر ليلى .. إنه ينطلق حرا .. ولا يفلح إلا فى العمل الذى يختار أن يضع يديه فيه .. ولا أحد يدرى كيف ولا ماذا يختار .. وفى نفس الوقت لم يكن يحاول أن يجعل من نفسه شخصية بجانب شخصية ولدى بلتاجى .. إنه لا يريد أى مسئولية جادة من مسئوليات العمل .. والولدان يعاملانه كما تعودا معاملته .. يتركانه مجنونا دون أن يحاولا التخلص منه ..

وبدأت الأم تفقد أملها فيه .. بل بدأت تحس بأن قيمتها تنهار فى المصانع بنسبة هذا المجنون إليها كزوج لابنتها .. وليلى تنهار يوما بعد يوم مستسلمة لليأس .. إن هذا الزوج لا يحقق لها شيئا .. لا يستطيع أن يملأ حياتها .. ولا تستطيع أن تعيش مكتفية به .. بل إنه حتى لا يستطيع أن يرضى أنوثتها ..

واتخذت الأم قرارها .. يجب أن يتم الطلاق .. وفرحت ليلى .. إنها فعلا تريد الطلاق دون حاجة إلى إلحاح أمها كما كانت تلح عليها لتطلق زوجها الأول مصطفى ..

وأصبحت ليلى وحيدة ..

وعادت الأم منطلقة وراء ذكائها تبحث عن طريق آخر يضمن لابنتها حقوقها ويصون شخصيتها كوريثة بلتاجى بعد أن تموت هى .. وكانت تحاول أحيانا تعليم ابنتها أسرار العمل فى المصانع .. بدأت تحدثها كثيرا عن تفاصيل إدارة المصانع وإدارة أملاك أبيها . بل إنها صحبتها أكثر من مرة إلى المصانع وفرضت حضورها معها فى اجتماعات مجلس الإدارة .. لعلها تتعلم وتفهم وتستطيع الاعتماد على نفسها .. ولكن ليلى لا تستطيع

أن تفهم .. بل لا تستطيع أن تهتم بما تلقنه لها أمها .. وعندما تذهب معها إلى المصنع تتعلق عيناها بوجوه الشبان من المهندسين وكبار الموظفين كأنها تختار واحدا منهم ..

ولكن ليلى كانت تمر بها ليالى تقضيها مع دموعها وهى تستعرض كل حياتها .. إنها لم تمر بها أيام سعيدة هادئة مستقرة أحست فيها بأهميتها واستكمال كل شخصيتها .. أيام بعيدة عن هذا الضجيج الذى يضج فى خيالها .. ضجيج آلات مصنع الغزل والنسيج .. وضجيج رنات الذهب الذى تركه أبوها .. لم تمر بها أيام سعيدة إلا أيام زواجها من مصطفى .. لقد كانت تعيش اليوم كله ويعيشه لها .. وكانت تمرح فى العاصمة كلها التى يعمل فيها وفى المساء تبدو ملكة صغيرة بين سيدات السلك السياسى .. لقد كانت تحبه .. ولكنه كان حبا سهلا بين يديها حتى لم تكن تحس بأن هذا هو الحب .. ولكن أين مصطفى الآن .. لقد أصبحت فى عالم غير عالمه .. وهى تندم اليوم لأنها لم تنجب منه .. لقد كانت واثقة من أنه سيبقى لها العمر كله حتى أجلت أمومتها لتتمتع معه بمزيد من شبابها .. ربما لو كانت قد أنجبت منه لكان ابنهما الآن بجانبها يخفف من وحدتها ونكبتها .. ولكن أين الآن مصطفى على الأقل لتنجب منه وليدا يتركه لها ..

وهى من خلال كل دموعها لا تحس بأنها تلوم أمها .. هى التى طلقتها من مصطفى .. وقذفت بها إلى رفعت .. وزوجتها من عباس .. ولكنها لا تحس كأنها تلومها .. إن استسلامها لا يتيح لها الإحساس بها إلا كأم .. ولا يمكن أن يصل بها إلى حد لومها ..

ومضت شهور والأم وابنتها تائهتان .. لا ينقصهما شيء .. ولكنهما تائهتان وسط عواصف الذكاء التي تنطلق من عقل الأم ..

إلى أن وقع الحدث الأكبر ..

لقد أممت مصانع بلتاجي وصودرت كل ثروته ..

وجنت الأم .. وهمت أن تطوف بصرخاتها .. ولكنها خافت أن يقبض عليها وتعتقل كما اعتقل ولدا بلتاجي .. واختبأت هي وابنتها في شقتها التي صودرت أيضا وإن كانوا قد تركوا لها حق الإقامة فيها هي وابنتها .. وقد صرفوا لها إعانة حكومية قيمتها سبعون جنيها في الشهر لتعيش بعد أن صودر كل ما تملكه .. ولكن كان ذكاؤها كأنه يتنبأ بالغيب فكانت دائما تحتفظ بأموال لا يدرى أحد مكانها حتى الحكومة .. ولم تكن تسحب من هذه الأموال إلا قروشا فقط لتستكمل الضروري من مطالب الحياة حتى لا يظهر عليها أي مظهر يدل على أنها تخفي شيئا عن الحكومة .. عن الثورة ..

ومضى شهران وهما يعيشان في الشقة كأنهما يعيشان في قبر .. ولا يجدان حتى من يزورهما في القبر ليترحم عليهما ..

ودق جرس الباب ذات يوم ..

إنه مصطفى ..

جاء من عمله في إجازة ويمر عليهما ليطمئن .. ربما دفعه حافز الاطمئنان على ليلى وحدها .. إنه رغم كل ما حدث لا يزال يحبها .. أو على الأقل لا يزال يذكر أنه كان يحبها ..

وصرخت فيه الأم .. إنه الآن قد أصبح في مركز السلك السياسي ولا شك أنه على صلة بكل الشخصيات المهمة في البلد .. إنه يستطيع

أن ينقذها .. يستطيع أن يرد لهما على الأقل بعض ما كان لهما ..

ولكن مصطفى يعتذر .. إنه لا يستطيع شيئا .. وكلماته تقطر لوعة وشفقة عليهما ..

وليلى استسلمت لدموعها وهي ترى مصطفى أمامها .. لا تجد ما تقوله .. بل لا تستطيع أن تنطق بكلمة .. ومصطفى يربت عليها صامتا هو الآخر .. لا يدرى ما يقوله .. ولكنه لا يستطيع أن يتركها .. وبعد أن تركها عاد إليها .. عاد كأنه عاد إلى حبه .. إنه لم يكن يعرف مما حدث لها بعده إلا أنها تزوجت وفشل زواجها .. وهو يقدر أنها لا شك تزوجت استسلاما للأم .. ولكنها لم تستطع أبدا أن تجد رجلا آخر غيره .. إنه يشعر بأنها مظلومة .. بأنها ضحية أمها .. ولم يعد هناك الآن ما يدفع الأم إلى حرمانها منه .. لم تعد هناك مصانع تريد لابنتها زوجا يديرها ويحفظ حقوقها فيها .. إنهما في حاجة لمن يحمي مجرد وجودهما على قيد الحياة في هذا المجتمع ..

وقال للأم إنه يريد أن يعيد ليلى زوجة له .. وهو يستطيع أن يصحبها لتقيم معه ومع ابنتها في الخارج .. وسكتت الأم وهي راقدة على فراش المرض وقد ازدادت شيخوخة حتى كأنها تلفظ نهايتها .. لم ترفض .. ولم يهن عليها أن تتنازل عن كبريائها وتوافق .. إنها إذا وافقت على هذا الزواج فكأنها وافقت على ضياع كل ما جمعه ذكاؤها خلال العمر كله ..

ومصطفى متعجل قبل أن تنتهي إجازته ويعود إلى عمله في الخارج .. وتم الزواج فعلا .. وخرجت ليلى من كل نكبتها ومن كل ضياعها ومن كل نكباتها .. لم تعد تحس بأنهم أخذوا منها أو من أمها

شيئا .. لقد عادت إليها الدنيا كلها بعد أن عادت إلى مصطفى .. إلى حبها .. أصبح كل ما تريده الآن هو أن تنجب فورا .. حالا .. حتى يعطيها ولدا يحميها من وحدتها .. إنها لا تزال تخشى الماضى .. تخشى الوحدة .. والضياع .. بعيدا عن مصطفى ..

وقالت تسأل مصطفى ورأسها راقد على صدره :

ـ لا أدرى لماذا أخذوا منا كل شىء ..؟

وقال مصطفى فى بساطته الحلوة :

ـ إنها الاشتراكية ..

وقالت ليلى ضاحكة :

ـ إنى أحب الاشتراكية .. فهى تعطى نظير ما تأخذه .. لقد أعطتنى الاشتراكية حبى .. أعطتنى أنت ..

وكانت ليلى بسذاجتها تحس فعلا أن ما يسميه زوجها بالاشتراكية هو ما أعاده إليها .. لقد كانت المصانع التى ورثتها هى وأمها هى التى مزقت حياتها .. والاشتراكية هى التى أعادت إليها الحياة ..

ووقفت أمام أمها الراقدة الفراش تصيح ضاحكة :

ـ لقد أصبحت اشتراكية ياماما ..

وصاحت الأم وهى تزفر أنفاسها :

ـ إنك كما أنت .. غبية .. حمارة .. حتى لو مزقوك وأخذوا لحمك فلن تشعرى بأنه كان لك لحم ..

وأغمضت الأم عينيها الغمضة الأخيرة ..

مهندس ميكانيكى

لم يكن محروس فى طفولته وصباه يتعمد أن يتعلم أى شىء .. كان مجرد واحد من إخوته الثلاثة أبناء الباشاويش مجاهد .. عسكرى بوليس بثلاثة أشرطة وأحد أفراد قوة حرس الوزارات .. وكان يعيش كل دنياه وكل عقليته داخل حارة الشيخ بركه بحى إمبابة .. ولكنه منذ بدأ يعى وهو يتميز عن إخوته بأنه يمد أصابعه إلى كل شىء أمامه ويحاول أن يلعب به .. ولكنه كان نوعا غريبا من اللعب .. إنه يفتح كل غطاء يصادفه .. ويفك كل مسمار تصل إليه أصابعه .. ويشد كل خيط أمامه .. كان كأنه لا يريد أن يلعب فى الحارة مع بقية الصبية ولكنه يقضى كل فراغه فى اللعب بكل ما فى البيت .. ورغم الضرب العنيف الذى كان ينهال عليه به أبوه أو أمه كلما أفسد شيئا كان لا يلبث أن يعود ويمد أصابعه إلى كل شىء ..

ولم يحاول أحد فى البداية أن يفسر سر اختيار محروس لهذا النوع من اللعب .. ربما كان شاذا أو مجنونا .. وليس أمام الوالدين إلا الاستسلام لما كتبه الله عليهما فى أبنائهما .. ولم يكتشف أحد أن سر تمادى محروس فى مد أصابعه إلى كل شىء هو أن فى طبيعته حافز يسيطر عليه ويدفعه إلى معرفة أسرار كل شىء .. وقد وقعت بين أصابعه مرة الساعة الوحيدة التى يملكها أبوه ويعتز بها ويتفاخر بها .. فإذا به يتحايل بأصابعه حتى يستطيع أن يفتح غطاءها ثم يبدأ فى فك التروس والمسامير من داخلها .. يريد أن يعرف كيف تدور هذه الساعة ،

ولماذا يعتز بها أبوه كل هذا الاعتزاز .. إلى أن خاف بأن يعود إليه أبوه ويضبطه يلعب بساعته .. وحاول أن يعيد كل شيء فى الساعة إلى ما كان عليه فلم يستطع .. وضبطه أبوه .. وانهال عليه ضربا حتى كاد يهشم رأسه وهو يهدد أن يطرده من البيت ويرسله إلى القرية ليعيش فيها .. وحمل أبوه الساعة إلى محل الساعاتى ليعيدها إلى حالتها .. وبعد أيام كان محروس قد نسى آثار « العلقة » التى نالته وكان يعرف محل الساعاتى الذى يتعامل معه أبوه على ناصية الحارة فذهب إليه ، وقال فى براءة :

— أبى يسأل عن ساعته ..

وقال الساعاتى مبتسما مرحبا :

— ذكرتنى .. كنت قد نسيتها رغم معزة أبيك ..

ثم التقط الساعاتى حطام الساعة وأخذ يعيد منها كل شيء إلى مكانه ومحروس بجانبه يطل عليه بعينين مبهورتين .. يريد أن يعرف كيف تعود الحياة إلى هذه الساعة .. وربما لم يعرف كل شيء ولكنه على الأقل عرف بعض الأسرار التى تدور بها الساعة ..

وأكثر من ذلك .. لقد اختلى مرة بالمسدس الميرى الضخم الذى يحمله أبوه كأحد رجال حرس الوزارات .. المسدس الذى يحمى به كل وزير يقوم على حراسته .. وأيضا أخذ يقلب هذا المسدس بين يديه وهو يسائل نفسه فى إلحاح .. كيف تعمل هذه الآلة الثقيلة .. إنه يعلم أنها تقتل ولكن ماذا فيها حتى تقتل .. وقد حدث وهو يقلب المسدس بين يديه ويحشر أصابعه فى كل ما يستطيع أن يصل إليه منه .. حدث أن انطلقت منه رصاصة .. والحمد لله .. لقد أصابت الرصاصة حائط

الغرفة ولم تصبه .. وهجم عليه أبوه وكل من فى البيت ونزع المسدس من يده ثم انهالوا عليه جميعا ضربا .. وصمم أبوه على أن يطرده من البيت ليقيم مع خالته .. والأب يكاد يجن .. كيف يخفى الخبر عن الحكومة التى تحاسبه على كل رصاصة تنطلق من المسدس وكيف يحصل على رصاصة أخرى يضعها مكان الرصاصة التى أطلقها محروس .. ولم يمض أسبوع حتى كان الأب قد هدأ وربما قد استطاع أن يحل مشكلة الرصاصة الناقصة .. وعاد محروس إلى البيت ..

وربما كان أول ما برز فى شخصية محروس هو اهتمامه بحنفيات المياه .. كيف تصل المياه إلى الحنفية .. وما هو سر هذه الحنفية التى تدر عليهم المياه .. وأقدم وهو لا يزال فى صباه وانتهز فرصة خلوه فى البيت بعيدا عن أفراد العائلة ومد أصابعه إلى الحنفية .. واستطاع أن يفكها من مكانها وانطلقت المياه تغرق الحمام ولكنه كان من الذكاء بحيث استطاع أن يعود بالحنفية إلى مكانها ويوقف انهيار المياه .. بل إنه كلف نفسه بتجفيف الحمام حتى لا يعرف أحد من أفراد العائلة ما حدث ويوفر على نفسه العلقة التى تنتظره .. ولكنه فى مرة ثانية عندما مد أصابعه إلى الحنفية لم يستطع أن يعيدها إلى مكانها ويوقف انهيار المياه حتى أغرقت البيت كله .. ونال العلقة الساخنة إلى أن استدعت العائلة سباكا ليعيد إصلاح الحنفية .. ورغم أنه كان لا يزال يعانى من آثار العلقة إلا أنه تسلل ووقف بجانب السباك .. الأسطى عوض .. وقد كان رجلا عجوزا طيبا لاحظ اهتمام محروس بتتبع ما يعمله فأخذ يشرح له كل شيء كأنه يعلمه .. وقد أحب محروس الأسطى عوض وأصبح يتردد عليه فى دكانه ويجلس بجانبه يراقب يديه وهى تعمل .. وأحب

الأسطى عوض محروس ويفرح بتردده عليه ويكلفه بأعمال الصبية الصغار .. بل إنه كان عندما تسنح الفرصة يصحب محروس معه عندما يستدعى لإصلاح دورة مياه فى بيت من البيوت .. وتعلم منه محروس الكثير .. ولم يعد يمد أصابعه إلى حنفيات البيت فقد أصبح على علم بكل أسرارها .. فإذا تعطلت حنفية قام هو بإصلاحها دون أن تضطر العائلة إلى استدعاء سباك .. بل أصبح يتولى إصلاح كل ما يخص دورات المياه .. السيفون .. والبلاليع .. والمجارى .. واعترفت به العائلة على أنه ابن شاطر تفخر به .. بل إنه ذاع صيته فى الحى كله كواد شاطر يستطيع أن يصلح كل ما يصيب دورات المياه .. فإذا حدث عطل فى أى بيت جاء أهله يستغيثون به .. ويستجيب لهم فرحا كأنه سيلعب لعبه المفضلة .. وكان أهل هذا البيت يكرمونه بعد أن ينتهى من الإصلاح ويقدمون له حفنة من البلح أو حبات من الفاكهة،وفى مرة قدمت له سيدة البيت ساندويتش من الجبن .. كأنهم يدفعون له ألعابه ..

وكل ذلك لم يؤثر على استمراره فى الدراسة فقد كان أهم ما يحرص عليه أبوه أن يحصل أبناؤه على شهادات دراسية رسمية .. وأخوه الأكبر الآن فى الثانوية العامة .. وهو قد نال الشهادة الإعدادية ووضعه أبوه فى المدرسة الثانوية .. ولكنه رغم أنه ينجح فى المدرسة دائما إلا أنه لا يميل إلى الدراسة .. ويحس فى قرارة نفسه أنه يضيع وقته فيما لا يهمه .. إن كل ما يهمه هو تحريك أصابعه مع عقله .. وكان لا يزال يتردد على الأسطى عوض ويساعده فى أعمال السباكة تطوعا .. بلا أجر .. ولم يغضب الأسطى عوض عندما بدأ يعرف أن محروس يتطوع

أيضا لإصلاح دورات مياه بيوت الحى .. وكأنه يغنيهم عن الحاجة إلى سباك .. أى أنه يتسبب فى قطع بعض رزقه عنه .. ولكن الأسطى عوض لم يغضب .. وربما كان مقتنعا بأن محروس رغم غرامه بأعمال السباكة فهو لن يكون سباكا أبدا .. إنه فى المدرسة ووصل إلى التعليم الثانوى ولا شك أنه طامع فى وظيفة من الوظائف الحكومية المحترمة ..

وكان الأسطى عوض قد صحب محروس معه يوما إلى محل بيع الأدوات الصحية الذى يملكه المعلم إبراهيم عبد المسيح ليشترى منه بعض ما يحتاج إليه فى عمله .. وقدمه عوض إلى صاحب المحل قائلا :

— محروس فى المدارس .. فى الثانوى .. إنما سباك شاطر .. ده تلميذى ..

ونظر إليه المعلم عبد المسيح فى إهمال وبلا ترحيب ..

وقد عرف محروس فيما بعد أن المعلم عبد المسيح ليس فقط صاحب محل الأدوات الصحية بل إن كثيرا من البيوت وخصوصا بيوت الأحياء الراقية تتصل به كلما حدث خلل فى دورات المياه ليذهب لإصلاحها وهو فى الغالب يرسل بدلا عنه واحدا من السمكرية الذين يعملون معه ..

وبدأ محروس يفكر فى العمل مع المعلم عبد المسيح .. إنه يعانى الملل فى دراسته الثانوية .. لا يحس بأنه يستفيد شيئا يريده أو يتطلع إلى مستقبل يتمناه .. ومن الأفضل أن يستغل نفسه فى شىء يريده .. ولكنه قبل أن يتخذ قرارا حدث أن كان أبوه يقوم بمهمة حراسة أحد الوزراء وسمع منه صدفة شكواه من متاعب دورة المياه فى بيته .. فقال أبوه كعادته فى التقرب إلى من يخدمهم :

— هل تسمح لى سيادتك بأن آتى إلى البيت بمن يحل كل المشكلة ..

وقال الوزير :

— ياليت !.

وعاد أبوه يقول :

— إنه ابنى .. وأنا واثق أنه يستطيع أن يصلح أى شىء فى أى دورة مياه ..

وقال الوزير فى دهشة :

— هل هو سباك .. هل يحترف السباكة ..

وقال أبوه فورا كأنه يدافع عن نفسه :

— لا يا بيه إنه الآن فى المدرسة الثانوية .. ولكنه موهوب ونحن والحى كله نعتمد عليه كأن الله أرسله إلينا ليريحنا من متاعب دورات المياه ..

. . وقال الوزير ضاحكا :

— أرسله يحاول إنقاذنا ..

وأخذه أبوه إلى بيت الوزير وهو طوال الطريق يوصيه ويلح عليه بأن يبذل كل ما وهبه الله من ذكاء وجهد .. إن إصلاح دورة مياه الوزير قد تؤدى إلى ترقيته إلى رتبة صول .. ثم تركه ليدخل بيت الوزير وحده .. وقد بذل محروس فعلا منتهى جهده حتى أصلح فعلا دورة مياه الوزير بعد أن تعب أكثر من أربع ساعات .. بل إنه استطاع أن يصلح كل شىء دون حاجة إلى شراء قطع غيار جديدة حتى يأخذ عمولة من المحال التى يشترى منها كما يفعل السباكون المحترفون .. وقد أشاد الوزير بقدراته

مرحا به ثم مد يده وأعطاه جنيها واحدا أتعابا له ..

وأخذ محروس الجنيه الواحد صامتا وخرج إلى أن وصل إلى أبيه الذى ينتظره على باب العمارة وأعطاه الجنيه الذى أخذه .. وصرخ أبوه فيه :

— كيف تأخذ منه .. إننى تبرعت بك لخدمته ..

ثم أخذ الجنيه وصعد به إلى الوزير .. ولا يدرى محروس هل استرد الوزير الجنيه من أبيه أم أعطاه جنيها آخر فقد عاد إليه دون أن يقول له شيئا إلا أن الوزير كان سعيدا بما قام به من إصلاحات ..

وكان هذا هو أول جنيه يصل إليه نظير هوايته لإصلاح دورات المياه ..

وبعدها قرر أن يذهب إلى محل المعلم إبراهيم عبد المسيح .. واستقبله المعلم فى برود وهو يقول له أنه سيجربه .. وسيرسله للقيام بعمليات إصلاح .. والنصف بالنصف .. أى يكون من نصيبه نصف ما سيخرج به من أتعاب والنصف الآخر من حق المحل الذى كان صاحب الفضل فى تشغيله .. وأرسله فى نفس اليوم إلى بيت فى حى راق من أحياء الزمالك ..

وأتم محروس العملية على أكمل وجه .. وناولته ست البيت جنيها واحدا أتعابا له .. ربما كان الجنيه هو السعر الرسمى للسباكين .. فإن الوزير أيضا لم يدفع له أكثر من جنيه .. ولكنه عندما ناول الجنيه للمعلم عبد المسيح ليحاسبه عليه صرخ فى وجهه :

— ما هذا .. هل أنت مجنون .. هل ذهبت لتعمل أم تشحذ ..

وقال محروس فى براءة :

— لقد كانت عملية صغيرة سهلة ..

وعاد عبد المسيح يصرخ فى وجهه :

— لمجرد أن تضع يدك لا تخرج بأقل من ثلاثة جنيهات .. حتى لو ركبت جلدة حنفية ثمنها قرشان صاغ .. وسأسامحك هذه المرة لأنك لا زلت جاهلا .. ولكنك لا تخرج بمليم .. لن يكون لك نصف هذا الجنيه .. لأن عبد المسيح لا يقبل أن يبيع نفسه بخمسين قرشا ..

وتركه يذهب دون أن يحقق الاتفاق بأن يكون لكل منهما نصف الأتعاب .. واحتفظ بالجنيه كله لنفسه .. ورغم ذلك ففى اليوم التالى هرب من المدرسة وذهب إلى محل عبد المسيح .. إنه لم يعد يذهب إلى المدرسة وتفرغ لعمل السمكرة .. واستطاع بسرعة أن يفهم السوق.. إنه يخرج من أصغر عملية يقوم بها بثلاثة جنيهات.. وأحيانا يصل إلى خمسة جنيهات .. بل إنه فى عملية كبيرة وصل إلى عشرة جنيهات .. إن المعلم عبد المسيح يرسله دائما إلى بيوت ناس أغنياء يستطيعون أن يدفعوا .. وكانوا عندما يجادلونه يكتفى بأن يقول كأنه يغطى صغر سنه :

— هذه هى أسعار المعلم عبد المسيح ..

وتعود أن يرفع من قيمة المبلغ الذى يطلبه كأتعاب له حتى إذا طالت المناقشة تنازل عن بعض ما طلبه دون أن يخسر شيئا ..

وقد وصل مكسبه فى شهر واحد إلى ستين جنيها .. أكثر من مرتب أبيه الباشاويش .. ولم يكن يعطى لأمه شيئا مما يكسبه يوما بيوم ولكنه بعد أن جمع مكسب الشهر فاجأها بأن أعطاها خمسين جنيها وهو يقول ضاحكا :

— حذى كل هذا المبلغ .. وإما أن تشترى به كله ما يلزمنا أو تدخرى لى شيئا منه .. أنت حرة ..

وفرحت أمه وهللت وأخذت تدعو له .. وعندما عرف أبوه لم يستطع أن يخفى فرحته .. وأخذ يسأل ابنه عن كل شىء إلى أن قال له :

— والمدرسة يا بنى ..

وقال محروس وهو مزهوا بنفسه :

— ماذا أفعل بالمدرسة .. على كل حال إنى أستطيع أن أحصل على الشهادة وأنا فى البيت ما دمت تريد شهادة ..

ولم يفكر أبدا فى الحصول على شهادة .. وتفرغ كله لعمله .. سمكرى .. وقد عرف بين كل من ذهب إلى بيوتهم بأنه عبقرى فى السمكرة .. وهو يتعمد فعلا أن يبذل كل جهده فى كل عمل .. ويتعمد أن يتعلم وسائل جديدة للإصلاح وأن يكتشف كل الأسرار .. وكان علاوة على ذلك مهذبا بطبيعته وكان الزبائن يستريحون له حتى أصبحوا يطلبونه باسمه من المعلم عبد المسيح كلما احتاجوا إليه .. وقد وصل ما يحققه من دخل فى الشهر إلى مائتى جنيه وأحيانا يصل إلى ثلاثمائة .. فلماذا يشاركه المعلم فى نصف ما يكسبه بحجة أنه يستعمل اسم المحل .. إنه لم يعد فى حاجة إلى اسم المحل .. إن اسمه الآن أصبح معروفا .. الأسطى محروس .. وبدأ يضع لنفسه خطا جديدا .. فكان إذا أرسله المعلم عبد المسيح إلى أى بيت وبعد أن ينتهى من عمله فيه يترك لأهل البيت رقم تليفون ليتصلوا به إذا احتاجوا إليه .. ولم يكن رقم تليفون محل عبد المسيح ولكنه رقم تليفون مقهى مجاور .. وكان قد اتفق مع صاحب المقهى على أن يستغل تليفونه نظير أتعاب .. وبدأ

لا يقضى يومه داخل محل عبد المسيح إلى أن يأتيه بعمل يقضيه فى المقهى .. وهو يخفى عن عبد المسيح كل شىء .. كل ما يقوله له إنه يستطيع أن يناديه من المقهى إذا أراده .. ولكنه كان يناديه فلا يجده .. ويكون تليفون المقهى قد استدعاه إلى عمل .. إلى أن اكتشف عبد المسيح أنه بدأ يعمل لحسابه ويحرمه من مناصفته فى الأرباح وقامت بينهما مجادلات حادة انتهت بأن انقطع ما بينهما .. واتخذ محروس من المقهى محلا له بل إنه اتفق مع صاحب المقهى على أن يخصص له ركنا يستأجره منه ..

وقد بدأ عبد المسيح يحاربه وكان إذا طلبه أحد زبائنه قال له إن محروس سافر ليعمل فى الكويت .. أو يقول له إنه لم يعد يصلح للعمل .. ولكن محروس لم يكن يهتم فإن زبائنه أصبحوا أكثر من زبائن محل عبد المسيح للأدوات الصحية .. إنه كلما ذهب للعمل فى بيت قدمه هذا البيت إلى عشرات البيوت الأخرى .. عشرات الزبائن .. حتى زبونه الأول الذى كان وزيرا يقوم أبوه الباشاويش على حراسته لا يزال يتعامل معه ويرسل إليه عشرات الزبائن .. وكان لا يزال يجامل الوزير فى أتعابه ولكنه لا يجامل أحدا غيره .. بل إنه من شدة ثقته بنفسه ابتكر نظاما جديدا للتعامل مع الزبائن .. فهو أولا يطالب بمبلغ يدفع له نظير الكشف عن الجانب المعطل .. وبعد الكشف يطالب بأتعاب أخرى منفصلة نظير القيام بعملية الإصلاح .. إنه كطبيب متخصص بمعالجة دورات المياه .. وكان الزبائن غالبا مايستسلمون لما يطلب .. إن زبائنه كلهم من طبقة الأثرياء .. وقد وصل إلى أن أصبح الحد الأدنى لما يكسبه فى الشهر إلى ثلاثمائة جنيه .. وأحيانا يرتفع إلى أربعمائة .. أو

خمسمائة .. وقد أصبح يقبل مسئولية أعمال كبيرة تحتاج إلى أن يستعين فيها بعامل آخر أو اثنين .. وهو يكرم كل من يعمل معه حتى أحبه كل العاملين فى مجال السباكة .. وأصبح كأنه زعيم أو رئيس بينهم رغم أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .. وأحلامه لا تنتهى .. لماذا لا يقيم محلا تجاريا للأدوات الصحية وقد اكتشف كل أسرار هذه التجارة منذ كان يعمل مع عبد المسيح ؟.. لماذا لا يصل إلى أن يكون مقاولا لتركيب الأدوات الصحية فى العمارات الجديدة التى بدأت مشروعاتها تملأ القاهرة ؟..

* * *

وكان محروس منذ بدأ يعمل ويكسب وهو يتطلع إلى حياة أرقى يعيش فيها .. إنه لا يحقد على الأغنياء ولكنه يريد أن يتمتع بما يتمتعون به .. وقد بدأ لا يطيق الحياة فى حارة الشيخ بركة .. واستطاع بعد أن بدأ يربح أن ينقل العائلة كلها إلى شقة فى عمارة فى إمبابة على الشارع الرئيسى وتطل على النيل .. ثم بدأ يضع مظهرا جديدا للسمكرى .. لماذا يذهب السمكرى إلى عمله وهو مرتد زيا مبهدلا متسخا كأنه يعلن عن فقره وانحدار مستواه ؟.. وبدأ يتعمد أن يكون دائما نظيفا كأنه من أولاد الطبقة القادرة .. وقد وصل إلى أن أصبح يرتدى بدلة كاملة من « البلوجينز » الأمريكى .. بنطلون وجاكيت .. ودائما نظيفة فإذا اتسخت فى إحدى العمليات لم يذهب بها إلى العملية الأخرى .. فقد أصبح عنده أكثر من بدلة .. وأصبح يحمل الأدوات التى يعمل بها فى حقيبة أنيقة زاهية كأنها حقيبة أحد كبار رجال الأعمال .. ثم أصبح له صبى خاص يحمل له الحقيبة ويعمل معه .. بل إنه بعد أن زاد دخله

استطاع أن يشترى سيارة صغيرة .. كانت قديمة واشتراها مستعملة ولكنها كانت أنيقة .. وأصبح يقودها مزهوا والصبى يجلس خلفه كعادة أولاد الذوات عندما يقودون السيارة ويجلسون الخادم خلفهم لا بجانبهم .. ويذهب بهذا المظهر الأنيق لإصلاح حنفية أو سيفون أو بالوعة مياه .. وقد بدأ يمتع نفسه بالتردد على المحال الأنيقة المعروفة التى لا يتردد عليها إلا الأغنياء خصوصا ساعة تناول الغداء .. وقد يتناول الغداء فى فندق من الفنادق الكبيرة أو فى مطعم مشهور .. أما طعام العشاء فقد كان يفضل دائما أن يتناوله فى البيت فهو لا يستغنى أبدا عن طبق البصارة التى تعدها أمه.. وهو مع كل هذا الطموح فى الارتقاء بمتعة الحياة لم يجرفه الانحلال .. فلم يطرأ على باله أبدا أن يجرب الخمر .. بل إنه لا يريد أن يتردد على الملاهى ويكفيه ما يشاهده فى التليفزيون الملون الذى اشتراه للعائلة ..

وقد وجد نفسه يوما يذهب لتناول الغداء فى مطعم على الطراز الأمريكى يبيع اللحم المشوى والفراخ المشوية .. إنه يعتبره أحد المحال الراقية بالنسبة له ولو أنه لا يجمع إلا زبائن الطبقة الوسطى .. وكان مرتديا البدلة البلوجينز الأنيقة النظيفة .. وهو يحس بأناقته ووسامته .. وصادف أن حاول أحد الواقفين فى الطابور الذى يشترى أفراده الغداء أن يتعدى الفتاة التى تسبقه فى الطابور .. وقامت خناقة وتدخل لصالح الفتاة لينقذها من المعتدى عليها .. ونظر إلى الفتاة وأحس بمجرد النظرة أنها تشده .. أحس أن لها طعما يفتح شهيته .. إنها أول فتاة فى حياته يحس نحوها بأى شىء .. وشكرته الفتاة على إنقاذه لها .. وبعد أن حمل كل منهما طعامه لم يجد مائدة يجلس إليها

إلا بجانبها .. وبدأ الحديث بينهما .. كانت تبدو وكأنها هى الأخرى قد شدت إليه .. وقال لها من خلال الحديث :

— أنا اسمى محروس .. هل أستطيع أن أعرف اسمك ..

وقالت فى دلال ليس متعمدا :

— اسمى كريمة ..

ولم يتوقف الحديث بينهما وكلاهما لا يبدو عليه أنه يتعمد الافتعال فى حديثه .. كأنهما ليسا غرباء .. إلى أن سألته عن عمله .. وقال فورا وقد ارتفع صوته قليلا :

— أنا مهندس ميكانيكى .. وأنت ؟..

وقالت مع ضحكة خافتة :

— أنا طالبة فى معهد التدريب المنزلى .. وإن كنت أعتبر نفسى أستاذة ..

وعاد الحديث بينهما حتى تنبها إلى الوقت الطويل الذى مضى رغم أن كلا منهما كان قد عاد واشترى طبق طعام آخر ربما لمجرد أن يظلا معا ..

وقال لها وهو يهم بالانصراف وفى لهجته تباه :

— هل تسمحين بأن أوصلك بسيارتى ؟..

وقالت وعيناها تحتضنان عينيه :

— لا .. شكرا .. إن البيت قريب ..

ولم يلح .. يكفى أن تعلم أنه يملك سيارة .. وقال لها :

— هل يمكن أن نلتقى ؟..

وقالت فورا :

— الأحد القادم.. مثل اليوم .. هنا ..

ولم يلح .. ليس له تجربة فى الإلحاح على البنات وإغرائهن بما يريد .. ووقف يتتبعها بعينيه وهى تبتعد عنه كأنه يستعرض قوامها ويتفرج على اهتزازها مع خطواتها .. إنها لا شك تأسره .. ولكن لماذا حددت اللقاء يوم الأحد ؟.. لماذا اختارت هذا اليوم ؟.. لا يهم ..

وطال اللقاء التالى أكثر مما طال اللقاء الأول وقبلت فى النهاية أن تركب معه فى سيارته ليوصلها إلى بيتها .. وقد تركته عند ناصية شارع من شوارع الزمالك حتى لا يصل بها إلى باب البيت .. لا تريد أن يراها أحد وهى تنزل من سيارة غريب .. لا شك أنها من عائلة كبيرة راقية غنية ما دامت تقيم فى حى الزمالك .. حتى قالت له إن أباها يعمل مزارعا .. لا بد أنه مزارع راق يملك عشرات الأفدنة .. وأيضا حددت له موعد اللقاء التالى فى يوم الأحد .. لماذا يوم الأحد ؟.. إنه لا يدرى ..

وقبل الموعد استدعى بتليفون المقهى للعمل فى بيت أحد الأجانب بحى الزمالك .. إنه نفس الشارع الذى كان قد أنزلها على ناصيته .. وصعد إلى الشقة وهو مرتد الزى البلوجينز ومن خلفه الصبى يحمل حقيبته الأنيقة .. ودق جرس الباب .. وإذا به يفاجأ بأنها هى التى تفتح له .. كريمة .. ونظر كل منهما إلى الآخر فى دهشة .. إنها لا يمكن أن تكون من أهل البيت .. إنه بيت عائلة أجنبية .. ثم إنها تضع فوق ثوبها هذه « المريلة » البيضاء التى تعود أن يراها على المربيات أو الخادمات فى بيوت العائلات الكبيرة .. ولم يتكلم .. وقادته وهى صامتة إلى حمام الست .. وقال لها دون أن ينظر إليها :

— إنى أتقاضى مقدما خمسة جنيهات نظير الكشف ..

وقالت دون أن تتحرك من جانبه :

— اكشف ..

ولم يرد عليها .. وبدأ يحرك يديه بين الحنفيات والمواسير ثم توقف فجأة والتفت إليها قائلا :

— أنا لم أكذب عليك .. فإن عملى هو عمل مهندس ميكانيكى وإن كنتم تسمونه سباك ..

وقالت وهى تتبسم فى صوت مترنح كأنه خجول :

— لا أنا كذبت عليك .. فإن عملى هو التدبير المنزلى .. وإن كانوا يسمونه كمريرة ..

وعاد إلى العمل وهو يتكلم قائلا :

— إن الناس تستهين بنا رغم أنى أكسب على الأقل مائة وخمسين جنيها فى الشهر .. وأخى الكبير موظف يتقاضى أربعين جنيها لا غير ..

وقطع الحديث حتى يتفرغ لعمله .. وهى تتركه إلى داخل البيت وتعود إليه كأنها لا تريد أن تحرم عينيها منه .. إلى أن أتم عمله وجاءت ست البيت وشكرته كثيرا كأنها بهرت بما قام به ودفعت له كل ما حدده من أتعاب ..

وقال لكريمة وهى تصحبه إلى باب الخروج :

— لماذا يوم الأحد ؟..

وقالت ضاحكة :

— إنه يوم إجازتى ..

وقال وهو يضمها بعينيه :

— لن نكون فى حاجة إلى إجازة حتى أراك ..

وبعد شهور تزوجا واستطاع أن يجد شقة فى حى إمبابة قريبا من بيت العائلة حتى لا يبتعد عن أمه وإن كان قد اضطر أن يدفع خمسمائة جنيه كخلو أو كرشوة .. وإن كان قد دفعها بالتقسيط .. كل شهر مائة جنيه ..

وأصبحت كريمة حاملا .. وقال من خلال فرحته :

ـ سيكون ولدا بإذن الله ..

وقالت وهى تميل عليه :

ـ ماذا تريد أن يكون ابنك ..

وقال متباهيا :

ـ مهندسا ميكانيكيا كأبيه ..

وقالت وهى تبعد رأسها عنه :

ـ حرام عليك .. إنى أريده أن يكون وزيرا .. أو طبيبا .. أو سفيرا .. أو محاميا .. إنه لن ينقصه شىء ..

ولوى شفتيه سخطا وأدار لها ظهره غاضبا .. حتى زوجته تعتبره مجرد سمكرى ..

كلهم يدخلون .. وكلهم يخرجون ..

كان بشير جالسا يعد لنفسه كوبا من الشاى داخل المطبخ الواسع .. إن المطبخ هو المكان الوحيد داخل البيت الذى يستطيع أن يجلس فيه حرا .. وكان يبدو سرحان ساخطا وهو يعد الشاى حتى إنه أسقط الإبريق الذى يغلى فيه الماء من يده فوق البوتاجاز .. ودخلت عليه أم عزيزة المسئولة فى البيت عن خدمة الست الكبيرة .. وقالت فى لهجة آمرة :

ـ البيه يريد القهوة ..

وقال فى لهجة ساخطة دون أن ينظر إليها :

ـ قولى له أن ينتظر حتى أنتهى من شرب الشاى ..

وفغرت أم عزيزة فاها دهشة وصاحت :

ـ عجيبة .. هل جننت يارجل ؟.. سيدك البيه يريد القهوة وأنت تتجرأ وتطلب منه أن ينتظر إلى أن تشرب أنت الشاى !.

والتفت إليها بشير وقال ساخطا كأنه ينهرها :

ـ من حق البيه أن يطلب منى أن أعدل له مزاجه بالقهوة .. ولا أستطيع أن أعدل مزاجه إلا إذا عدلت مزاجى أنا أولا بشرب الشاى .. ثم لا تقولى عنه إنه سيدى .. انتهى هذا اللقب من قاموس الخدمة .. ولم يعد لى سيد إلا الله ..

وقالت أم عزيزة وهى تنظر إليه متحدية :

— وكيف تريدنى أن أتحدث معك عن البيه ؟.. هل أقول لك إن صديقك عصمت بيه يريد فنجانا من القهوة ؟.. إنه سيدك وسيد سيدك ..

وصاح بشير فى وجهها :

— إنك امرأة عجوز ولا تدرين أن عصر الأسياد قد انتهى .. تحدثى عنه على أنه سعادة البيه .. أو صاحب البيت .. أو السيد عصمت .. ولكن لا تقولى عنه إنه سيدى أو سيدك .. كل واحد فينا أصبح سيد نفسه .. بل إنه لا يستحق حتى أن تسميه سعادة البك .. لقد ألغيت الألقاب .. هو السيد عصمت وأنا السيد بشير ..

وصرخت أم عزيزة :

— لا تكن مجنونا .. دع كل ما فى يدك وأعد القهوة لسعادة البيه .. سيدك ..

وأدار لها ظهره وقال لها بلا مبالاة :

— قولى له إنى سأقدم له القهوة بعد أن أنتهى من شرب الشاى ..

وقالت أم عزيزة وهى تخرج من المطبخ كأنها تهرب منه :

— والله العظيم مجنون ..

ودخلت إلى رجل البيت عصمت بيه وهو جالس فى غرفة المكتب المخصصة له يقلب فى أوراق انتظارا لفنجان القهوة .. وقالت فى عصبية :

— لا تكلفونى مرة ثانية بأن أطلب شيئا من بشير .. إنه مجنون .. ولن يكون لى معه بعد اليوم ولا كلمة واحدة ..

وقال عصمت وهو يبتسم من خلال طبيعته الهادئة :

— ماذا حدث ؟

وصاحت أم عزيزة كأنها تفجر قنبلة :

— إنه لا يريد أن يعد لسعادتك القهوة إلا بعد أن ينتهى من شرب الشاى .. تصور سعادتك !

وقال عصمت من خلال ابتسامته :

— ولا يهمك يا أمى .. دعيه كما يشاء ..

واختفت أم عزيزة من أمامه وهو جالس إلى مكتبه ساهما متعجبا ولا ينظر فى الأوراق التى أمامه ، فقد تعود ألا يبدأ العمل إلا بعد أن يشرب فنجان القهوة حتى أصبح من المستحيل عليه أن يبدأ قبل القهوة .. ومرت به فترة أحس أنها طويلة .. أكثر من ربع ساعة .. حتى دخل إليه بشير يحمل فنجان القهوة وهو يرتدى قفطان العمل الرسمى كسفرجى مثالى .. وقد قدم القهوة فى حركات جامدة دون أن يبتسم هذه الابتسامة التى يتعمدها السفرجى المثالى ليفتح شهية من يخدمه لما يقدمه إليه ..

وهم بشير أن يبتعد خارجا من الغرفة فاستوقفه عصمت قائلا :

— انتظر يا بشير .. ماذا بك ؟.. إنك متغير منذ أيام بل منذ أسابيع .. حتى إن الست بدأت تشكو منك .. لقد أصبحت الآن تقدم الغداء وتتغيب عن تقديم العشاء .. دون إذن .. وأصبحت تبدو فى كل تصرفاتك كأن هناك ما يتعبك .. ونحن لم نسألك فى انتظار أن تبدأ وتقول لنا ما يتعبك ..

وقال بشير فى لهجة جافة وهو يتنهد ساخطا :

— الدنيا كلها أصبحت متعبة يا سعادة البيه ..

وقال السيد عصمت وهو لا يزال محتفظا بابتسامته :

— اسمع يا بشير .. لقد مضى عليك الآن وأنت معنا فى البيت أكثر من ثمانى سنوات .. وأنت تعلم أنى لم أعد أعتبرك غريبا تعمل فى البيت .. بل أعتبرك واحدا من أفراد العائلة .. كأنك ابن من أبنائى .. والأبناء يصارحون دائما آباءهم بما يتعبهم ..

وقال بشير وهو يحنى رأسه حتى لا يواجه بعينيه عينى عصمت :

— إن أبناء سيادتك يعمل واحد منهم الآن فى لندن والثانى فى أمريكا .. وفقهما الله .. وزادهم من الربح ..

وأحس عصمت بنفسه فى هدوء وقال :

— وهل تريد أنت الآخر أن تعمل فى الخارج ؟..

وقال بشير وهو يرفع رأسه وينظر فى عينى عصمت كأنه يواجهه بالحقيقة :

— كل الناس يا سعادة البيه تطفش الآن من مصر وتعمل بالخارج .. السفرجية والدكاترة والمهندسون وأبناء سيادتك .. كل واحد يبحث عن الرزق الحلال ..

وسكت عصمت وابتلع ابتسامته وانكمش وجهه كأنه أصيب بصدمة .. إن بشير يفكر فعلا فى ترك خدمته ولعله وجد عملا آخر فى الكويت أو السعودية أو فى أوربا .. أو لعله وجد عملا فى إحدى السفارات الأجنبية .. إن السفرجية الذين يعملون فى السفارات يعتبرون أنفسهم كأنهم يعملون فى الخارج .. ثم قال عصمت فى صوت هزيل :

— أنت حر دائما يا بشير فى البحث عن رزقك سواء فى مصر أو خارج مصر .. ولكنى أحب أن أقول لك إن ما تجده هنا لن تجده فى الخارج أبدا .. إن الذى يعمل فى بيت من بيوت الأجانب لا يعتبر من أهله أبدا .. فى حين أنك هنا تعتبر واحدا من أفراد العائلة .. والحجرة المخصصة لك فوق السطوح نعتبرها غرفة من غرف البيت .. ولم يحدث أن طلبت شيئا وحرمت منه .. بل أعتقد أن زوجتى تحتمل متاعبك كما تحتمل متاعب أبنائها ويخفف عنها أنك لا شك تتصف بالشطارة والأمانة .. والمجتمع كله الذى تعيش فيه فى مصر يشعرك بأنه مجتمع عائلتك .. وأقاربك .. وأصدقائك .. كل ذلك لن تجده فى الخارج .. إن ابنى الذى فى أمريكا يفكر أن يعود بزوجته وأولاده إلى مصر لأنهم كلهم يعيشون هناك كغرباء رغم أنه يحقق أرباحا قد لا يستطيع أن يحققها فى مصر .. وابنى الثانى يخفف من غربته فى لندن أنه فى كل عام يقضى إجازة طويلة معنا هنا فى مصر كما تعلم .. ثم إن هناك شيئا لا يقدره المندفعون للعمل فى الخارج .. وهو أنه إذا كان يكسب خمسين جنيها فى مصر مثلا فهى تساوى مائة جنيه يكسبها فى الخارج .. فتكاليف الحياة هناك مع غربته تساوى أضعاف أضعاف تكاليف الحياة فى بلده .. فى مصر ..

وقاطعه بشير قائلا :

— ليست مائة جنيه يا سعادة البيه .. إن ابن عمى إدريس ترك مصر وهو يعمل بخمسة عشر جنيها فى الشهر وبدأ يعمل فى سفارة عربية فى باريس .. إنه يقول إن مرتبه هناك خمسمائة جنيه .. ونحن نعتقد أنه يكسب أكثر .. ربما ألف .. وقد اشترى خمسة أفدنة فى قريتنا بجوار

أسوان .. وتزوج ابنة عمى رغم أنه لا يراها إلا كل عامين أو ثلاثة .. وسمعنا أنه متزوج من امرأة أخرى فرنسية تقيم معه فى باريس .. الدنيا واسعة يا سعادة البيه .. والرزق مفتوح وكثير ..

ونظر عصمت إلى بشير فى حسرة كأنه يودعه الوداع الأخير :

— أنا لا ألح عليك يا بشير .. ولكنى أنصحك .. وأنت حر .. ولن أغضب منك إذا وجدت أى عمل آخر .. بل إنى أريد أن أحس بك كابن من أبنائى حتى لو تركت البيت .. وأرجو إذا عملت فى الخارج أن نراك كلما أمكن حتى نطمئن عليك ..

وقال بشير وهو ينسحب من أمامه :

— أبقاك الله لنا يا سعادة البيه .. عن إذن سيادتك ..

وانحنى عصمت فوق مكتبه مستسلما لخواطره وبين شفتيه ابتسامة ساخرة كأنه يسخر من الحياة كلها .. لقد تعود أن يرتبط فعلا بالخدم الذين يعملون فى بيته ارتباطا عاطفيا خصوصا الذين تطول مدة خدمتهم له .. إنها عاطفة تنطلق من التعود .. وربما كان أساسها أنه نشأ وتربى فى عائلة لم تكن تعتبر من يعمل فى خدمتها خدما .. بل كانوا فعلا يعتبرون من أبناء البيت ومن أفراد العائلة .. فقد كانت عائلته مرتبطة ارتباطا كاملا بالقرية وأهل القرية .. وكانت عائلة متواضعة حتى بعد أن أصبح أبوه موظفا كبيرا وصل إلى منصب وكيل وزارة .. وكان والده أول فرد من العائلة التى تقيم فى القرية يتم تعليمه فى القاهرة ويستقر فيها .. ولم يكن فى البيت خدم .. بل كانوا يستدعون من القرية من يقوم بمساعدة الأم فى أعمال البيت .. وعندما يولد لهم طفل يستدعون له من القرية صبية تقوم على خدمته وتربيته .. وتبقى الصبية فى البيت

لا كخادمة ولكن كفرد من العائلة والطفل يناديها بلقب « أمى » .. أمى سوية .. وأمى سنية .. وحتى تكبر الصبية ويكبر معها الطفل فتتولى العائلة بنفسها اختيار زوج لها من أبناء القرية .. ولا تعيدها إلى القرية إلا وهى محلاة بمصوغات ذهبية ، وتدفع لها كل نفقات زواجها وتجهيزها .. وتظل تعرف فى القرية بأنها ابنة الطنطاوية وإذا حدث لها أى شىء جاءت إلى القاهرة لتشكو إلى العائلة .. وهكذا كانت أم عزيزة .. إنه ليس لها ابنة اسمها عزيزة .. ولكنها جاءت من القرية وهى صبية لتقوم على تربية عصمت .. وقد نشأ يناديها قائلا .. أمى عزيزة .. إلى أن كبر عصمت وأعادتها العائلة .. إلى القرية لتزوجها ..

وظلت مرتبطة بالعائلة إلى أن مات زوجها فعادت بعد سنوات طويلة إلى القاهرة فعادت لتعيش فى خدمة العائلة .. وفى خدمة ابنها عصمت الذى كان قد تزوج وأصبح له بيت وعائلة وحده .. وظل عصمت يناديها حتى اليوم .. أمى عزيزة .. وانتقلت المناداة إلى ألسنة الناس محرفة باسم .. أم عزيزة ..

وهو منذ تزوج وهو فى حاجة إلى من يعين زوجته فى خدمة البيت والأولاد حتى بعد أن استقرت معه أم عزيزة .. وقد عاش عمرا طويلا شاهد خلاله تطورا كبيرا فى طبيعة الذين يخدمون فى البيوت حتى وصلوا إلى أن أصبحوا كالتحف الثمينة النادرة من الصعب أن تجدها .. وأصبح الشاب الذى يبدأ استقلاله بحياته أسهل عليه أن يجد فتاة يتزوجها وتقوم بخدمة بيته من أن يجد امرأة تكتفى بأن تكون خادمة أو خادما يعاونه على خدمة البيت .. لذلك فكثير من الشبان أصبحوا يتزوجون لمجرد البحث عمن يتحمل معهم مسئولية خدمة البيت ..

وسعت الابتسامة الساخرة بين شفتى عصمت وهو يعيش خواطره .. إن هذا التطور فى سمعة خدم البيوت لم يبدأ فى السنوات الأخيرة بعد ما يسمونه بالانفتاح وبعد إطلاق حرية السفر إلى الخارج كما يتصور البعض .. ولكن هذا التطور بدأ من قبل ذلك ومنذ قامت الثورة عام ٥٣ .. ومنذ فتحت الثورة أبواب الحكومة لتعيين ملايين الموظفين دون دقة أو اهتمام بشروط التعيين .. ودون اهتمام للبحث عن عمل لكل موظف .. يكفى أن يحمل لقب موظف ويقبض مرتبا أول كل شهر دون أن يعمل شيئا .. لقد قضت الثورة على مجتمع الأغنياء بلا عمل وأقامت مجتمع الموظفين بلا عمل .. ولم يكن المتعلمون فقط هم الذين يقبلون على التوظف فى الحكومة بل أيضا الطبقة التى لم تتعلم أو تكاد كما يقولون تفك الخط تسعى إلى وظائف الحكومة وتجد الأبواب مفتوحة لها .. إنها نعمة أن تكون موظفا فى الحكومة .. تأخذ مرتبا كل شهر .. ومعاش .. وتأمين .. ولا تعمل للحكومة شيئا إنما تبحث لنفسك عن عمل آخر خاص حتى وأنت موظف حكومة ..

وعصمت يذكر أنه بعد أن تزوج وذلك قبل الثورة كان قد أصبح بعيدا عن القرية ولم يفكر فى استدعاء أحد من أهلها لمساعدة زوجته فى أعمال البيت .. ولذلك طلب من بواب العمارة أن يبحث له عن صبى حتى يكبر داخل العائلة ويصبح من أفرادها .. وقد جاءه البواب بسليمان .. ولم يكن صبيا صغيرا ولكنه كان فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره .. ولكن زوجته ارتاحت إليه لنشاطه وأمانته .. وكبر فى البيت وزوجته تعلمه كل شىء حتى أصبح طباخا يقوم بإعداد الطعام لهم بجانب مسئوليته عن كل أعمال البيت .. ومرتبه

يرتفع مع ارتفاع مسئولياته .. لقد بدأ عمله فى البيت بمرتب ثلاثة جنيهات وارتفع خلال عشر سنوات إلى خمسة عشر جنيها ..

وقامت الثورة .. وبدأ المجتمع يتغير .. إن سليمان يتغير تغيرا يبدو فى شخصيته وفى المواضيع التى يسأل فيها وفى اللهجة التى يسأل بها .. ولم يكن هذا غريبا فعصمت نفسه يتغير .. وبعد سنوات منذ قامت الثورة أممت الشركة الكبيرة التى كان يعمل فيها مديرا للحسابات وأصبح رئيسا لمجلس إدارة هذه الشركة .. وفوجئ بعد فترة قصيرة من تعيينه رئيسا لمجلس الإدارة وهو حريص على أن يكون مثاليا فى تحمل مسئولية هذا المصنع وإن كان قد تقمص شخصية جديدة وأصبح حريصا على أن يبدو فى مظهر جديد .. فوجئ بسليمان السفرجى يطلب منه فى بساطة أن يعين موظفا فى الشركة التى أممت .. وسأله عصمت فى دهشة :

— لماذا ؟. ليس هناك عمل يصلح لك فى هذه الشركة .. والمرتب الذى ستحصل عليه لا يزيد عن مرتبك الآن ..

وقال سليمان فى إصرار :

— إن كل من أعرفهم أصبحوا موظفين.. وأنا لن أترك العمل عندك فى البيت .. كلهم توظفوا بفضل وساطة من يعملون عنده دون أن يتركوهم ..

ورفض عصمت أن يعينه فى الشركة .. إنه لا يريد أن يعرف عنه أنه عين من يعمل فى بيته .. وكأنه يفرض على الشركة أن تدفع مرتب من يقوم على خدمته الخاصة .. ولكن سليمان لم يكف عن الإلحاح .. وكان يلح لا عليه وحده بل على كل أصدقائه ومعارفه سعيا لإقناعه

بتعيينه .. إلى أن لانت زوجته لهذا الإلحاح .. وسعت هى نفسها لدى أصدقاء العائلة حتى عين سليمان موظفا فى الحكومة .. وبمجرد أن أصبح موظفا اختفى .. لم يحاول أن يتردد عليه ولو لشكر زوجته على ما قدمته له .. بل إن عصمت رآه مرة يسير فى الشارع القريب وهو متأكد أن سليمان رآه أيضا ولكنه لم يتقدم إليه ولو لتحيته .. لقد رآه وكأنه يهرب منه .. وبعد مدة سمع من بواب العمارة أن سليمان افتتح محلا للخردوات فى إحدى حوارى حى بولاق الذى أصبح يقيم فيه وذلك مع احتفاظه بوظيفته .. موظف الحكومة .. ومن يومها بدأ عصمت يقدر مصير الإدارات الحكومية والشركات المؤممة .. لا أحد يعمل لها .. ولكنه إلى الآن وبعد أن مرت كل هذه السنوات لم يستطع أن يفعل شيئا رغم أنه لا يزال رجلا مهما فى الدولة ..

وبعد أن خرج سليمان من خدمة البيت بدأ البيت يعانى من أشكال جديدة تعمل فيه .. وقد جاءوا له يوما بالسفرجى عوض .. وهو رجل ليس صغيرا ومعروف أنه سبق أن عمل مع كثير من البيوت الراقية.. ورغم أن عصمت رفع مرتبه إلى عشرين جنيها فى الشهر إلا أنه لم يستمر معهم أكثر من أيام .. وخرج بلا سبب .. وتعجب عصمت وزوجته .. إلى أن قالت إحدى الجارات :

— احمدوا الله على خروجه .. إن يده طويلة ..

واكتشف عصمت أن سبب خروج عوض هو أن سيدة البيت معروف عنها أنها سيدة حريصة منتهى الحرص .. ليست بخيلة ولكنها لا تقبل أبدا أن تكون مغفلة أو يسرقها أحد .. إنها قد تدفع جنيها كهبة ولكنها لا تقبل أن يغالطها أى واحد فى مليم واحد .. وكانت حريصة

أيضا على أن تحتفظ بمفاتيح كل ما فى البيت فى يدها .. ليس فى البيت كله دولاب أو درج يمكن أن يفتحه غريب دون إذنها .. وربما حاول عوض أن يفتح درجا أو دولابا ليمد فيه يده الطويلة وعندما عجز ثم اكتشف حرص ربة البيت خرج من الخدمة ..

ورغم ذلك لم يكن كل حرص زوجته فوق المستحيل على الأيدى الطويلة .. لقد قبلوا مرة أن تعمل فى البيت امرأة شابة قالت إنها مطلقة .. وذلك بعد أن عجزوا عن العثور على رجل لخدمتهم .. وعصمت وزوجته كانا يفضلان دائما خدمة الرجال .. إنهم رغم متاعبهم أخف فى تحمل مسئولية المرأة العاملة .. وكانت سنية يبدو عليها أنها امرأة جادة لا تحاول أن تسلط أنوثتها عمن حولها ولا يبدو عليها أنها تبحث عن رجل ليتزوجها .. وربما كان الأكثر أمانا أنها لم تكن امرأة جميلة مغرية .. وقد استطاعت فعلا بشطارتها ونشاطها وجديتها أن تكتسب ثقة ست البيت .. واستطاعت أن تكسب حب أم عزيزة التى كانت قد أصبحت مستقرة فى البيت .. حتى إن أم عزيزة بدأت تعتبرها وتعاملها على أنها ابنتها التى تفخر بأخلاقها .. ولكن لم ينقض على وجودها سوى شهرين حتى وقفت تستأذن فى ترك الخدمة بحجة أنها عرفت أن ابنها مريض ويجب أن تتفرغ لرعايته .. ودهشت ست البيت . حتى لو كان ابنها مريضا فإنها تستطيع أن تراعيه دون ترك الخدمة .. بل إنها ليست واثقة أن لها ابنا.. لقد مضى الشهران دون أن تذكر عن هذا الابن شيئا أو تستأذن ساعة لمشاهدته .. وليس هناك أى سبب آخر يدفعها إلى ترك الخدمة .. واضطرت أن توافقها والشك يعصف بها .. وانتظرت حتى جمعت حاجتها داخل حقيبتها قبل أن

تصفى لها حسابها .. وإذا بها تلاحظ أن الحقيبة منفوخة أكثر من اللازم وكأنها تحمل أكثر بكثير من حاجات سنية .. وقالت لها ست البيت وهى تحاول أن تكون هادئة ..

— هل تسمحين بفتح حقيبتك .. لا مؤاخذة .. ولكن هذه هى عادتى قبل أن يغادر أحد من العاملين البيت ..

وصاحت سنية وهى تقف أمام حقيبتها كأنها تحميها :

— حرام عليك ياستى .. لا يصح .. أنا لست من هؤلاء ولا أسمح بأن أفتش كأنى متهمة بالسرقة ..

وأزاحتها ست البيت من أمامها وانحنت بنفسها تفتح الحقيبة .. وسنية بدأت تبكى وتحاول وقف أيدى سيدتها عن التفتيش .. ولكن ست البيت أقوى .. ورفعت قطعا من الملابس كلها من ملابس سنية ثم بدأت تكتشف قطعا من ملابس زوجها وأولادها ..

وصرخت ست البيت صائحة فى أم عزيزة :

— أقفلى أبواب البيت كله وأمسكى هذه الحرامية إلى أن أستدعى البوليس ..

ثم رفعت سماعة التليفون واتصلت بزوجها عصمت فى مكتبه وطلبت منه أن يرسل أحد سكرتيريه ليقوم بإبلاغ البوليس والقبض على سنية ..

وسنية تصرخ باكية وهى تلطم خديها وتشد شعرها ثم تنحنى على الأرض تقبل أقدام سيدتها :

— سامحينى ياستى .. احنا غلابة ياستى والشيطان أشطر منا .. سأبقى جنبك ياستى وافعلى بى ماتريدين .. ولكن لا تتركينى للبوليس ..

وانتهى اليوم بأن عفت ست البيت عن سنية وتركتها تخرج دون تقديمها للبوليس وبعد أن استردت منها كل ما سرقته .. إنهن فعلا غلابة .. ولكنها ظلت أياما وهى لا تفكر ولا تتحدث إلا عن هذه السرقة .. كيف استطاعت سنية أن تسرقها .. من الغريب أنها لم تسرق إلا ملابس الشتاء مع أننا فى الصيف .. وهى قد تعودت أن تجمع الملابس التى لا تستعمل وتحتفظ بها فى دولاب السندرة القريبة من السقف وتغلقها بالمفتاح الذى تحتفظ به فى سلسلة مفاتيحها التى لا تفارقها .. ولكنها أحيانا تترك سلسلة المفاتيح بجانب فراشها عندما تدخل الحمام مثلا .. وربما انتهزت سنية فرصة استطاعت فيها أن تنفرد بسلسلة المفاتيح ثم تفتح دولاب السندرة وتعود وتتركه مغلقا دون أن يكون مغلقا بالمفتاح .. وبعد ذلك أصبحت تنتهز الفرصة أو تقوم فى الليل والبيت كله نائم وتصعد إلى السندرة وتأخذ ماتريد .. وهى مطمئنة إلى أن سيدتها لن تشك وستظل دائما مطمئنة إلى أن باب دولاب السندرة مغلق بالمفتاح .. وإذا كان هذا هو ما حدث فماذا تفعل ست البيت .. هل تمر كل يوم وكل ساعة على كل الدواليب والأبواب لتطمئن أنها مغلقة بالمفتاح ولم يتركها غريب مغلقة بلا مفتاح .. إنها لا تستطيع أن تعيش كل هذا الشك وكأنها أصبحت عسكرى البوليس الذى يمر بالليل على الحوانيت ليتأكد أنها مغلقة بالأقفال .. وقضت عمرا طويلا وهى تفكر كيف تحمى بيتها بوسائل وتنظيم جديد ..

وارتفعت ابتسامة عصمت الساخرة إلى شفتيه وهو يستعرض ذكرياته مع الخدم ..

لقد عملت فى البيت امرأة أخرى تختلف عن سنية .. لقد كانت

شابة أيضا وتدعى أيضا أنها مطلقة .. ولكنها كانت جميلة هذا الجمال البلدى المثير .. وكانت تتعمد أن تتباهى بهذا الجمال .. إن ثوبها دائما محزق عليها ويبرز تفاصيل هزة ردفيها من مؤخرتها وهى تسير كأن كل خطوة غنجة تتغنج بها .. وذراعيها دائما مكشوفتان .. وعنقها يترنح من فوق كتفيها كأنه عنق بطة .. وحاجباها دائما يتحركان .. وشعرها منكوش فوق رأسها .. وعصمت منذ رآها وهو يحس كأنه يقاومها حتى إنه كان يتعمد ألا يكلفها بشىء ويعوّد نفسه ألا يتتبعها بنظراته .. وولداه هشام ووليد استقبلاها بدهشة .. وقالا لأمهما ضاحكين :

— ماذا جرى يا ماما ؟.. هل اتفقت مع أرتست للعمل عندنا ؟.. إنها نجمة سينمائية ..

ولا شك أن الأم لم تكن مرتاحة إلى هذه الخادمة .. واسمها هدى .. لعله لم يكن الاسم الذى ولدت به ولكنه الاسم الذى اختارته تجملا .. ولكن الأم كانت تتحملها لأنها أثبتت منذ اليوم الأول شطارتها فى خدمة البيت وقدرتها على تغطية كل احتياجاته .. ولكنها كانت لا تكاد تنتهى من عملها حتى تقفز فى العمارة كلها .. أحيانا تكون عند البواب .. وأحيانا تكون فى زيارة خدم وخادمات هذه الشقة أو تلك .. ولها دائما عذر فى تغيبها هذه اللحظات عن البيت .. ولكن حكاياتها بدأت تنتشر فى العمارة كلها .. والأم ساكتة محتملة ما دامت هذه الحكايات لا تمس بيتها .. بل إن ابنها هشام .. وكان قد وصل فتوة الشباب .. دخل مرة على أمه محتدا صائحا :

— هذه المرأة يجب أن تخرج من البيت .. لم أعد أحتملها .. إنها تحاول أن ترفع الكلفة بينى وبينها .. بل إنها تحرضنى على نفسها ..

وفى الليلة الماضية دخلت حجرتى وأنا أنام بحجة أنها نسيت المقشة تحت السرير .. وبقيت تتمحك حتى طردتها من الغرفة بعد أن كدت أنهال عليها ضربا ..

وضحك الأب وهو يسمع شكوى ابنه .. إن هدى على استعداد لأن تحرضه هو الآخر على نفسها لولا تصميمه على الاستمرار فى تجاهل وجودها ..

وقالت الأم وكأنها تستجدى ابنها هشام :

— يا ابنى كلهن من هذا النوع .. المهم تصرفاتك أنت معها ومعاملتك لها .. وتستطيع أن تتركها تيأس من حركاتها وتصبح مؤدبة .. ولكن الواقع أنها بنت شاطرة .. إنها تريحنى فى البيت ..

ولم ينقض على هدى فى البيت أربعة شهور حتى جاءت تعتذر عن اضطرارها لترك الخدمة .. وبنفس الحجة التى سبق أن اعتمدت عليها سنية .. إن ابنها مريض .. واضطرت الست أن توافقها على ترك البيت .. أو ربما كانت قد ضاقت بها .. وتركتها هدى ببساطة تفتش حقيبتها قبل أن تخرج .. إنها لا تسرق .. ولكنها قالت كأنها تطالب بحق :

— سآخذ الراديو يا سيدتى ..

وصاحت ست البيت :

— بأى حق تأخذين الراديو ؟..

وقالت هدى بلا اهتمام وهى تتغنج :

— ألم تتركيه لى فى المطبخ لأتسلى بسماعه ؟

وصاحت ست البيت :

ـ أنا لم أتركه لك .. ولكنى أتركه فى المطبخ ليتسلى به كل من يعمل عندى ..

ولم تصمم هدى على أخذ الراديو .. وخرجت ..

ولكن الغريب أنهم اكتشفوا بعد يومين أن هدى أصبحت تعمل فى شقة أخرى من شقق العمارة .. وقال عصمت لنفسه إنها لا شك استطاعت أن تغرى جاره أو أحد أبنائه .. إنهن يعتمدن على دخل الإغراء أكثر مما يعتمدن على دخل الخدمة .. وقد تنقلت هدى فى خلال عامين بين أكثر من ثلاث شقق فى العمارة نفسها للعمل فيها .. ثم خرجت من العمارة كلها لتعمل فى عمارة بعيدة .. والغريب أيضا أنها بعد كل هذه السنوات جاءت إلى بيت عصمت تطلب العودة إلى العمل فيه .. ولكنهم رفضوها .. رغم إشفاقهم عليها .. فقد ظهر عليها المرمطة والبهدلة وتهدل جمالها الذى كانت تتباهى به ..

وذكريات عصمت تجمع بين عشرات عملوا فى خدمة بيته ..

وضحك عندما تذكر حسن .. إنه صبى فى الثانية عشرة من عمره جاء لهم به البواب وقال لهم إن أباه يعتبر من الشخصيات المعروفة بين أهل النوبة وأنه يعمل مشرفا على خدمة السفارة البريطانية .. ورحبت العائلة بحسن لأنهم يستبشرون خيرا بأن يبدأ العمل عندهم صبية صغار حتى يصبحوا بعد أن يكبروا كأنهم من أفراد العائلة .. وتقديرا لأهمية والد حسن قدروا مرتبه بخمسة عشر جنيها فى الشهر .. إنه مرتب كبير بالنسبة لسنه .. وقد بدأ حسن مدللا يتحرك فى البيت كأنه من أفراد العائلة فعلا رغم أنه لم يمض عليه فى العمل سوى أربعة أيام .. إلى أن فوجئت به ست البيت فى اليوم الخامس بأن دخل الحمام .. حمام

العائلة .. وأخذ يستحم فيه مستعملا كل الأدوات التى يجدها حوله .. وصرخت ست البيت وأخرجته من الحمام وهى تصيح فيه :

ـ إن لك حماما خاصا بحجرتك فوق السطح ..

وقال وهو يعافرها :

ـ إنه ليس حماما خاصا بى .. إنه لكل من يقيم فوق السطح ..

وصاحت :

ـ ولو .. إنه الذى تستحم فيه ..

وقال كأنه يهم بالبكاء :

ـ إنى أحب أن أستحم هنا فى الحمام ..

وصرخت فى وجهه :

ـ لا يمكن .. أتفهم .. لا يمكن .. وإياك أن أراك ثانية تستحم هنا ..

وجرى من أمامها وخرج من البيت ولم يعد ..

ولم تكن ثورة ست البيت تعبر عن نوع من التعالى والتفريق بين أصحاب البيت ومن يعملون عندهم .. ولم تكن قد قرفت من حسن وهى تراه تحت الدش الخاص بهم كأنه يلوثه .. ولكنها تؤمن بأن دورات المياه فى البيت غير دورات المياه العامة التى تقام فى الشوارع .. إنها تحتاج لنوع من الألفة والتعود بين الذين يدخلونها ويستعملونها .. ولكل منهم فيها أدوات خاصة قد تكون بينها أسرار يستعملها فى معاملة جسده لا يعرفها الغرباء .. وحتى أم عزيزة التى تعتبر فعلا من أفراد العائلة وعصمت يناديها .. أمى عزيزة .. لا تستطيع أن تدخل حمام العائلة لتستحم فيه أو تستعمل باقى دورات المياه .. إنها

لا تدخل هذا الحمام إلا لتنظيفه وتكنس وتمسح فيه .. وقد تركت دور المياه الأخرى فى البيت الضيقة المخصصة للضيوف لتستعملها أم عزيزة ..

وقد تأثر عصمت بخيبة أمله فى الصبى حسن .. لقد كان وسيما مرحا ودمه خفيف وكان يتمنى فعلا أن يعيش معه كأحد أبنائه ..

وهو يذكر أيضا بين من دخل يخدم فى البيت .. محروس .. لقد كان رجلا مهيبا جاء يخدم مطبقا منتهى الرسميات .. حتى إنه سأل مثلا فى أول يوم عن موعد تقديم طعام الغداء .. وقيل له إنه يقدم فى الساعة الثانية والنصف .. ولكن عصمت تأخر بعد يومين فى العودة إلى البيت .. شغلته أعماله .. وتقدم محروس إلى سيدة البيت يقول فى لهجة مهذبة رسمية :

ــ موعد تقديم الغداء هو الثانية والنصف .. والساعة الآن الثالثة ولم يصل السيد بعد .. وأنا آسف .. مضطر أن أنهى عملى وأخرج .. عن إذن سيادتك ..

وأنهى عمله وخرج وسيدة البيت صامتة مذهولة .. ولكنهم تحملوا .. يجب فعلا أن يضعوا للبيت نظاما صارما محترما يتقيد الخدم به ولا يتحملون مسئولية الخروج عنه .. إنهم يريدون أن يرتفعوا بالبيت إلى المستوى الراقى .. مستوى اللوردات وأولاد الذوات ..

وبعد أربعة أيام نادى عصمت على محروس ليتفق معه على المرتب كما تقضى الأصول .. وكان قد قرر أن يدفع له أكبر مرتب دفعه حتى اليوم .. وقال له :

ــ سأخصص لك أربعين جنيها فى الشهر .. وذلك غير المكافآت

التى تحصل عليها فى كل مناسبة أو كلما أقمنا دعوة ..

وابتسم محروس ابتسامة مهذبة وقال :

ــ آسف يا افندم .. إنك تعلم أنى كنت أعمل فى بيروت .. فى بيت ابن عم رئيس الجمهورية .. وكان مرتبى يصل إلى ما يساوى مائتين وخمسين جنيها مصريا .. ثم جئت إلى مصر وعملت فى السفارة البولندية وكان مرتبى يساوى مائة وخمسين جنيها .. وأنا أقدر طبعا طبيعة وإمكانية كل مكان أعمل فيه .. ولا أستطيع أن أعمل عند سيادتك بأقل من مائة جنيه فى الشهر .. وأنا واثق أن وجودى فى رحابكم يعوضنى عن كل الفارق فى المرتب ..

ونظر إليه عصمت طويلا .. إن كل ما يقوله محروس حقيقى .. ولكنه لم يحسب حسابه .. وقال فى لهجة حاسمة :

ــ آسف يا محروس .. لا أستطيع ..

وقال محروس محتفظا بابتسامة :

ــ يكفينى شرف التعرف إليكم .. السلام عليكم ..

وخرج من البيت ..

ودهش عصمت ثم بدأ يلوم نفسه .. قد يكون هو الذى أخطأ عندما ارتفع بنفسه إلى مستوى ابن عم رئيس جمهورية لبنان وإلى مستوى السفارات الأجنبية ويحاول أن يكون له نفس مستوى خدمة البيت .. أى أن يخدمه محروس .. إن خدمة البيوت تختلف باختلاف طبقات أصحاب البيوت .. وهو ليس من الطبقة العالية التى يخدمها محروس ..

وعاد البيت يستقبل وجوها وشخصيات مختلفة من الخدم والخادمات .. وتطول مدة بقاء كل منهم أو تقصر ولكنها لا تزيد أبدا

عن بضعة شهور .. إلى أن جاءهم بشير .. إن شكله غريب .. طويل وتخين ووجهه الغامق السمار مكون بين أنفه وفمه وذقنه وعينيه تكوينا غريبا .. إنه ليس وسيما ولكنه ليس منفرا ومن السهل أن تتعود على منظره وشكله سريعا .. ومنذ اليوم الأول ظهرت مواهبه فى الخدمة وحيويته الدائمة .. وهو يفهم فى كل شيء .. وهو لا يكتفى بالخدمة العادية بل يستطيع أن يقف فى المطبخ ويعد أطباقا معينة من الطعام .. وأكثر من ذلك .. إنه يغنى البيت عن استدعاء سمكرى ويصلح بيديه الحنفيات .. وأحيانا يغنيهم عن استدعاء نجار ..

وفى أيام اكتشف عصمت أن بشير يعيش كل حياته وحيدا .. فهو لم يتزوج رغم أنه وصل إلى سن الأربعين ولا يبدو عليه فى أسلوب حياته أنه سيتزوج أبدا .. وليس له علاقة مع أهل قريته فى بلاد النوبة قريبا من أسوان .. كل ما يعرفه عن قريته هو اسمها .. ثم إنه ليس مختلطا اختلاطا تاما بأصدقاء من المهنة .. إنه يعرفهم ولكنه لا يعيش حياتهم .. ويبدو أن الجميع يحبونه كما يحبه بواب العمارة الذى جاء به .. ولكنهم يحبونه كأنه إنسان شاذ بينهم ويشفقون عليه ويتحملونه ..

وربما كانت وحدة بشير قد ربطته بالبيت أكثر .. فهو غالبا مقيم فيه أو فى الغرفة المخصصة له فوق السطح .. وبسرعة استطاع أن يعتبر نفسه من أفراد العائلة .. إنه يعيش بينهم فى بساطة دون مظاهر الفرقة .. ودون أن يبدو عليه مظاهر من الحقد أو الغيظ الطبقى .. إن كل الفارق بينه وبينهم كما يحس به هو اختلاف المسئوليات .. ولكنهم اكتشفوا شذوذه منذ البداية .. إنه قد يقضى شهرا أو شهرين وهو يعمل بنشاط زائد ويقدم للبيت أكثر مما يطلب ثم فجأة وبلا أى مقدمات تصيبه نوبة

من الكسل .. فلا يعمل شيئا إلا التظاهر بالعمل .. ويتكاسل فيما يطلب منه .. وشفتاه تصبحان دائما مقلوبتين فى سخط وقرف .. وكل ذلك دون أن يعرف أحد السبب أو يقول هو السبب .. وقد تستمر هذه النوبة أسبوعا أو أسبوعين ثم فجأة أيضا تعود الابتسامة إلى شفتيه ويعود إلى منتهى نشاطه .. وأيضا دون أن يعرف أحد السبب ..

ومن شذوذه أيضا أنه كان غالبا قليل الكلام .. وكان الصمت الدائم يغلب عليه .. وهو يعمل ومعه دائما الراديو يسمع منه الأغانى والكلام .. وينتقل به من غرفة إلى غرفة .. وإن كان دائما حريصا على ألا يحمل الراديو معه عندما يستدعيه أحد من أصحاب البيت .. إنه حريص على المظهر المؤدب المهذب .. ولكنه كان أحيانا تنتابه نوبة تنطلق به متكلما ويصل به الكلام إلى حد الصياح حتى يغطى على كل ما يذيعه الراديو .. دون أن يفهم أحد شيئا مما يقول .. وأحيانا يبدو أنه يصب كلامه متعاركا مع أم عزيزة التى تحبه هى الأخرى وتشفق عليه .. ولا تفهم أم عزيزة لماذا هو ثائر عليها وتتحمله صامتة رغم أن هذه النوبة التى تصيبه قد تستمر ساعات ..

ولعل شذوذه الأكبر أنه كان يشرب الخمر .. ولكنه كان فى العادة حريصا على ألا تؤثر الخمر على عمله فلا يشربها إلا فى يوم إجازته الأسبوعية .. وكان فى يوم الإجازة يأتى ليعد الإفطار ويجهز البيت ثم يختفى منذ الصباح حتى اليوم التالى .. وكان بمجرد أن يختفى يتجه إلى حانة من الحانات الرخيصة المعدة لهذه الطبقة من شريبى الخمر .. ويبدأ فى تناول الكئوس .. ويظل يشرب طول النهار حتى تهده الخمر وإما أن يستطيع أن يعود إلى غرفته فوق السطح وإما أن يلقى بنفسه على

أى دكة من دكك البوابين الذين يعرفهم .. وينام .. ويعود إلى البيت فى اليوم التالى طبيعيا دون أن يتكلم وإن كان أحيانا تبدو فيه بعض الاهتزازات من بقايا ما فى جوفه من خمر .. ولكنه كان أحيانا يخرج عن القواعد التى وضعها لهذا الشذوذ وخصوصا فى الليالى التى يكون فى البيت سهرة تجمع الأصدقاء وتقدم فيها الخمر .. وكأن بشير كان يجد نفسه لا يستطيع أن يقاوم فكان يدخل إلى المدعوين ويجمع من أمامهم الأكواب ليغيرها .. وغالبا ماتكون فى هذه الأكواب بقايا خمر بل لعل بشير أحيانا كان يتعمد أن يرفع الكوب من أمام الضيف قبل أن يتم شرب مافيه .. ثم يدخل المطبخ ويبدأ فى شرب ماتبقى من خمر فى أكواب الضيوف .. وفى ليلة يبدو أن بشير حمل الكثير من الأكواب حتى تلاعبت به الخمر .. وفوجئ عصمت به وهو يدخل إلى قاعة الضيوف وهو يترنح والراديو فى يده مفتوح إلى آخره .. وبلا استئذان وفى منتهى البساطة جلس بشير على مقعد بين الضيوف يستمع إلى الراديو .. ولم يثر عصمت ويضربه مثلا ويسحبه خارج القاعة .. ولكنه بالعكس ابتسم له وأخذ يداعبه كما جاءت أم عزيزة وراءه وأخذا يضحكان معه وهما يجذبانه فى رفق حتى عادا به إلى المطبخ .. وانقضت السهرة كلها والضيوف يضحكون ويتندرون على بشير ، وعصمت يتعمد أن يروى النوادر حتى يغطى خجله من بشير .. كأنه يغطى عورة من عورات البيت ..

ورغم هذه الغرابة فى شخصية بشير وكل مظاهر شذوذه فقد كان البيت يتحمله فى محبة وإشفاق .. وكان يعوضهم دائما عن غرابته وشذوذه بتفانيه فى العمل من أجل البيت والعائلة .. وبأمانته المطلقة ..

وبوحدته التى تتركه متفرغا لهم .. وكانت ست البيت تقول دائما :

ــ إن بشير لا يمكن أن يتركنا ليعمل فى مكان آخر .. فإن أحدا لا يستطيع أن يتحمله إلا أنا ..

وفعلا كانت العائلة كلها مطمئنة إلى أن بشير سيبقى فى خدمتها إلى الأبد .. ولا يمكن أن يرتاح إلا معهم .. وليست له مطالب لا يستطيعون أن يحققوها له .. حتى بالنسبة لمرتبه الذى يدفعونه له .. إنه لم يطلب أبدا أى زيادة .. وعندما جاء إليهم عرض عليه عصمت أن يدفع له ثلاثين جنيها فى الشهر .. وقبل بشير فورا دون مجادلة .. ولم يطلب خلال السنوات أى زيادة .. ولكن عصمت من تلقاء نفسه يرفع من هذا المرتب حتى وصل الآن وبعد ثمانى سنوات إلى خمسين جنيها .. وحتى المكافآت التى كان من المفروض أن يدفعها له عصمت فى كل مناسبة أو فى كل دعوة يقيمها فى البيت نظير خدمة الضيوف .. كان بشير لا يسأل عن هذه المكافآة ولا يبدو عليه أنه فى انتظارها بل لا تبدو عليه الفرحة الكبيرة بها .. وهو ما كان يدفع عصمت كثيرا إلى نسيان دفعها له .. إنه غريب فى تنظيم حياته حتى إنه كان يجمع مدخرات من هذا المرتب .. وكان يحتفظ بهذه المدخرات لدى أم عزيزة .. وأم عزيزة تحتفظ بها بالتالى عند ست البيت .. إن له من المدخرات الآن حوالى خمسمائة جنيه وهو أكسل من أن يفكر فى استغلالها فى بنك ..

إلى أن فوجئ عصمت أخيرا ببشير يحدثه عن العمل فى الخارج ويبدو أنه مصمم على ترك خدمته والعمل فى الخارج أو فى إحدى السفارات أو لدى أحد من الأجانب الذين امتلأت بهم مصر ..

وجلس عصمت وزوجته يتحدثان عن مصير الخدمة فى البيت بعد أن يتركهم بشير .. وكان من رأى زوجته أنه بعد بشير فلن يجدوا أبدا أحدا يحل مكانه .. وعصمت يترحم على أيام زمان عندما كانوا يستدعون بنات وصبية من القرية ليتولوا خدمة البيت .. كانت القرية زمان تعتبر كلها عائلة واحدة يتعاون بعضها مع بعض .. ولكن القرية الآن أصبح فيها كل بيت منفصلا عن الآخر ولا يهتم به .. بل أصبح البيت الواحد يضم إخوة لا يهتم أحدهم بالآخر .. وكل منهم متفرغ للاهتمام بنفسه .. هكذا أصبحت الحياة لا يستطيع فيها الإنسان أن يتحمل إلا مسئولية نفسه .. وقالت زوجته إنهم يجب أن يستسلموا للتطور .. وتعيش العائلات كما تعيش فى أوربا وأمريكا .. كل فرد من أفراد العائلة يخدم نفسه .. لقد تطوروا إلى حد أنهم لم يعودوا فى حاجة إلى سباك أو نجار أو كهربائى فكل أفراد العائلة أصبحوا يجيدون هذه المهام .. لا يمكن أن تستدعى العائلة سباكا ليصلح جلدة حنفية المياه .. أى طفل يستطيع أن يتعامل مع جلدة الحنفية .. حتى أن كل هذه المهن الفردية .. السباك والنجار والكهربائى قد اختفت من البلاد المتقدمة .. وحتى إذا احتاجت العائلة إلى عامل يساعدها فى مطالب البيت أو مربية ترعى الأطفال فهم يستأجرون هذا العامل على حساب مدة ساعة العمل .. قد يدفعون له أجر ساعة أو ساعتين أو ثلاث .. ولا يحتاجونه إلا يوما واحدا فى الأسبوع أو يومين .. لماذا لا نطبق هذا النظام عندنا ونرتاح من متاعب وتكاليف الخادم المقيم ؟..

ولكن عصمت بدأ تفكيره يأخذه فى اتجاه آخر .. إن مهنة الخدمة

داخل البيوت هى مهنة غير معترف بها لا رسميا ولا اجتماعيا .. إن خدم البيوت يؤلفون الهيئة الوحيدة التى ليس لها نقابة .. نقابة تحمى حقوقهم وتفرض مطالبهم .. إنه حتى نساء الشوارع فى باريس قد أصبح لهن نقابة .. ولكن خدم البيوت عندنا ليس لهم نقابة .. وإن كان قد قيل إنهم هم أنفسهم لا يريدون نقابة ولا يريدون أى اعتراف رسمى بهم لأنهم يكسبون من حريتهم المطلقة أكثر .. لا يريدون أن يتقيدوا بأى قيود تحرمهم من التنقل بين بيت وبيت أو باختيار نوع العمل .. وربما أكثر من ذلك .. فإن العاملين فى البيوت يرفضون هم أنفسهم الاعتراف بمهنتهم ويتبرءون منها كأنها عورة .. ولا يقبل أى واحد منهم أو واحدة بأن يعرف عنه أنه خادم أو خادمة .. أو سفرجى أو كمريرة أو دادة .. حتى بعد أن حرم لقب خادم ووضع مكانه لقب عامل .. عامل فى بيت .. رفضوا أيضا اللقب الجديد مع أن رئيس الجمهورية يتفاخر بأن مهنته هى مهنة خادم .. خادم الشعب .. وخادم الأسرة يساوى خادم الشعب .. إن اللقب الذى يقبلونه على أنفسهم هو لقب « موظف » ..

ثم قال عصمت لنفسه كيف يفاجأ أو يدهش عندما يبدأ بشير فى محاولة زيادة دخله ؟.. إنه هو شخصيا بعد أن تخرج فى الجامعة لم يكف يوما عن التفكير فى زيادة دخله .. لقد بدأ يعمل بمرتب اثنى عشر جنيها فى الشهر .. وارتفع مع السنين إلى خمسة وعشرين .. ثم إلى ستين .. وبعد الثورة ارتفع مرة واحدة إلى مائة وعشرين .. وكان هو نفسه الذى سعى إلى هذه الزيادة باعتباره من أفراد الجيل الجديد .. ثم عندما عين رئيسا لمجلس الإدارة أصبح مرتبه أربعمائة وعشرين جنيها

بعد خصم الضرائب .. إن كل رئيس مجلس إدارة يتقاضى خمسة آلاف جنيه فى العام سواء أكان يستحقها أم لا يستحقها .. ورغم ذلك فهو نفسه لا يزال يفكر فى زيادة دخله ويصل تفكيره إلى العمل فى الخارج كما ساعد ولديه على العمل فى لندن وفى أمريكا .. فلماذا لا يكون بشير مثله ؟.. إنه بنى آدم هو الآخر وحقه لا يختلف عن باقى البنى آدمين .. الاختلاف لا يكون إلا فى نوع العمل أو نوع المسئولية دون اختلاف فى طبيعة احتياجات البشر .. ولكن بشير يهمل نفسه .. إنه فى خلال ثمانى سنوات لم يزد دخله سوى عشرة جنيهات أو عشرين .. ويجب أن يتولى هو حماية بشير .. سيرفع مرتبه مرة واحدة إلى ستين جنيها .. وسيقدم له الحقوق التى كان من المفروض أن تكون له لو كانت له نقابة .. سيعد له سجل تأمين فى هيئة التأمينات حتى يضمن له معاشا إذا انقطع عن العمل .. ولعل بشير بعد ذلك يقبل أن يبقى فى خدمته ..

وكان عصمت قد عاد إلى البيت فى نفس المساء ووجد بشير فى المطبخ فدخل إليه وبدأ حديثه قائلا :

ــ إنك لن تكون فى حاجة إلى ترك البيت والعمل فى الخارج ..

ونظر إليه بشير وقال وهو يبدو مترنحا :

ــ من قال هذا الكلام ؟

وقال عصمت فى دهشة وقد تذكر أن هذه ليلة السبت التى تعود بشير فيها أن يعود سكران :

ــ أنت ..

وقال بشير ولسانه يترنح بين شفتيه :

ــ وهل هذا معقول يا سعادة البيه ؟.. أترك البيت وأذهب إلى أين ؟.. هنا بيتى وعائلتى ..

وتعجب عصمت .. لا بد أنه كان فى نوبة من نوباته الشاذة عندما كان يحدثه عن العمل فى الخارج .. وتركه فى المطبخ دون أن يرد عليه ..

ولكنه ليس مطمئنا إلى بقاء بشير فى خدمة البيت ..

هكذا تزوجا ...

جلست فى الغرفة التى تجلس فيها دائما طالما كانت فى البيت .. وعلى نفس المقعد الذى أصبح معروفا أنه مقعدها الخاص حتى بالنسبة للضيوف .. فكل من يدخل هذه الغرفة يعلم أن ليس من حقه أن يجلس على هذا المقعد .. وأمامها جهاز تليفزيون من أكبر وأحدث طراز ويلتصق به جهاز فيديو ومن حوله عشرات من شرائط الأفلام ملقاة فى إهمال .. وقريبا منه جهاز راديو كاسيت من آخر طراز هو الآخر وحوله مجموعة كبيرة من شرائط الكاسيت .. ومكتبة لا تغطى الجدار كله ولكنها مكتبة متوسطة الحجم .. وفى أعلى المكتبة أرفف تحمل عشرات الكتب .. وأغلبها كتب أدبية تضم معظم القصص التى نشرها كبار الكتاب .. وأسفل المكتبة دولاب لا يزال مفتوحا وتتجمع فيه عشرات من الدوسيهات ..

فى مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات مات زوجها .. وهى ليست مستسلمة للحزن فى ذكراه .. إنها لم تفاجأ بموته وكانت منذ تزوجته وهى تنتظر أن يموت قبلها .. فقد تزوجته وهى فى السابعة عشرة من عمرها بينما كان هو فى الأربعين من عمره .. أى كان الفارق بينه وبينها ثلاثة وعشرين عاما .. وربما اختاره أهلها لها لأنهم قدروا أنه يستطيع أن يوفر لها حياة أرقى من مستوى الحياة التى يعيشونها .. وهى لم تعترض .. فلم تكن من البنات اللاتى يحلمن بأنواع معينة من الرجال .. ولم تكن عواطفها قد تحركت نحو أى شاب برغم أن كثيرا من الشبان

كانوا يحاولون ملاحقتها والوصول إليها .. ثم إنه كان رغم سنه وسيما وسامة الرجل وكان ممشوق القوام كأنه من أبطال الرياضة .. وقد أحست منذ اليوم الأول للزواج بارتباطها به .. ولا تدرى هل كان ارتباط حب أم ارتباط الزوجة العاقلة بزوجها .. ولكن ما كان يطغى على إحساسها به هو أنه أستاذ يعلمها الحياة ويفتح أمامها أبوابا لم تكن تدرى أن فى الحياة مثل هذه الأبواب .. وقد كان رجل أعمال متخصصا فى عمليات التصدير والاستيراد .. وكان يقوم بهذه العمليات بطريقة غريبة .. فلم يؤسس مثلا شركة تحمل مسئولية أعماله .. بل لم يكن له مكتب خاص .. ولكنه كان يقوم بعملياته عن طريق اتصالاته الشخصية معتمدا على نفسه فقط .. ولكنه منذ تزوجها وهو يعتمد أن يشرح لها أسرار كل عملية يقوم بها ويعرفها بالشخصيات التى يحتاج إليها فى كل عملية ويعلمها كيف تتعامل معهم وكيف تقيم لهم الدعوات .. إنه يعتبرها شريكته ويخلق منها سيدة أعمال .. وسيدة الأعمال يجب أن تتوفر فيها مواهب التعامل مع الرجال .. كيف تجتذب الرجل .. وكيف تصل به إلى إثارة كل آماله حتى الآمال البعيدة عن العمل .. آماله فيها هى شخصيا .. وقد تعرضت لكثير من محاولات الرجال للوصول إليها .. بل كانت هى أحيانا تثير فى الرجل أن يقدم على هذه المحاولات حتى يضعف أمامها فيبذل مجهودا أكثر من إتمام العملية التى يقوم بها زوجها مرضاة لها .. ولكنها لم تستسلم أبدا لأى رجل .. كانت من النباهة بحيث تستطيع أن تحتفظ بآمال الرجل فيها دون أن تستسلم لهذه الآمال .. كانت مثلا تترك الرجل يحدثها فى التليفون أو تحدثه هى وتتركه يعتقد أن حديث التليفون لا يعلم به زوجها .. إنها تحادثه أو

تتركه يتحدث خفية عن زوجها .. وكانت قادرة على أن تستمر بهذه المحادثات التليفونية شهرا أو شهرين دون أن تستسلم للرجل ودون أن يفقد أمله فيها .. إلى أن تتم العملية التى يقوم بها زوجها .. وكان لها أسلوبها بعد ذلك فى قطع هذه المحادثات التليفونية دون أن تغضب هذا الرجل .. تبعده دون أن تخسره .. وزوجها يعلم أولا بأول كل اتصالاتها بالرجال الذين يتعامل معهم .. ويسكت لأنه يعتبرها اتصالات تتطلبها العمليات التى يقوم بها .. يسكت وهو مطمئن إليها .. إنه واثق أنها لن تقدم على أكثر من ذلك .. لقد علمها أن العمل لا يفرض عليها أن تعطى أكثر .. وهى لا تدرى إذا كانت لا تعطى استجابة لتعليماته أم لأنها تحبه .. ولكنها واثقة أنها لا تعطى لأنها تخاف الله .. إنها منذ نشأتها وهى تخاف الله .. ربما لو استسلمت للحرام لعاقبها الله وصب غضبه على أولادها أو لهدم بيتها .. وقد مرت عليها حالات أحست فيها كأنها تكاد تستسلم .. وكان الرجل يغريها كما تغريه .. ولكنها كانت تقاوم إلى حد أنها تعانى عذاب الحرمان .. ولم تكن تستمد القدرة على المقاومة من حبها لزوجها أو اقتناعا بتعليماته ولكن كانت تستمدها من خوفها من عقاب الله .. خوفها من الحرام .. وقد أنجبت من زوجها ولدين .. هشام وعصام .. وقد بالغت فى رعايتهما وإحاطتهما بأمومتها .. كانت الأمومة هى الحب الوحيد الذى عاشت فيه .. إن الأمومة ليست مجرد ارتباط كارتباطها بزوجها أو بأهلها .. إنها حب .. وهو حب ركزت عليه كل حياتها وكل مستقبلها .. إن زوجها سيموت قبلها ولن يبقى لها فى حياتها إلا ولداها .. إنهما حتى قبل أن يموت زوجها هما كل مالها ..

وقد مات زوجها وهو فى الستين بعد أن عاش شهورا يعانى من أزمة قلبية .. وكانت خلال هذه الشهور هى التى تتولى إدارة كل أعماله .. إنها تعرف كل ما فى هذه الأعمال من أسرار .. ولم يصبها أى انهيار بموته ولم تحزن حزنا عميقا يؤثر فى تماسكها بنفسها أو فى الحرص على ترتيب كل خطواتها .. فلم يكن الموت مفاجأة .. كانت تنتظر دائما أن يموت .. واستطاعت بسرعة أن ترتب كل حياتها وحياة ولديها .. واستطاعت أيضا أن تستمر فى عمليات الاستيراد التى تركها لها .. إن بينها عمليات تدر دخلا ثابتا يمكن أن يغنيها عن السعى وراء عمليات أخرى .. لقد تركها زوجها وهى غير محتاجة .. تركها وهى تستطيع أن تعتبر نفسها مليونيرة ولو أنها تتعمد دائما أن تخفى عن الناس أنها وصلت إلى درجة مليونيرة ..

وفوجئت بعد شهور من موت زوجها بمن يتقدم لها عارضا الزواج .. ربما قدروا أن زوجها المرحوم لا يستحق أكثر من هذه الشهور حزنا عليه واحتفاظا بذكراه .. ثم إنها لا تزال شابة فى السابعة والثلاثين من عمرها .. وهى جميلة هذا الجمال الهادئ .. جمال ست البيت .. إن كل رجل يتمناها زوجة له ويجرى كل منهم إليها قبل أن يسبقه آخر ..

ولكن لا ..

مستحيل ..

لن تتزوج أبدا ..

كيف تدخل على ولديها رجلا غريبا .. لم يعد فى حياتها مكان إلا لولديها .. ثم من أدراها بالدوافع التى تدفع كل هؤلاء الرجال للتقدم

إليها .. ربما لم يكن مجرد أنها لا تزال شابة أو لأنها تعتبر جميلة .. إنما لأنهم يعرفون أنها غنية .. وكلهم يطمعون فى أن يتزوجوا أموالها .. حتى صديقاتها اللاتى يغرينها بالزواج ربما كانت كل منهن ستأخذ من العريس عمولة أو قيمة السمسرة فى تزويجه من امرأة غنية .. إنها لن تتزوج أبدا .. وإذا حدث وفكرت فى الزواج فهى على الأقل لن تتزوج إلا رجلا تعرفه معرفة تامة .. معرفة الحب الذى تسمع عنه .. وقد تزوجت زوجها المرحوم دون أن تعرفه .. ولكنها أيامها كانت صغيرة ومستسلمة لإرادة أهلها .. ولم تكن كما هى الآن .. أما لولدين .. وسيدة أعمال .. وغنية ..

ولكن ..

مع مرور السنوات بدأت تعانى من الوحدة .. تحس بفراغ واسع .. إنها امرأة ناقصة .. كل امرأة بلا رجل هى امرأة ناقصة .. كأنها نصف مخلوقة .. وولداها لهما حياتهما الخاصة التى لا تستطيع أن تعيشها معهما .. كما لا تستطيع أن تخرجهما من مجالهما ليعيشا مجالها .. إنهما أحيانا يجاملانها ويقضيان اليوم معها .. أو يصحبانها إلى السينما أو إلى مسرح وتحس وهى معهما بأنها تحرمهما من شبابيهما .. وتكلفهما بأعمال منزلية ليست من اختصاصهما .. ثم إنها لم تعد ترحب بدعوات إلى الحفلات الاجتماعية .. إنها لا تطيق أن تدخل إلى حفل وحدها وتخرج وحدها .. امرأة بلا رجل .. امرأة ناقصة .. ولم تعد تستطيع أيضا أن تقيم مثل هذه الحفلات فى بيتها تدعو إليها الأزواج مع الزوجات .. ليس فى البيت رجل يستقبل الرجال .. وليس من الطبيعى أن تجعل ولديها يقفان لاستقبال رجال كبار لا يعرفانهم وليس

بينهما وبينهم أى موضوع لأى حديث .. وأصبح من عادتها عندما تضيق بوحدتها أن تدعو واحدة من صديقاتها أو اثنتين ليخففا عنها مللها وزهقها .. حتى أصبح يقال عنها إنها بخيلة لا تفتح بيتها للدعوات .. وهى ليست بخيلة .. وقد تكون حريصة على ما تنفقه .. فهى لا تترك القرش يخرج من يدها إلا بعد أن تقتنع بمصير هذا القرش وأين يذهب .. وهى ليست مستعدة لأن تترك آلاف القروش تخرج من يدها لتقيم فى بيتها حفلا إلا إذا تأكدت مقدما أنها لن تكون فى هذا الحفل امرأة ناقصة .. أو إلا إذا تأكدت أنه سيكون فى هذا الحفل الرجل الذى تريد أن تستكمل به نقصها .. ولكنها لا تدرى كيف تجد هذا الرجل لتدعوه إلى كل حياتها ..

وكانت قد مضت خمس سنوات وهى تعانى وحدتها .. تشغل نفسها ببيتها وولديها وبعض العمليات التى ورثتها عن زوجها والتى أصبح القيام بها روتينيا ليس فيه جديد ولم تضف إليها جديدا يثير اهتمامها ويشعل حماسها وينسيها وحدتها .. ومعاناة الوحدة تشتد بها فى الليل فتجلس أمام التليفزيون أو تدير أشرطة الفيديو أو تقرأ فى كتاب أو تستمع إلى موسيقى أو أغنية على شريط كاسيت .. ولا تستطيع أن تدخل إلى الفراش الخالى إلا إذا تغلب عليها النوم قرب الفجر وكأنه قد أغمى عليها !.. وكانت أحيانا تحاول أن تقنع نفسها بالزواج من واحد من هؤلاء الغرباء الذين يتقدمون إليها .. بل إنها كادت توافق على الزواج من عبد المقصود منصور .. إنه مليونير .. ومعروف كواحد من أغنى أغنياء مصر .. وقبلت فعلا أن تلقاه فى دعوة لدى إحدى صديقاتها .. ولكنه رغم ما يتمتع به من الصحة والعافية فى الستين من

عمره .. أكبر منها أيضا بعشرين سنة .. وهى لا تريد أن تكرر مأساتها مع زوجها المرحوم فتتزوج رجلا تنتظر موته منذ يوم الزواج .. كما أنها تريد أن تحقق أملها فى ألا تتزوج رجلا إلا بعد أن تعرفه معرفة تامة .. بعد أن تحبه .. إلى أن استطاعت أن تقاوم إغراء ملايين عبد المقصود وتعدل عن زواجه ..

إلى أن قابلت مدحت عبد الله ..

لقد قابلته صدفة وفى دعوة غير مقصودة لدى صديقتها ميرفت ..

لقد جذبها إليه منذ اللقاء الأول .. إن مجرد كلامه يجذبها .. إنه يتكلم جادا ولكن جديته تكسرها بساطة مريحة وتحفظ الابتسامة على شفاه كل من يسمعونه .. وهو ليس رجل أعمال كأغلبية الرجال الذين عرفتهم .. إنه موظف كبير فى درجة وكيل وزارة .. ويملك أرضا زراعية واسعة تجعله فى مستوى طبقة الأغنياء .. وهو أكبر منها قليلا .. إنها الآن فى السابعة والثلاثين وهو فى الواحدة والأربعين .. إن فارق السن ما دام أقل من عشر سنوات هو أصلح فارق بين زوج وزوجة .. والأهم من كل ذلك أنه فى مثل وضعها .. لقد كان متزوجا وزوجته توفيت منذ خمس سنوات فى نفس الموعد الذى توفى فيه زوجها .. وتركت له زوجته ابنتين كما ترك لها زوجها ولدين ..

ولكن يجب أن تعرفه أكثر .. وقد وفر عليها التفكير فى الطريق إلى معرفته عندما قال لها وهى تنصرف عن الحفل :

ــ هل أستطيع أن أوصلك ما دمت وحيدة ..؟

وكانت ساعتها تتمنى أن توافق ولكنها قدرت أنه من الأفضل ألا تستسلم لأمنيتها وقالت :

ــ شكرا .. إن معى سيارة ..

قال فى هدوء وفى لهجته الجادة البسيطة كأنه لا يتجرأ بطلب ليس من حقه :

ــ هل أستطيع أن أتحدث إليك فى التليفون ..؟

وقالت وهى تخفى عينيها عنه كأنه قد بدأ شىء بينهما :

ــ أنا فى انتظارك ..

وحدثها فى اليوم التالى مباشرة .. وكانت فى انتظاره فعلا .. وأحست ربما لأول مرة فى حياتها بقلبها يخفق وهى تسمع صوته ..

إنها تتحدث معه فى التليفون كما لم تتعود التحدث مع رجال الأعمال أو الموظفين الكبار الذين لهم دخل بالعمليات التى كان يقوم بها زوجها وتولتها بعده .. إنه ليس بينه وبينها أى عمل .. كل ما بينه وبينها بادرة حب قد ينتهى إلى زواج ..

وقد طال الحديث بينهما أياما وأسابيع قبل أن يصل إلى موضوع الزواج .. كأن كلا منهما كان يحاول أن يكتشف أعماق الآخر ويدخل فى شخصيته .. وهى لا تشبع أبدا من هذه الأحاديث .. ولم تكن تقبل أبدا أن تستجيب لرغبته فى لقاء خاص بهما .. كان كل ما يحصل عليه هو لقاء آخر عند صديقتها ميرفت .. بل لم تقبل أيضا أن يوصلها فى سيارته بعد زيارة ميرفت .. دائما منفصلة بسيارتها .. إنها تحكم عقلها قبل أن تستسلم لعواطفها .. إلى أن فاتحها فى الزواج وهو يحدثها بالتليفون ..

وعلى عكس ما تصورت وجدت نفسها مترددة .. حائرة .. إنها تعيش الآن حياة منظمة مرتبة ترتيبا يشمل اليوم والساعة والدقيقة ..

فكيف تقلب هذا الترتيب وتتزوج ..

إنها أولا لا يمكن أن تتزوج إلا بموافقة ولديها هشام وعصام .. إنهما أصبحا كأنهما وليا أمرها .. هما المسئولان عنها .. حتى ولو كانت مجرد مسئولية عاطفية .. وقد كبرا .. هشام الآن فى السنة النهائية بكلية التجارة .. وعصام فى الجامعة الأمريكية يدرس إدارة الأعمال .. إن كلا منهما يعد نفسه ليسير فى نفس الطريق الذى كان يسير فيه والدهما .. طريق الأعمال الحرة .. معتمدين على ماورثاه منه وما صانته لهما أمهما ..

ولنفرض أنهما وافقا على زواجها .. وهى لا تستبعد موافقتهما .. إنهما معترفان بأنها ضحت بنفسها من أجلهما وعاشت كل هذه السنوات فى حرمان .. عاشت نصف امرأة .. حتى تتفرغ لهما .. بل كان ابنها هشام يضحك معها قائلا :

ـــ سأزوجك يا ماما ..

وترد ضاحكة :

ـــ إنى متزوجة من اثنين .. أنت وأخيك ..

فيرد وكأنه جاد رغم أنه يضحك :

ـــ الزواج الثالث سيشترك معنا فى إسعادك .. على الأقل يحمل معنا مسئولية السهر معك .. ولا نلوم أنفسنا كلما تركناك وحيدة ..

ولكنه كان مجرد كلام أقرب إلى تبادل النكات .. ولا تدرى ماذا سيكون عليه إحساسهما عندما تقلب النكته إلى واقع يعيشان فيه .. عندما تتزوج فعلا ..

ولنفرض أنها تزوجت فأين تعيش مع زوجها .. هل يكون لهما بيت جديد .. بيت الزوجية .. لا .. مستحيل أن تترك الشقة التى تعيش فيها .. ومستحيل أن تترك ولديها وحدهما مهما ضمنت توفير مطالب الحياة لهما .. إنها تحس أنها لا تستطيع أن تعيش خارج هذه الشقة .. لقد وضعت فيها بيدها كل لمسة .. وجددتها أكثر من مرة حتى أصبح كل الناس يعترفون بأنها أفخم شقة فى مصر كلها .. ولا تستطيع أن تتصور أن تصحو فى الصباح ولا تلتقى بوجه ولديها .. إنها لم تتعود أن تقبلهما قبلة الصباح كما تفعل باقى الأمهات .. ولكن أن تضمهما ببيتها فى الصباح يملأ إحساسها بأمومتها أكثر من القبلات ..

إذا تزوجت فلن يكون هناك طريق إلا أن يأتى زوجها معها ويعيش فى نفس الشقة ومعهما ولداها .. ولكن .. كيف يتحمل الولدان رؤية أمهما وهى تدخل مع الرجل الغريب حجرة النوم .. ويعيشان فى خيال أن أمهما الآن عارية فى أحضان رجل .. ربما تحملا إلى أن يتعودا ..

ولكن هناك مشكلة أخرى .. إنها لا تزال تحتفظ حتى اليوم باسم المرحوم على باب الشقة .. ولا تزال تحتفظ بصورته الكبيرة معلقة فى وسط جدار صالون الاستقبال .. فهل ترفع اسمه من الباب وتنزع صورته من فوق الجدار يوم تتزوج .. فهل يحتمل ولداها .. إنه اسم أبيهم وصورته اللذان يؤكدان أن البيت بيتهما .. لعلهما سيشعران أن أمهما قد نزعتهما هما من حياتها ومن بيتهما ..

ولكن لماذا تحصر كل تفكيرها فى ظروفها هى وحدها .. إن حبيبها مدحت عبد الله له أيضا نفس الظروف .. إن له بنتين تعيشان معه منذ توفيت أمهما .. وأصبحتا الآن كأنهما المسئولتان عنه فى بيته .. فكيف

فكيف تقلب هذا الترتيب وتتزوج ..

إنها أولا لا يمكن أن تتزوج إلا بموافقة ولديها هشام وعصام .. إنهما أصبحا كأنهما وليا أمرها .. هما المسئولان عنها .. حتى ولو كانت مجرد مسئولية عاطفية .. وقد كبرا .. هشام الآن فى السنة النهائية بكلية التجارة .. وعصام فى الجامعة الأمريكية يدرس إدارة الأعمال .. إن كلا منهما يعد نفسه ليسير فى نفس الطريق الذى كان يسير فيه والدهما .. طريق الأعمال الحرة .. معتمدين على ماورثاه منه وما صانته لهما أمهما ..

ولنفرض أنهما وافقا على زواجها .. وهى لا تستبعد موافقتهما .. إنهما معترفان بأنها ضحت بنفسها من أجلهما وعاشت كل هذه السنوات فى حرمان .. عاشت نصف امرأة .. حتى تتفرغ لهما .. بل كان ابنها هشام يضحك معها قائلا :

ــ سأزوجك ياماما ..

وترد ضاحكة :

ــ إنى متزوجة من اثنين .. أنت وأخيك ..

فيرد وكأنه جاد رغم أنه يضحك :

ــ الزواج الثالث سيشترك معنا فى إسعادك .. على الأقل يحمل معنا مسئولية السهر معك .. ولا نلوم أنفسنا كلما تركناك وحيدة ..

ولكنه كان مجرد كلام أقرب إلى تبادل النكات .. ولا تدرى ماذا سيكون عليه إحساسهما عندما تقلب النكته إلى واقع يعيشان فيه .. عندما تتزوج فعلا ..

ولنفرض أنها تزوجت فأين تعيش مع زوجها .. هل يكون لهما بيت جديد .. بيت الزوجية .. لا .. مستحيل أن تترك الشقة التى تعيش فيها .. ومستحيل أن تترك ولديها وحدهما مهما ضمنت توفير مطالب الحياة لهما .. إنها تحس أنها لا تستطيع أن تعيش خارج هذه الشقة .. لقد وضعت فيها بيدها كل لمسة .. وجددتها أكثر من مرة حتى أصبح كل الناس يعترفون بأنها أفخم شقة فى مصر كلها .. ولا تستطيع أن تتصور أن تصحو فى الصباح ولا تلتقى بوجه ولديها .. إنها لم تتعود أن تقبلهما قبلة الصباح كما تفعل باقى الأمهات .. ولكن أن تضمهما ببيتها فى الصباح يملأ إحساسها بأمومتها أكثر من القبلات ..

إذا تزوجت فلن يكون هناك طريق إلا أن يأتى زوجها معها ويعيش فى نفس الشقة ومعهما ولداها .. ولكن .. كيف يتحمل الولدان رؤية أمهما وهى تدخل مع الرجل الغريب حجرة النوم .. ويعيشان فى خيال أن أمهما الآن عارية فى أحضان رجل .. ربما تحملا إلى أن يتعودا ..

ولكن هناك مشكلة أخرى .. إنها لا تزال تحتفظ حتى اليوم باسم المرحوم على باب الشقة .. ولا تزال تحتفظ بصورته الكبيرة معلقة فى وسط جدار صالون الاستقبال .. فهل ترفع اسمه من الباب وتنزع صورته من فوق الجدار يوم تتزوج .. فهل يحتمل ولداها .. إنه اسم أبيهم وصورته اللذان يؤكدان أن البيت بيتهما .. لعلهما سيشعران أن أمهما قد نزعتهما هما من حياتها ومن بيتهما ..

ولكن لماذا تحصر كل تفكيرها فى ظروفها هى وحدها .. إن حبيبها مدحت عبد الله له أيضا نفس الظروف .. إن له بنتين تعيشان معه منذ توفيت أمهما .. وأصبحتا الآن كأنهما المسئولتان عنه فى بيته .. فكيف

يتخلى عنهما ويتركهما وحيدتين بعد أن يتزوجها ويقيم معها فى شقتها ..

وقد خطر على خيالها أن يأتى بالبنتين معه ليقيموا جميعا معها .. إن الشقة واسعة وتستطيع أن تخصص لهما حجرة من أجمل وأحلى غرف البيت .. ويصبحون كلهم كأنهم عائلة كبيرة .. زوجة وزوج وولدان وبنتان .. ولكنه لن يقبل .. إن البنتين قد أصبحتا فى السابعة عشرة والخامسة عشرة ولا يمكن أن يضعهما مع شابين غريبين وإلا ثار حولهما كلام الناس .. ويعرضهما لكل ما يمكن أن يحدث بين البنات والأولاد .. ولن يأمن على بناته مع أولادها إلا إذا تزوجوا جميعا بعضهم من بعض .. يتزوجها وتتزوج ابنتاه ولديها .. ولكن مستحيل .. لا يمكن أن تفرض على ولديها أن يتزوجا من ابنتيه لمجرد تحقيق غرضها الخاص بالزواج به .. وهو أيضا لا يستطيع أن يفرض على ابنتيه أن تتزوجا ولديها .. وإلا كان الاثنان فى منتهى الأنانية إلى حد التضحية بالأبناء ..

لماذا لا يترك ابنتيه لتعيشا فى بيت أخته أو بيت أخيه؟.. لقد قال لهما يوما إنه سبق أن قرر فعلا أن تعيش ابنتاه مع عمتهما .. ولكنه إلى اليوم لا يستطيع أن ينفذ قراره أو يفاتحهما فيه .. لقد كبرت الابنتان وتعودتا على الحياة معه .. وأصبحت لكل منهما شخصية قائمة على مسئوليتها عن أبيها ومسئوليتها أمامه .. لو كانتا صغيرتين فى الرابعة أو الثالثة من عمرها لأمكن أن تتعودا الحياة بعيدا عن أبيهما وأن تكتسبا القدرة على الحياة مع العم أو العمة .. أما الآن فمستحيل .. إنه يحس كأنه سيحرمهما من الحياة إذا تركهما بعيدا عنه .. كأنه يلقيهما فى الشارع .. وهو على حق .. ربما

لو كان ولداها هى الأخرى صغيرين لاستطاعت أن تتزوجه بسهولة ودون أن تواجه كل هذه المشاكل .. وليس هناك الآن طريق لتتزوج إلا أن تنتظر حتى يتزوج ولداها ويكون لكل منهما بيت خاص .. وينتظر هو الآخر إلى أن تتزوج ابنتاه وتصبح كل منهما ربة بيت خاص بها .. وبعد ذلك يتزوجان .. وقد يتحقق ذلك بسهولة .. لقد قال لها إن ابنته الكبرى قد خطبت .. المهم أن يتحملا الانتظار .. وهى تستطيع فهى معترفة أنها تحبه وأنها تريده .. ولا شك أنه أيضا يحبها إلى درجة أنه يتحمل عقليتها المعقدة كأنها تحمل فى رأسها « كمبيوتر » يحسب حساب كل خطوة تخطوها ولا تستطيع أن تجازف أو تخطو خطوة لا تتفق مع حساب هذا الكمبيوتر ..

وطالت حيرتها حتى مضى عامان وهى تعانى ما يدور فى عقلها وتعانى حرمانها منه .. ولكنها لا تزال تحتفظ به فى لقاءات التليفون وفى لقاءهما عن طريق صديقتها ميرفت .. وكانا يتحدثان طويلا بحثا عن الطريق .. وربما كانت تخفى عنه بعض خواطرها ولكنها لم تكن تخفى شيئا من كل ما يدور فى رأسها عن صديقتها ميرفت .. وكانت ميرفت تصرخ فى وجهها كل يوم :

ــ تزوجى أولا .. ثم فكرى فى ذلك فيما بعد الزواج ..

كان من رأى ميرفت منذ البداية أن يعقدا القران دون أن يهتما بأين يقيمان ولا كيف يقيمان .. إن الزواج هو تسجيل شرعية الحب .. وهى تحبه وتريده .. فلتسجل أولا شرعية الحب وشرعية ما تريده منه .. وبعد ذلك تفكر فيما سيكون عليه الأولاد والبنات وفى البيت الذى سيكون بيت الزوجية .. ليتزوجا كما هما الآن .. هى فى بيتها مع ولديها وهو

فى بيته مع بنتيه .. ويلتقيا فى هذا البيت أو ذاك .. لقاء الحب .. أو يخصصا بيتا ثالثا للقاء الحب .. هكذا تتم الآن كثير من الزيجات .. بل إن أزمة الشقق جعلت الزوجة تعيش مع أهلها والزوج يعيش مع أهله .. ويلتقيان دون حاجة إلى بيت الزوجية .. حتى لو كانت الزوجة فى بيت أهله أو عاش هو فى بيت أهلها فلا يمكن اعتبار هذا البيت بيتهما وحدهما .. بيت الزوجية .. وإنما هو بيت اللقاء .. لقاء الحب الشرعى .. أى أن الزواج الآن أصبح يقوم الآن على تحقيق واقع الحب أولا إلى أن يتمكن الزوجان من تحقيق واقع الزواج .. وواقع الحب مقبول من المجتمع ما دام حبا شرعيا كواقع الزواج تماما .. أى تستطيع أن تبقى فى بيتها مع أولادها ويبقى هو فى بيته مع بناته والمجتمع كله معترف بحبهما .. معترف بأنهما زوجان .. ويظهران معا أمام الناس .. وتوجه إليهما الدعوات معا .. اعترافا بأنهما زوجان ..

وكانت ترفض الاقتناع بهذا الكلام .. وصديقتها ميرفت تصرخ فيها :

ـــ هل تتصورين نفسك كأنك فتاة صغيرة عذراء تريد أن يكون زواجها كاملا من كل لوازمه .. بيت .. وجهاز .. ومهر .. وشبكة .. وحفل زفاف .. والعوالم تزفك .. مبروك عليك عريسك الخفة .. لا يا صديقتى .. إنك تتزوجين فى ظروف خاصة لا تحتمل كل هذه التقاليد .. إنك تتزوجين وأنت على حافة النهاية .. ولا تملكين إلا ما يستر وجودك وأنت على الحافة ..

وهى تعاند صديقتها .. ربما كان من غرورها بنفسها وثقتها فى ذكائها ما يجعلها تصر على أن يكون زواجها كاملا من كل جوانبه ..

ولكنها مع مرور كل هذا الزمن الطويل بدأت تلين .. وبدأت أمنية الزواج تسيطر عليها دون أن تستقر على رأى .. ولكنها قررت أن تقدم حبيبها إلى ولديها .. واتفقت معه ومع صديقتها ميرفت على أن يزوراها فى البيت .. وقالت لو لديها إنها تريدهما أن يكونا جاهزين لتقدم لهما شخصية جديدة عليهما ..

وجاءت ميرفت وزوجها ومعهما مدحت الذى استطاع بسرعة أن يأسر الولدين بحديثه الجاد البسيط الذى يريح العقل ويحتفظ بالابتسام بين الشفتين ..

وكانت الزيارة ولا أحد يريد إنهاءها ، قد زالت الكلفة بين الجميع .. حتى أحست أنها تزوجته فعلا وأنها معه فى بيتها بعد الزواج .. وبعد أن خرجوا سألت ولديها فى لهفة :

ـــ ما رأيكما فى مدحت بيه ؟..

وقال هشام :

ـــ لقد أعجبنى ..

وقالت :

ـــ إنه متقدم للزواج ..

وصاح هشام :

ـــ زواجك أنت يا ماما ؟.. أنا موافق ..

وقالت :

ـــ ولكنك لا تعرفه ..

وقال بسرعة :

ـــ يكفى أنك تعرفينه وطبعا موافقة ..

وقالت وهى تحاول أن تبتسم :

ـــ كيف أتزوج وأنا متزوجة منكما أنتما الاثنين ؟..

وقال عصام بعقلية الجامعة الأمريكية :

ـــ إن زواجك يحل مشكلتك ومشكلتنا نحن الاثنين ..

قالت وقد عادت إلى حيرتها :

ـــ ولكن كيف أعيش متزوجة ..

وعاد عصام يقول بعقليته الأمريكية :

ـــ هذا ما تقررانه أنتما الاثنين .. وأنا وهشام موافقان مقدما على كل ما تقررانه ..

إن ولديها يتمنيان لها الزواج فعلا .. وقد جذبتهما وأعجبتهما شخصية حبيبها مدحت ..

وقد قال لها مدحت إنه أبلغ ابنتيه أنه قرر الزواج .. وقال إنه اختار العروس وحدثهما عنها .. وقد فرحت ابنتاه كأنهما تتمنيان إنقاذه من وحدته ومن حرمانه .. وقد جعلهما تحادثانها فى التليفون مرات كثيرة .. وهى تفرح بحديثهما وتبذل مجهودا فى أن تحادثهما بشخصية الأم .. ثم بعد ذلك التقت بهما عند صديقتها ميرفت .. إنهما ابنتان رائعتان .. مهذبتان .. جذابتان .. ولكنها بينها وبين نفسها كانت تحس أنها لا تستطيع أن تعيش معهما .. إن أمومتها لا تتسع لهما .. ربما كانت تغار منهما على حبيبها .. أبوهما ..

وهى لا تزال مترددة .. لا تستطيع أن تخرج من حيرتها .. ولا تستطيع أن تتخلص من حبها ومن أمنيتها أن تتزوج إلى أن اتصلت بها صديقتها ميرفت ودعتها لزيارتها فى موعد محدد ..

ووجدت هناك مدحت كأنه فى انتظارها .. وقالت لها ميرفت فى صوت جاد :

ـــ هل أنت موافقة على الزواج من مدحت ؟..

وقالت وهى تتنهد :

ـــ ياليتنى أستطيع !..

ثم قالت لمدحت :

ـــ طبعا أنت تتمنى هذا الزواج ؟..

وقال مدحت فى فرح كأنه يعلم شيئا :

ـــ طبعا ..

وقالت ميرفت كأنها تزغرد :

ـــ إذا لقد تزوجتما ..

ثم فتحت الباب المؤدى إلى الغرفة الأخرى وهى تصيح :

ـــ اتفضل يا حضرة المأذون .. تعالين يا بنات ، تعال يا هشام وأنت يا عصام ..

ودخل المأذون والأولاد والبنات .. ورفعت هى عينيها فى دهشة ثم ضحكت .. لقد دبروا وأعدوا كل شىء لتحقيق أمنيتها .. واستسلمت .. وعقد القران ..

وأحست كأنها عادت صغيرة رغم أنها اليوم فى السابعة والأربعين .. وأحس أنه استرد شبابه رغم أنه وصل إلى الحادية والخمسين ..

إن كلا منهما لا يزال مستقرا فى بيته مع أولاده .. ويلتقيان لقاء الحب فى بيتهما .. وولداها حريصان كلما جاء زوج أمهما ليتناول

معهما الغداء أو العشاء أن يتركا البيت لهما فترة طويلة .. ولكنهما قررا أن يتخذا شقة خاصة بهما هما الاثنين .. شقة الحب .. يلتقيان فيها كأنهما حبيبان لم يتزوجا بعد .. وإن كان قد أصبح من حق الأم أن تستأذن ولديها فى أن تقضى الليل بعيدا عنهما .. وأصبح من حق الأب أن يستأذن الابنتين فى أن يبيت خارج البيت كأنه مسافر لقضاء ليلة فى الإسكندرية .. والبنتان والولدان يعلمون كل شىء .. والأب والأم يصارحانهما بكل شىء .. والمجتمع كله أصبح معترفا بهما كزوجين ..

وهما يعيشان على أمل واحد .. أن تتزوج البنتان .. ويتزوج الولدان .. وتنتقل بزوجها إلى شقتها التى تحبها وتستكمل كل نواحى الزواج ..

لقد أصبَحَت رشيقة ..

لم تكن تحس أن شيئا تغير .. لا فيها ولا فى الحياة كلها .. إنها منذ تزوجت وكل شىء يسير هادئا سعيدا كأن الحياة تسكب حولها قطرات العسل .. وتنثر فى طريقها زهرات الفل .. وقد تزوجت عن قصة حب لا تزال تعيش فيها يوما بعد يوم .. لقد كان زوجها محمود لا يصدق أنه يمكن أن يتزوجها .. وهو إلى اليوم وبعد كل هذه السنوات ينظر إليها وعيناه منبهرتان كأنه لا يصدق أنه تزوجها فعلا .. ويمد يديه كثيرا ويتحسسها كأنه يريد أن يطمئن ويتأكد أنها أصبحت بجانبه .. وقد أنجبا ثلاثة .. ولدين وبنتا .. ولو كانت قد تركت نفسها لكانا قد أنجبا عشرة .. فهما لا يشبعان أبدا أحدهما من الآخر .. ولكنها تنبهت إلى أنه يكفيهما ثلاثة .. ولم تكتف بالاعتماد على حبوب منع الحمل .. إنها تضيق بهذه الحبوب ولا تستطيع أن تكون حريصة على عدم النسيان .. ثم إن مجرد تناول هذه الحبوب يعكر متعة إحساسها وهى فى أحضان زوجها .. إنها تحس وهى تتناول الحبة كأنها مقبلة على إجراء عملية .. فى حين أنها لم ترقد أبدا بجانب زوجها وهى تفكر فى إجراء أى عملية ولكنهما بلا تعمد لا يكادان يتلامسان حتى يذوبا فى الحب .. وقد يقتصر على لقاء الشفاه بالشفاه .. ولكنه دائما منتهى الحب .. أما إذا تناولت الحبة فهى لا تكتفى بمنتهى الحب ولكنها تحس كأن المفروض عليها أن تقوم بالعملية حتى بلا حب .. ثم هناك ما هو أكثر .. إن هذه الحبوب تصد النفس .. وهى منذ تزوجت ومنذ استقر حبها ونفسها

مفتوحة للأكل .. أصبحت تحس أن الحياة كلها ليس فيها إلا متعتان .. متعتها بالرجل الذى تعاشره وتستحلبه .. ومتعتها بالطبق الذى تعده وتأكل ما فيه .. وقد اشتهرت بنبوغها فى إعداد الأطباق .. واستطاعت أن تعيد مجد المطبخ التركى الذى كان يعد أطباق السلاطين .. لقد أصبحت أطباقها معروفة فى المجتمع كله .. طبق ورق العنب بالكوارع .. وطبق الملوخية البورانى بالأرانب .. والشركسية .. والشكشوكة .. وعيش السراى .. والفطير المشلتت .. و .. و .. بل إنها استطاعت أن تعد السمن البلدى داخل البيت بعد أن فقدت ثقتها فى السمن الذى تشتريه من السوق .. وحتى لا تترك حبوب منع الحمل تؤثر على شهيتها وتصد نفسها ذهبت إلى الطبيب وأجرت عملية بسيطة أراحتها من الحمل .. واحتفظت لها بشهيتها المفتوحة حتى آخرها ..

وصحيح أن صديقاتها بدأن يحذرنها من السمنة .. إن قوامها يزداد اكتنازا يوما بعد يوم .. ولكن لعل صديقاتها يبالغن .. إنها تقف أمام المرآة فتجد قوامها قد ازداد اكتنازا ولكنه لم يفقد رشاقته .. حتى إذا كان قد تعدى الرشاقة فهو على الأقل لم يفقد جماله .. إن القوام لا يفقد جماله إلا إذا تهدل .. وقوامها لم يتهدل ولم يسقط بعضه على بعض .. إنه لا يزال قواما مشدودا يشد بعضه بعضا محتفظا بجماله .. ولعلها بدأت تعترف بأنها أصبحت فعلا سمينة عندما بدأت تحتاج إلى خمسة أمتار من القماش لتفصيل ثوبها بعد أن كانت قبل الزواج لا تحتاج إلى أكثر من ثلاثة أمتار ونصف .. ولكن ماذا يهم .. المهم هو الاحتفاظ بالصحة .. إن ما يحتفظ للمرأة بأنوثتها وإغرائها ليس وزنها .. وهل هى رفيعة أم سمينة .. بل إن كل إغراء المرأة وأنوثتها يعتمدان على سلامة

صحتها .. وهى والحمد لله فى صحة جيدة .. رائعة .. إنها لم تعكر أبدا على مزاج زوجها بمرض يصيبها ويحرمه منها .. بل لم تصب أبدا بزكام يبعد شفتيه عن شفتيها أو بكحة تنطلق منها وتلوث وجهه .. واحتفاظها بصحتها هو الذى احتفظ لزوجها بكل متعته بها .. بل إنها كلما سمنت ابتكر زوجها حركات جديدة فى إشباع متعته كأنه يلعب فى ملعب من لحمها .. وهى تلعب معه وتزداد متعتها هى الأخرى ..

ولم تهتم أبدا بازدياد وزنها .. حتى بعد أن أصبحت أعجوبه تلفت النظر بسمنتها .. وعلى كل حال فإن كل نساء العائلة يعشن مكافحات للسمنة .. إن أختها اعتماد اضطرت أن تجرى عملية جراحية فى صدرها حتى تشد ثدييها بعد أن انهارتا حتى أصبحتا تلامسان بطنها .. وإن أختيها فوقية وعائشة تعيشان محرومتين من الأكل خاضعتين لقواعد « الرجيم » وتعذبان نفسيهما بالألعاب الرياضية ، وتمشيان على أقدامهما كل يوم ساعات حتى تقاوما انطلاق ردفيهما إلى التهدل والانبعاج لتصبح مؤخرة كل منهما كأنها هودج جمل تحمله على ظهرها .. ولكنها هى لا تهتم بمقاومة السمنة .. بل إنها تعودت أن تزهو بها .. فهى رغم هذه السمنة تحس كأنها أجمل أخواتها وأنوثتها أشد إغراء من أنوثتهن .. يكفى جمال وجهها .. إنها منذ كانت صغيرة والعائلة كلها تتغنى بجمال عينيها الواسعتين .. واكتناز شفتيها كأنهما أعدتا للقبل .. وأنفها الرفيع المتعالى كأنه تحفة غالية تركها الله على وجهها .. وخديها المشدودين اللذين يحملان بريق قمر الرابعة عشرة .. وشعرها الطويل فى لون الليل الذى تتفنن فى عقصه وابتكار ضفائره .. وكل هذا الجمال .. جمال وجهها .. يزداد جمالا مع

ازدياد سمنتها مهما حدث لقوامها.. كأن كل الرجال يكتفون بالنظر ملهوفين إلى وجهها ولا يخطر لهم الاطلاع على قوامها ..

وكانت أحيانا تتعجب من حكمة الله فى خلق أفراد العائلة .. إن كل نساء العائلة بما فيهن أمها سمينات .. إما يعشن مقاومات للسمنة وإما تنطلق أجسادهن ويحملن كل يوم مزيدا من اللحم والدهن كما يحدث لها .. وذلك بعكس رجال العائلة بما فيهم أبوها .. كلهم لا يتعرضون للسمنة .. ولكل منهم قوام رشيق لا يبذل أى مجهود للاحتفاظ برشاقته .. حتى زوجها محمود .. إنه فارع القوام ليس رفيعا كعود القصب ولكنه أيضا ليس سمينا كشجرة الجميز .. وهو لا يهتم أبدا بما إذا كان سمينا أو رفيعا .. ولم يخطر على باله أبدا أن يزن نفسه فى الميزان .. ومعروف عنه أنه أكول .. بل إنه يفوقها فى شهيته ويأكل أضعاف ما تأكله .. إذا أكلت طبق شركسية أكل طبقين .. وهى لا تحتمل أكثر من نصف فرخة بينما هو لا يترك من الفرخة كلها شيئا .. بل إن طبيعته فى الإقبال على الأكل كانت تفتح شهيتها أكثر .. بل قد يدفعها إلى تحدى شهيتها فتأكل أكثر .. كانا دائما كأنهما يتنافسان فيمن يتمتع بالأكل أكثر .. ولكنه لا يتغير أبدا منذ عرفته .. ولم يسمن ولم ينتفخ ولم يتهدل قوامه .. إنه محتفظ دائما برشاقة قوامه دون أن يبذل أى مجهود أو يطبق على نفسه أى شروط للاحتفاظ بهذه الرشاقة .. وكانت تقول ضاحكة : إن ما يأكله لا يطيق أن يبقى فى أمعائه أو ينتشر لينام فى لحمه ، ولكن كل ما يأكله يهرب منه ويتركه كما دخله فلا يسمن به .. وتتسع ابتسامتها وهى تقول لنفسها إن كل منهما يكمل الآخر .. فهى تحتفظ فى جسدها بالأكل الذى يهرب من

جسده .. أى أنها ليست سمينة بما تأكله وحدها ولكن بما يأكلانه معا ..

وكان قد مضى أكثر من عشر سنوات على زواجها عندما بدأت تحس أن زوجها محمود يتغير .. إنه لم يعد يسرف فى تحسسها عندما تكون فى أحضانه كما تعود وعوّدها .. ولم يعد يلعب كثيرا فوق ملعب جسدها .. بل تنقضى ليالى طويلة دون أن يمد يده ليلمسها .. وإذا حاولت هى أن تلمسه استقبل لمستها فى برود وقال نكتة تافهة ثم أدار لها ظهره .. وأحيانا تمر بها ليلة يبدو فيها أنه تذكر مسئوليته فيقبل عليها .. ولكنه لا يتحسسها بهذا الانبهار الذى كان دائما يلازمه ولا يلعب فى ملعبها بهذا الفن الذى كانت تعتبره دائما متخصصا فيه .. ولكنه يبدو كأنه يقوم بمهمة روتينية .. ويحرص على أصول اللعبة حتى يدخل الجول فى الملعب .. وقد أصبح الجول الذى يدخله عاديا كأنه جول فى ملعب ينفرد به فلا يثير انبهارا ولا تحس فيه بروعة اللعبة ..

وكانت تطرد هذه الأحاسيس بمحاولة إقناع نفسها بما تسمعه بأن الحياة الزوجية لا يمكن أن تستمر طويلا كما بدأت .. والعلاقة بين الزوج والزوجة تتطور بتطور السن .. لا يمكن أن تنتظر من زوجها اليوم ما كانت تنتظره منه طوال السنوات الماضية .. ولتعترف أنها هى نفسها تطورت وخف تهافتها على زوجها عما كان عليه .. الحب لا يزال كما هو .. إنها تحبه نفس الحب الذى جمعهما وتزوجا به .. ولكن مطالب الحب تطورت وأصبح لها أشكال جديدة وأسلوب جديد ورنة جديدة .. إن كل مولود أنجبته أخذ من حبها له .. ولم يعد هو وحده كل الحب .. وكلما كبر المولود أخذ أكثر .. ولعله أخذ من حبه لها

كما أخذ من حبها له .. لم يأخذ الحب نفسه ولكن من مطالب واحتياجات هذا الحب ..

ولكن زوجها محمود يتغير أكثر .. حتى شهيته للأطباق التى تقدمها له بدأت تخفت .. لم يعد فيها هذا الانبهار الذى يطلق شهيته حتى يأكل كأنه لن يشبع أبدا .. رغم أنها بذلت مجهودا حتى تصل إلى أطباق جديدة وألذ تقدمها له .. بل إنه بدأ يعتذر عن تناول الغداء فى البيت بحجة أنه مدعو دعوة عمل .. لم يكن هذا يحدث من قبل .. وأكثر من ذلك .. لقد بدأ يغيب ليالى طويلة .. بحجة السفر إلى الإسكندرية لإنجاز عمل .. وحدث أن كانت الحجة هى السفر إلى الخارج .. وقد حدثها عن أعمال جديدة بدأ يتحمل مسئوليتها .. ولا تدرى لماذا لا تستطيع أن تصدقه وتتغلب على إحساسها بأنه يخدعها .. يكذب عليها .. وقالت له مرة :

ــ لقد تغيرت ..

وقال وهو يربت عليها كأنها طفلة لا تفهم شيئا وينحنى يقبلها على خدها كأنه يعطيها قطعة من الحلوى تشغل بحلوائها :

ــ كل شيء يمكن أن يتغير إلا أنك زوجتى وأم أولادى .. أنت العمر كله ..

وكان الشيء الوحيد الذى لم يتغير هو حرصه على الاهتمام بمطالب البيت واحتياجات أولاده .. إنه مهما تغير لا يفرط فى مسئوليته كزوج وأب .. وهى بالنسبة له لم تعد سوى زوجة وأم ..

إلى أن بدأت تسمع كلام الناس ..

لقد أصبحت له امرأة أخرى .. وقيل إنه تزوجها زواجا عرفيا .. لعله أراد أن يحتفظ لها هى وحدها بالزواج الشرعى .. شكرا ياسى محمود .. ولكنك لا تدرى أنه أهون علىّ أن أموت من أن أعرف أن لك امرأة أخرى سواء تزوجتها زواجا شرعيا أو عرفيا .. حتى لو كانت مجرد امرأة تتحسسها كما تتحسسنى ..

وبدأت خواطرها تعذبها .. وأفكارها تعصف بها .. هل تصارحه بما عرفته وبما يتقول به الناس .. ولكنها لو صارحته فيجب أن تضعه موضع الخيار .. إما أن يترك الأخرى ويعود لها كما كان .. وإما أن يتركها هى .. يطلقها .. ولكنها لا تحتمل مجرد تصور الطلاق .. إنها لا تستطيع أن تتصور أنها تستطيع أن تعيش فى قالب غير القالب الذى تعيش فيه هى وأولادها .. وإذا كان من حقه أن يختار بينها وبين الأخرى فهى لا تستطيع أن تختار .. ليس لها حياة أخرى إلا حياتها معه .. حتى لو كانت له امرأة أخرى ..

وكانت خواطرها تعصف بها فتقبل على الأكل أكثر .. إنها تشغل نفسها أكثر بالمطبخ كأنها تلجأ إليه لتهرب من خواطرها .. ثم تجلس لتأكل فتأكل أكثر دون أن تحس بما تأكله .. لا بطعمه ولا بلذته .. إنما فقط تحرك أسنانها كأنها تمزق خواطرها التى تعذبها .. وازداد وزنها أكثر .. سمنت أكثر .. حتى كأن جسدها لم يعد يستطيع أن يشد جلده ويشد بعضه ببعضه فبدأ يبدو عليه جوانب مترهلة ..

وخطر لها خاطر تمكن منها .. إنها تريد أن ترى هذه المرأة الأخرى .. ماذا أعجب زوجها فيها .. كيف استطاعت أن تأخذه منها .. ولو أنها تركت لها جانب الشرعية فى الزواج لها وحدها .. تريد

أن تراها لتكتشف سرها وتحاربها فيه حتى تطمسها من حياة زوجها وتسترده خالصا لها كما كان ..

وسعى معها بعض الصديقات حتى استطاعت أن ترى هذه المرأة الأخرى .. رأتها من بعيد .. لا يمكن أن تكون أجمل منها .. ليس لها جمال وجهها .. ولا عيناها المتسعتان .. ولا شفتاها المكتنزتان .. ولا شعرها الطويل فى لون الليل .. ولا وجنتاها كشقى القمر .. ولا لونها الأسمر الفاتح الرقيق .. ولكنها رفيعة .. ليست سمينة متضخمة مثلها .. إنها لا تستطيع أن تنكر أن لها قواما رشيقا هذه الرشاقة التى تأخذ الناس وإن كانت هى لم تعترف بها أبدا فى تقدير جمالها ..

لعل زوجها انجذب إليها إلى حد الانهيار لأنها رشيقة .. رفيعة .. بعد أن شبع من اللعب فوق جسدها السمين حتى ضاق به .. إنهم يقولون إن الرجل ينجذب إلى القوام الرشيق حتى مع انخفاض نسبة جمال الوجه .. وقد بدأت تعترف بضعف جذبها لزوجها والاحتفاظ به لأنها سمينة .. وكأنها تعذره .. بل كان قد مر بها خاطر أن يكون لها هى الأخرى رجل آخر كما أن لزوجها امرأة أخرى .. ويعيش كل منهما وله ما يغنيه عن الآخر من هذه الناحية .. ناحية الإشباع الجسدى .. ولكن .. أى رجل آخر يقبل على إشباع هذا الجسد السمين الذى أصبح مترهلا .. جسد لا يستطيع أن يجذب رجلا ويغريه إلى حد أن يصل به إلى الحب .. إنها قد لا تصلح إلا إلى رجل مأجور أو رجل يريد أن يلهو ويشهر بها ..

ماذا تفعل لتستمر بها الحياة بعيدا عن هذا الضيق الذى يكاد يكتم أنفاسها ؟..

ليس أمامها إلا أن تزيل سمنتها .. أن تخس .. وتعود جذابة مغرية كما كانت فى صباها ..

إن وزنها الآن خمسة وتسعون كيلو ويجب أن تخفضه إلى ستين كيلو فقط إذا أرادت أن تصل إلى مستوى الرشاقة .. أى يجب أن تطرد من على جسدها خمسة وثلاثين كيلو ..

هل تستطيع ؟

إنها مصممة ومصرة على المحاولة حتى ولو ماتت فى سبيلها ..

والتف حولها أخواتها وصديقاتها وكل منهن بمشروع ونصيحة ..

وذهبت إلى طبيب مختص أعطاها دواء ليصد نفسها عن الأكل .. وطبيب آخر أعد لها علاجا طبيعيا .. وانضمت إلى معهد مخصص فى التدريبات الرياضية .. وكانت تخرج من بيتها فى الصباح الباكر لتسير على قدميها ليس أقل من ساعة .. ولكنها تعبة .. وتكاد فى كل ساعة أن يتغلب يأسها على أملها .. لقد ثبت أن أدوية صد النفس أضعف من مقاومة شهيتها .. وقد تمتنع عن الأكل يوما لا بفضل تأثير هذه الأدوية ولكن بفضل إصرارها على المقاومة .. مقاومة شهيتها .. ولكنها تضعف فى اليوم التالى وتخدع نفسها بأنها لقمة واحدة .. وتستسلم إلى لقمتين .. وثلاثا وأربعا .. كما أنها لا تستطيع الاندماج فى العلاج الطبيعى ومعاهد التجميل .. إنها تكاد تنام ملء جفنيها كلما امتدت راقدة على ظهرها لتبدأ الحركات المفروضة عليها .. ثم إنها لم تعد تحتمل هذه الساعة التى تقضيها كل صباح سيرا على قدميها .. إنها تحس أنها تسير وعلى ظهرها حمل ثقيل يكاد يكتم أنفاسها ..

وبدأت تستسلم لليأس ..

لا أمل ..

إلى أن ضج المجتمع بوصول الدكتور صبرى طبيب التجميل .. لقد جاء من أمريكا بعد أن أتم دراسته هناك واشتهر هناك فعلا حتى وصلت شهرته إلى مصر قبل أن يصل إليها ..

وقد قام الدكتور صبرى بمعجزات يتحدث عنها كل الناس .. لقد غير وجه السيدة سميرة حتى جعلها ملكة جمال بعد أن كانت فى الدرجة الخامسة أو العاشرة بين الجميلات .. وعمليات شد الجلد يقوم بها كأنه يأمر الجلد بأن يشتد فيشتد .. وكل الفنانين والفنانات أصبحوا يعيشون داخل جلد الدكتور صبرى .. وعمليات تجميل الثدى جذبت كل النساء القادرات على دفع الثمن .. إنه لا يكتفى بتخسيس الثدى أو شد ترهله بل إنه يستطيع أيضا أن يبرز الثدى الصغير الذى يكاد يكون بلا كيان وكأن صاحبته ليس لها ثدى .. يستطيع أن يضع على صدرها قطعا من اللحم يبرز ثديها حتى يتغنى الناس بجماله .. و .. و ..

يجب أن تذهب إلى الدكتور صبرى ..

وفحصها الدكتور صبرى طويلا بمعدات كثيرة جاءت معه من أمريكا ، ثم قال فى لهجة الأستاذ الكبير دون أن يخفف من كلماته رحمة بها :

ــ لا أمل .. إن وزنك كله مركز فى طبقة من الشحم تحيط بجسدك كله من تحت جلدك .. وأى علاج طبيعى أو علاج بالأدوية المركبة لن يؤدى إلى نتيجة سريعة .. ربما فى أكثر من خمس سنوات يمكن أن نزيل من طبقة الشحم خمسة كيلو جرامات .. أى تبقين كما أنت .. والوسيلة الوحيدة هى أن نزيل طبقة الشحم بعملية جراحية ..

وقالت بسرعة وهى مبهورة :

ــ موافقة على العملية الجراحية ..

وقال الطبيب فى هدوء :

ــ إنها عملية ليست عادية .. وهى ليست واحدة ، إنها عدة عمليات ..

وقالت كأنها تلح مستجدية :

ــ إنى مستعدة ..

وقال وهو لا يزال فى هدوء الأستاذ :

ــ إنى مضطر أن أطلب منك أن تكتبى لى ورقة بموافقتك ..

وقالت بسرعة :

ــ حاضر ..

وقفزت ناحية مكتبه تبحث عن قلم وورقة لتكتب له موافقتها على إجراء العملية ..

وقال مبتسما ابتسامة إشفاق :

ــ ليس اليوم .. سأراك بعد ثلاثة أيام تكونين خلالها قد داومت التفكير مع تصور خطورة العملية .. وأكون خلالها راجعت ما أحتاجه من دراسات خاصة بهذه العملية ..

وعادت إلى البيت وقالت لزوجها وكأنها فرحة :

ــ سأجرى عملية ..

وقال فى دهشة :

ــ لماذا .. ليس بك شىء ؟

وقالت وهى تنظر إليه بكل عينيها كأنها تريده أن يحس بأنها تغامر

بنفسها من أجله :

— إنها عملية تخسيس ..

ونظر إليها ساخرا وقال ضاحكا :

— بعد هذا العمر ؟!

وقالت وهى تلوى شفتيها غاضبة :

— إنى لا زلت فى عز شبابى .. أم أنك أصبحت تعتبرنى عجوزا ..

قال كأنه يعتذر :

— أقصد العمر الذى عشناه معا ..

قالت وهى تدارى خبثها :

— أخشى أن تكون قد بدأت تفضلنى رفيعة ..

وقال فى لهجة باردة لا تعبر عن عاطفة :

— إنى أريدك كما أنت .. سمينة أو رفيعة ..

وقالت وهى تحاول أن تضحك :

— لقد قررت أن أجربك وأنا فى شكل جديد ..

ولم يرد بشىء ولم يعلق بشىء على إجراء هذه العملية .. لا يوافق ولا يرفض ..

ولم تقل شيئا عن هذه العملية إلا لزوجها وأخواتها البنات وأوصتهم بألا يذعن الخبر ويحتفظن به سرا .. إن عمليات التجميل لا يعلن عنها .. وكأن كل امرأة حريصة على أن تخفى أنها فى حاجة إلى عملية جراحية لتكون جميلة .. وكثيرات من النساء يسافرن إلى أوربا بحجة متعة السياحة والشراء فى حين أنهن مسافرات لإجراء عمليات التجميل .. ولا يكتشف الناس الحقيقة إلا بعد أن يعدن بأنف جديد .

أو ثدى جديد .. أو جلد مشدود ..

وبدأ الدكتور صبرى فى إجراء العملية .. وقضت شهرا وبضعة أيام وهى فى المستشفى .. إن عمليات التجميل تتطلب وقتا أطول من الوقت الذى تتطلبه العمليات العادية .. ولم تكن عملية واحدة .. لقد أجرى لها الدكتور صبرى العملية الأولى .. ثم بعد ثلاثة أيام أجرى لها عملية ثانية .. ثم بعد أسبوع أجرى لها عملية ثالثة .. عمليات شملت كل جسدها من أول صدرها حتى فخذيها .. ولكنها لم تشمل وجهها وعنقها .. وكانت عمليات لإزاحة طبقة الشحم من فوق لحمها ومن تحت جلدها .. وقد عانت كثيرا .. عانت الآلام وعذاب كل قطعة من جسدها حتى إنها عاشت الشهر الكامل وهى تحت تأثير مخدر لا تكاد تفيق منه حتى تبدأ فى الصراخ وتلحقها الممرضات بحقنة أخرى من المخدر ..

وانتهى كل شىء .. ورفع الطبيب الضمادات السميكة التى تلف جسدها ووضع مكانها قطعا من الشاش والبلاستيك الخفيف .. ولكنه لم يسمح لها بمغادرة الفراش .. وبدأت وهى راقدة تتحسس قوام جسدها الجديد .. إنها تحس فعلا أنها تعيش داخل جسد جديد لم يكن لها أبدا .. إن ثدييها أصبحا صغيرين مشدودين كثديى ابنة الرابعة عشرة .. ولكن ما هذا ؟.. إن على كل جانب من جنبيها وتحت ذراعيها حفرة طويلة عميقة كأنها قناة مفتوحة .. ويسقط فيها جلدها كأنه قطعة من القماش معلقة فوق شماعة .. وكل فلكة من فلكتى المؤخرة فيها حفرة عميقة كأنها بئر .. وفى أكثر من مكان من جسدها حفرات أو قطع بارزة .. إنه جسد مشوه ..

ودخل عليها الدكتور صبرى فقالت له كأنها تستغيث وعيناها فى هلع :

ـــ يادكتور .. لقد أحسست أن فى جسدى ..

ولم يتركها الدكتور صبرى تتم وقاطعها فى لهجة آمرة :

ـــ لاتقولى شيئا إلا بعد أن أسمح لك بترك فراشك ..

واختفى من أمامها .. وما كاد يخرج من الغرفة حتى دخلت وراءه السيدة لطيفة هانم .. وفغرت فاها دهشة حتى كأنها تهم بالصراخ .. إنها تعرفها .. إن لطيفة هى ابنة الباشوات القدامى التى احترفت تفصيل الفساتين وافتتحت محلا للأزياء أصبح أشهر وأغلى محل أزياء فى القاهرة .. وهى لم تذهب إليها فى المحل فلم تكن وهى سمينة تهتم بالأزياء التى تختارها إلى حد أن تذهب إلى لطيفة هانم ..

ـــ إن الدكتور صبرى أوصانى بأن أعد لك ثوبا جميلا .. وحالا ..

ولم ترد عليها إلا بالدهشة التى تملأ عينيها .. وتركتها تكشف عنها غطاء السرير وتبدأ فى أخذ مقاييس جسدها .. لا شك أنها لمحت التشوهات التى فى جسدها .. وستفضحها .. ولكن لعل الطبيب أوصاها بأن تحتفظ بأسرار العملية سرا .. وقالت للطيفة هانم بعد أن خفت دهشتها :

ـــ والقماش ؟

وقالت لطيفة هانم بلا أهتمام :

ـــ لقد أوصانى الدكتور صبرى باختياره .. وأنا واثقة أنك ستوافقين على اختيارى ..

وبعد دقائق عادت لطيفة تقول :

ـــ قد أعود إليك بالثوب غدا بعد الظهر ..

وقد عادت إليها تحمل الثوب الجديد ودخل معها الدكتور صبرى نفسه ومعه اثنتان من الممرضات .. وجلس الدكتور على مقعد كأنه فى انتظار إجراء تجربة ، بينما جذبتها الممرضتان من فوق السرير وبدأت لطيفة هانم تلبسها الثوب .. وألبستها أيضا حذاءها العالى الذى كانت قد جاءت به إلى المستشفى .. ثم أوقفتها أمام مرآة طويلة .. ونظرت إلى نفسها فى ذهول .. إنها فعلا أصبحت رشيقة .. ليست رفيعة ولكنها رشيقة وحتى وجهها الذى لم تشمله العملية قد تخلص من انتفاخه ربما نتيجة الإعياء الطويل .. وعنقها أصبح رفيعا وكأنه طال .. إنها امرأة أخرى غير التى كانت يعرفها الناس وغير ماكانت تعرف نفسها .. وابتسمت فرحة .. إنها ستذهل الناس بقوامها الجديد .. ولن تقول أكثر من أنها اتبعت رجيما حتى خست .. وسألها الدكتور صبرى وعيناها تبرقان كأنه يهنىء نفسه :

ـــ ما رأيك ..؟

وصاحت :

ـــ هايل .. تسلم يداك يادكتور ..

واستمرت تبحلق فى نفسها أمام المرآه بل إنها انطلقت حتى أخذت تحادث لطيفة هانم عن بعض التعديلات فى الثوب .. ثم فجأة سكتت واختفت ابتسامتها وغاصت فرحتها .. لقد تذكرت أن هذا القوام الذى تراه فى المرآه هو قوام مشوه من تحت الثوب .. وقال لها الدكتور صبرى مبتسما :

ـــ لقد أردت أن ترى نفسك كما أردت أن تكونى .. رشيقة ..

وقال مقاطعا :

ــ لقد حققت لك ماأردت منى .. وكل ما فى جسدك لن يراه الناس .. لن يروا إلا رشاقتك ..

قالت وكأنها تهم بالبكاء :

ــ ولكنى أنا أرى جسدى .. ومن حق زوجى أن يراه ..

قال فى لهجة حادة :

ــ هذا ما تتحملينه أنت وزوجك .. وكل مسئوليتى كانت أن أرفع لك مظهر السمنة وأوفر لك مظهر الرشاقة .. وربما تلاحظين أنى قمت لك بعملية شد جلد فوق ذراعيك بعد أن أزلت عنهما طبقة الشحم .. لأن ذراعيك يكملان مظهرك .. أما باقى جسدك فلم أستطع أن أصنع فيه شيئا .. إنى فخور بهذه العملية .. إنها أجرأ عملية قمت بها حتى اليوم .. وسأراك بعد عام على الأقل فربما استطعت أن أجد حلا لما تركته فيك العملية ..

وقام منصرفا قائلا دون أن يمد يده لها مصافحا :

ــ الحمد لله على السلامة .. ومبروك ..

ولطيفة هانم قبلتها بحرارة وهى تكرر .. مبروك .. مبروك .. ألف مبروك .. والممرضتان تكادان تزغردان فرحة بنجاح العملية .. وظلت هى فى الثوب الجديد إلى أن جاء زوجها لزيارتها فى المستشفى كعادته .. وبهت وهو يراها واقفة أمامه .. إنها رشيقة .. إنها امرأة أخرى .. وهم أن يحتضنها فرحا بها .. ولكنها ابتعدت عنه بسرعة صائحة :

ــ لا تلمسنى ..

وقدر زوجها أنها لا تزال فى المستشفى وخفف عنه فرحته بها المبلغ الضخم الذى دفعه للطبيب والمستشفى . وكانت الفاتورة تضم ثمن الثوب الذى أمر به الطبيب وأتعاب لطيفة هانم .. ولكنها بعد أن خرجت وعادت إلى البيت أصبحت حريصة على ألا يرى زوجها أو أولادها جسدها .. وتتعمد أن تبدل ثيابها فى الحمام بعد أن تغلق بابه عليها بالمفتاح .. وتعمدت أن تلبس ثوبين للنوم فوق بعضهما حتى تغطى القنوات والآثار التى تركتها العملية فوق جسدها .. لم ير أحد هذه القنوات إلا أخواتها البنات .. ورثين لها بعد أن صدمن بما رأين ..

وقالت أختها وهى تقاوم ألا تبكى عليها :

ــ لا يهمك .. إنك لا تظهرين أمام الناس عارية ..

وقالت وهى تبكى :

ــ وزوجى محمود ..

وقالت أختها وهى تدير عينيها عنها :

ــ إنه لم يعد يستحق قطعة من جسدك ولا ظفر أصبعك ..

ولكن زوجها يحاول معها فى كل ليلة وهى تصيح مبتعدة عنه :

ــ لا تلمسنى .. لا أستطيع أن أحتمل مجرد لمسة ..

ولكنها تركته يقبلها .. إنها هى نفسها فى حاجة إلى هذه القبلات حتى تخفف من حرمانها .. ولكن زوجها انهار فوقها مرة .. واحتضنها كلها .. ومد أصابعه تحت ثوبها .. وبدأ يحاول .. ولكنه عاد وانهار بعيدا عنها وهو يقول :

ــ ما هذا .. إنى أخاف أن أقترب منك .. هل قمت بعملية تجميل أم عملية تشويه ؟..

ولم يعد من يومها يحاول أن يقترب منها أو يلمسها .. بل ضاع انبهاره برشاقتها الجديدة وأصبح ينظر إليها كأنه قرفان منها .. وعاد إلى أسوأ مما كان .. منطلقا بعيدا عنها .. وطبعا مع المرأة الأخرى .. ولكنه لا يطلقها ..

وقررت أن تستغل مظهرها الجديد .. مظهر المرأة الحلوة الرشيقة .. وبدأت تتردد على المجتمعات وتغيظ زوجها بالتردد على سهرات الليل .. وقد أصبحت زبونة دائمة لمحلات أزياء لطيفة هانم .. إنها الوحيدة التى تعرف أسرار جسدها وتحتفظ بها فعلا كسر لا يعرفه أحد ..

وقد لاقت نجاحا فى المجتمع .. كل الناس يرونها كمرأة جديدة لم يعرفوها من قبل .. امرأة لها كل هذا الجمال وكل هذه الرشاقة .. والتقت هذه المرأة الجديدة بأول رجل آخر يدخل حياتها .. أدهم .. إنهما يطيلان فى أحاديث التليفون .. وفى لقاءاتهما بالمجتمعات العامة .. وهو يريدها .. وهى قد بلغ بها العجز أمام زوجها إلى أنها أصبحت تريده هى الأخرى ، تريده وتتمناه .. ولكن ماذا تستطيع أن تعطيه .. لم يعد لها جسد تعطيه .. لم يبق لها من هذا الجسد ما تستطيع أن تعطيه إلا شفتاها .. وقد أعطته شفتيها وهى حريصة ألا تترك له الفرصة ليتحسس باقى جسدها .. وعذرها الذى تواجه به دائما معها .. إنها لا تستطيع أن تعطى أكثر لأنها امرأة شريفة .. إلى أن وصل إلى أن أصبح يطلبها للزواج .. ولكنها تجد أيضا العذر الذى تواجهه به .. إنها لا تستطيع أن تترك زوجها لأنها أم لا تقبل أن تضحى بأولادها ..

وأحيانا يشتد بها الندم على إجراء هذه العملية حتى تبكى بدموع طفلة ساذجة مغرورة .. واشتد بها الندم بعد أن مر عام وعادت إلى الدكتور صبرى وأبلغها أنه لم يجد حلا لعلاج تشوهات جسدها .. ستبقى هكذا العمر كله .. إنها لو كانت قد احتفظت بسمنتها لكانت تعطى زوجها أكثر مما تعطيه الآن .. أو لربما كان أدهم قد أحبها وهى سمينة كما أحبها وهى رشيقة .. إنها كما قال زوجها لم تقم بعملية تجميل بل بعملية تشويه .. قامت بعملية كتبت عليها الحرمان العمر كله .. ربما أراد الله أن يعاقبها ويعذبها لأنها تحدت إرادته .

فهرس

رقم الإيداع ١٨١٣ ــ ٨٥
الترقيم الدولى ٤ ــ ١٣٧٠ ــ ١١ ــ ٩٧٧